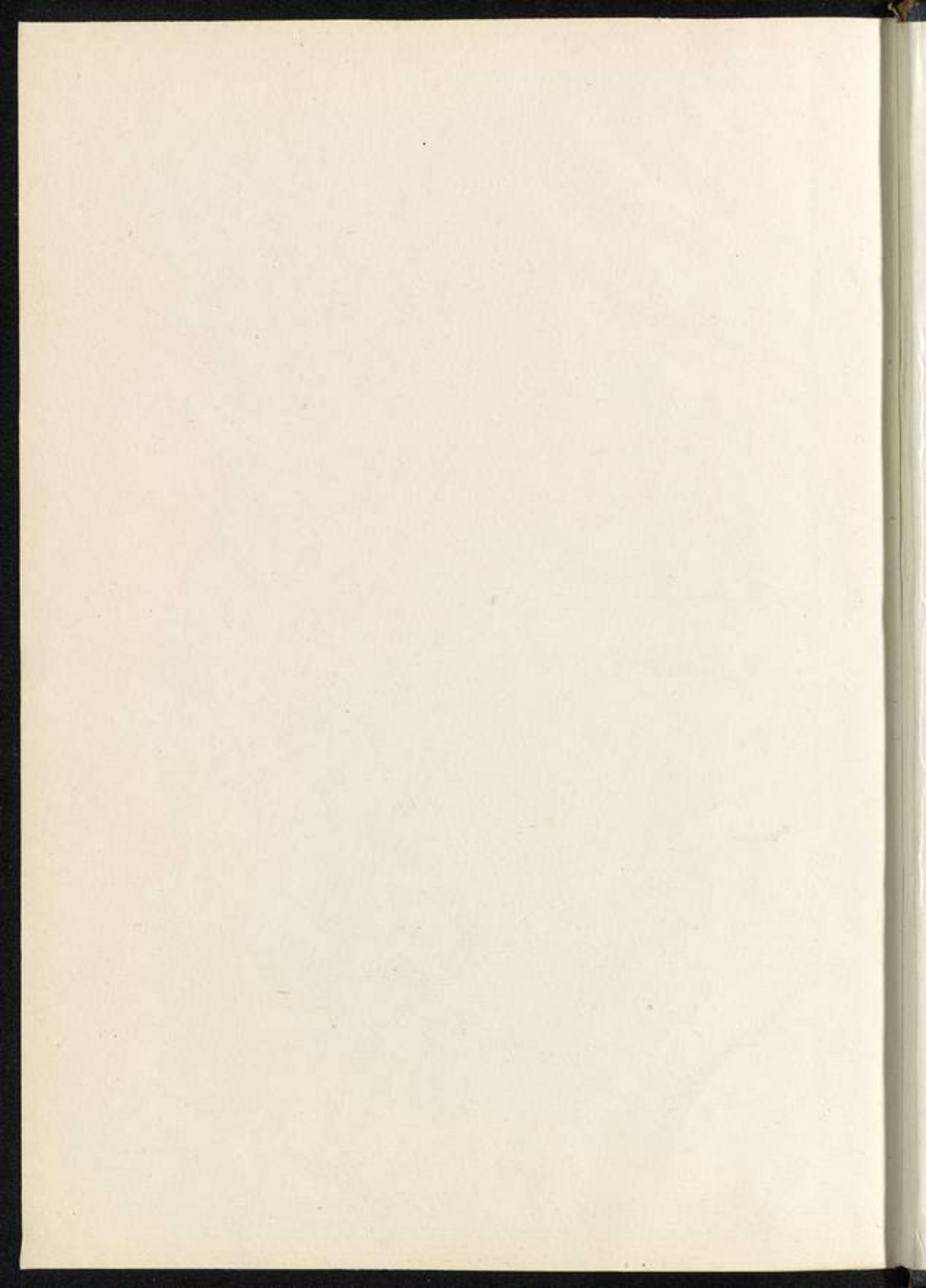


THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY

GENERAL LIBRARY

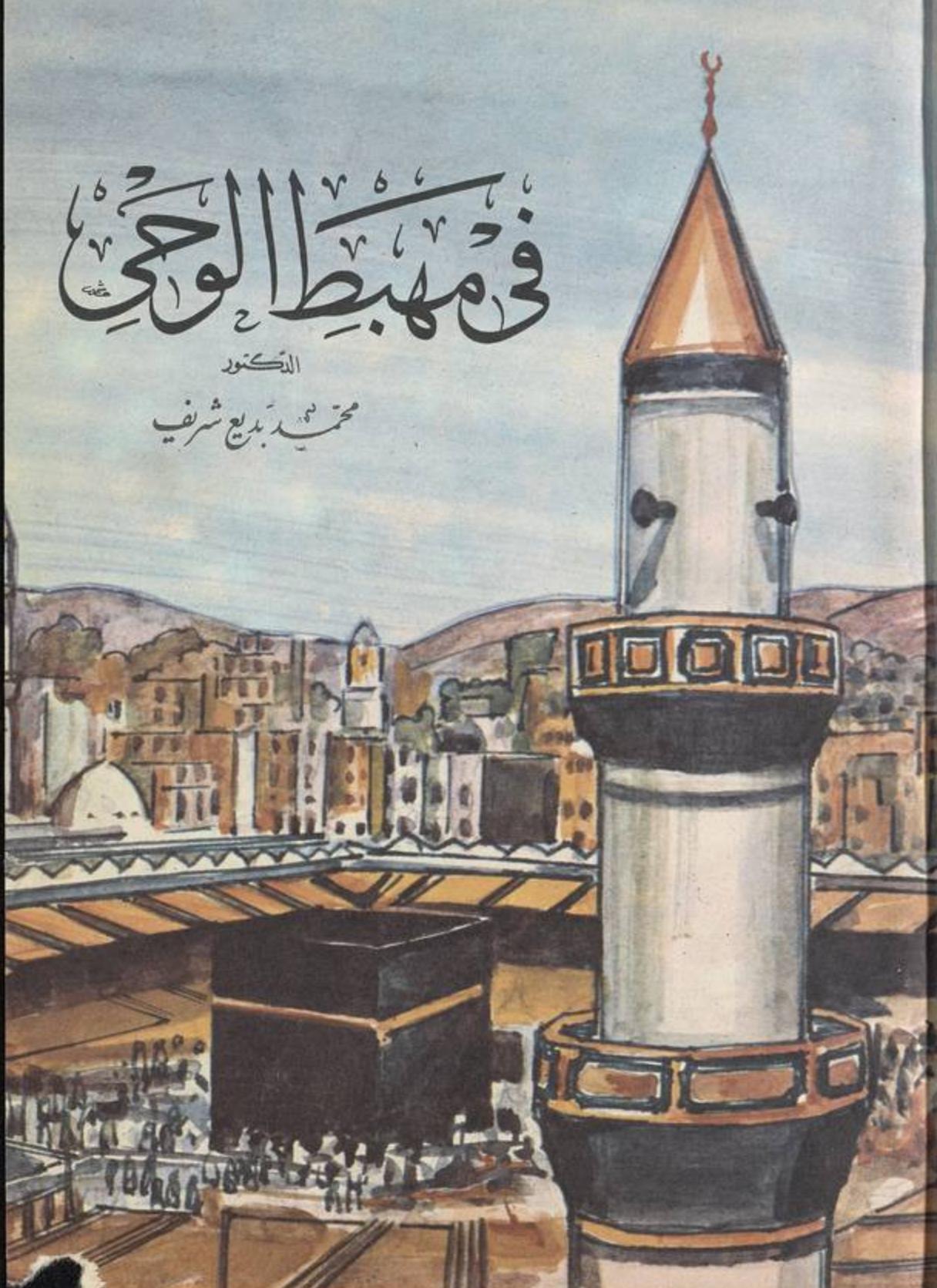


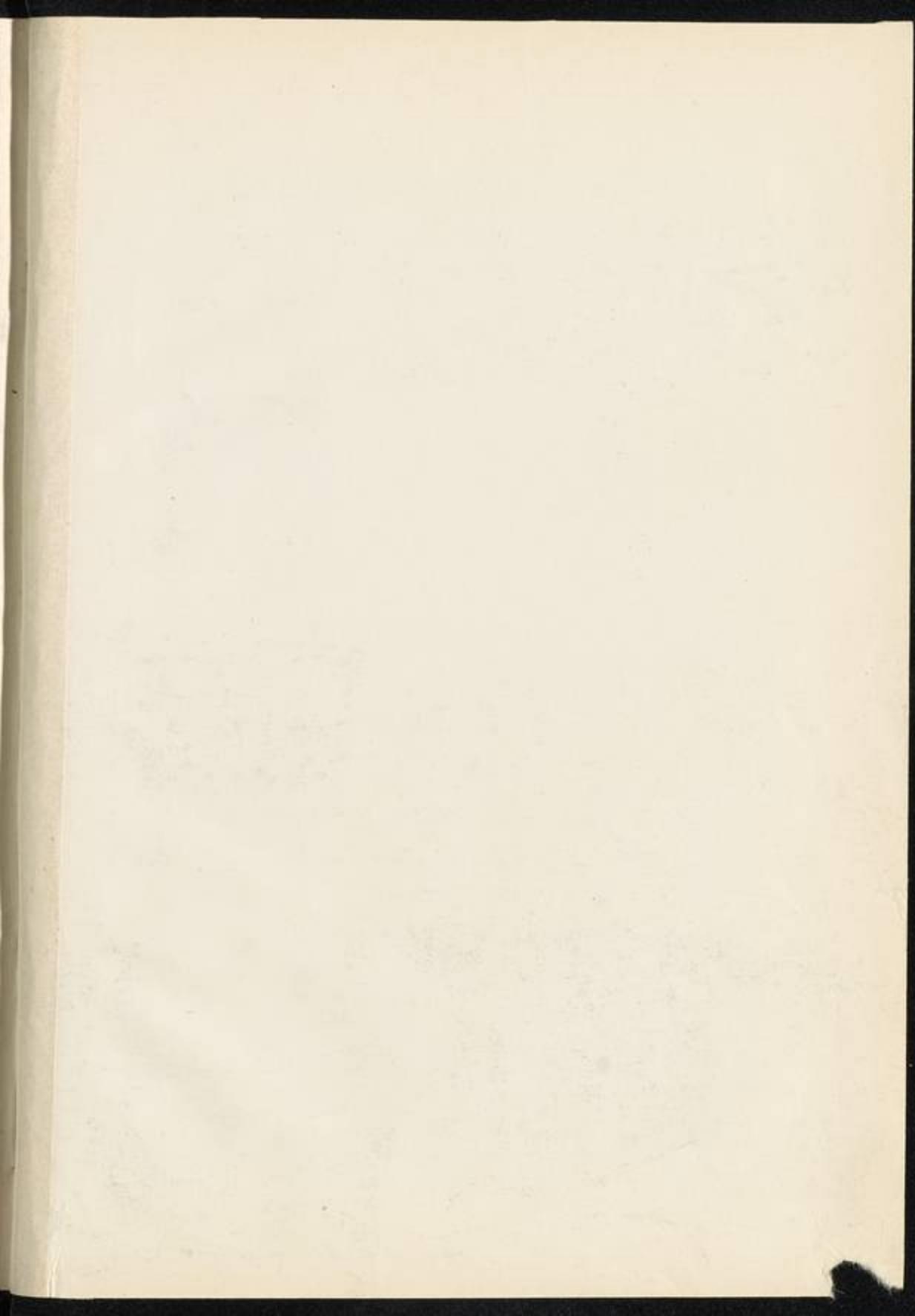
VAR-8442. Badi,

فِي مَهْبِطِ الْوَحْيِ

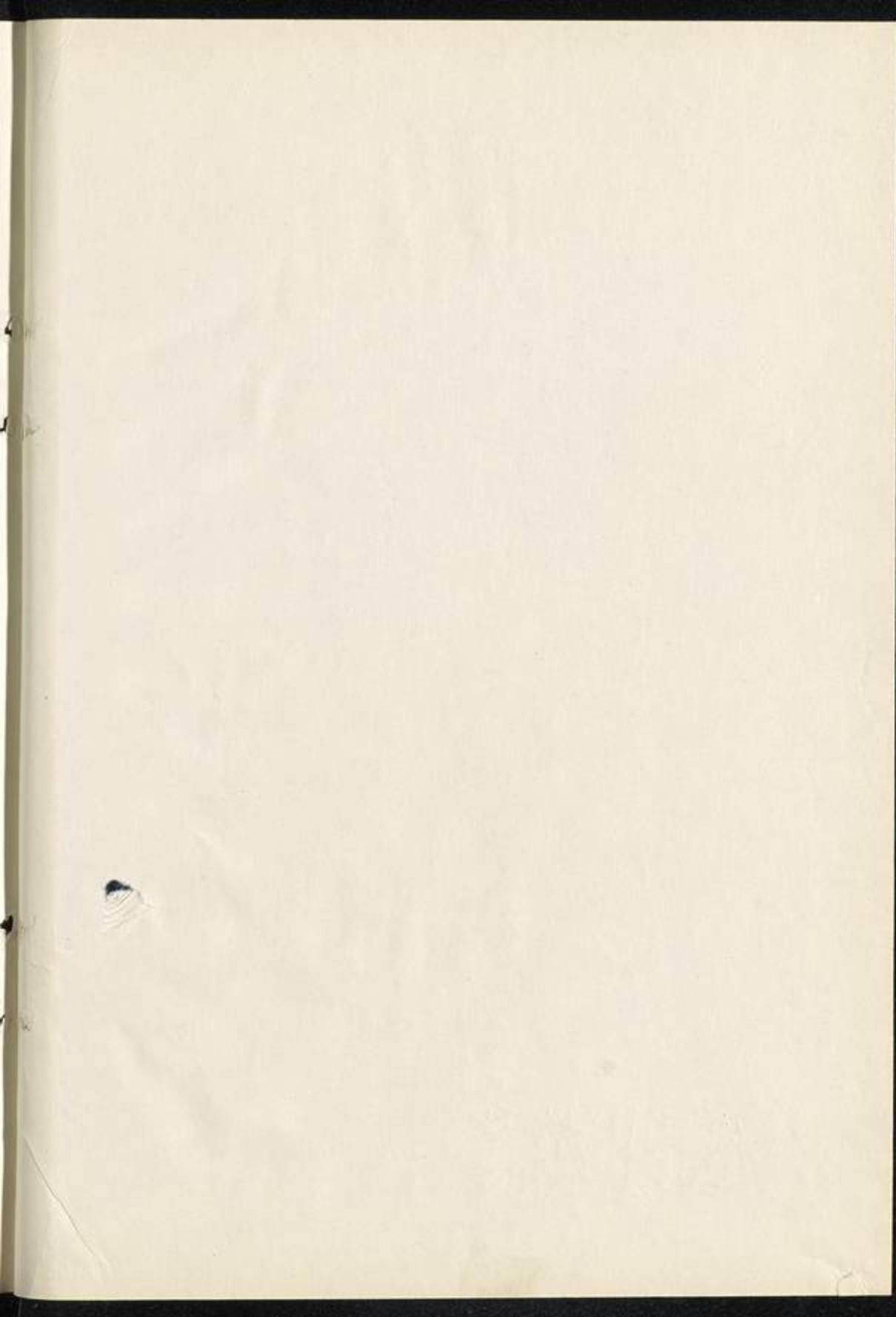
الذِكْرُور

مُحَمَّدْ بَدِيعْ شَرِيفْ





فِي مَهْبِطِ الْوَحْيِ



الدكتور

محمد بدیع شرفی

فِي مَهْبِطِ الْوَحْيِ

BP
١٨٧,٣
.٨٢٧

الطبعة الاولى

م١٩٦٥ - هـ١٣٨٥

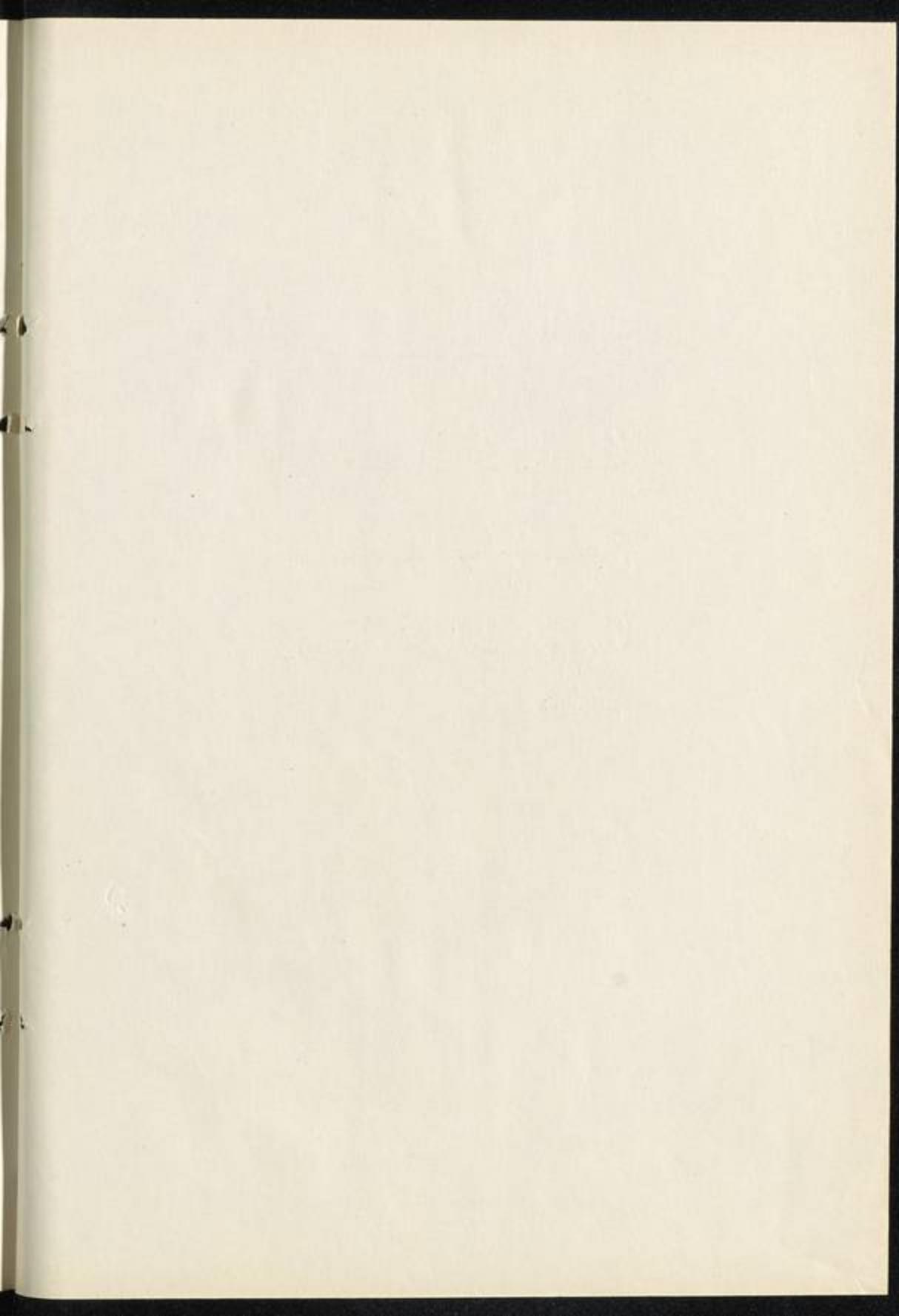
طبع من هذا الكتاب ستة آلاف نسخة في
مطبعة العاني
بغداد - العراق

JUL 26 1971
PL 480

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِلَيْكُمْ دِينَكُمْ
وَأَنْتُمْ عَلَيْكُمْ فَعْلَمْتُ
وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا

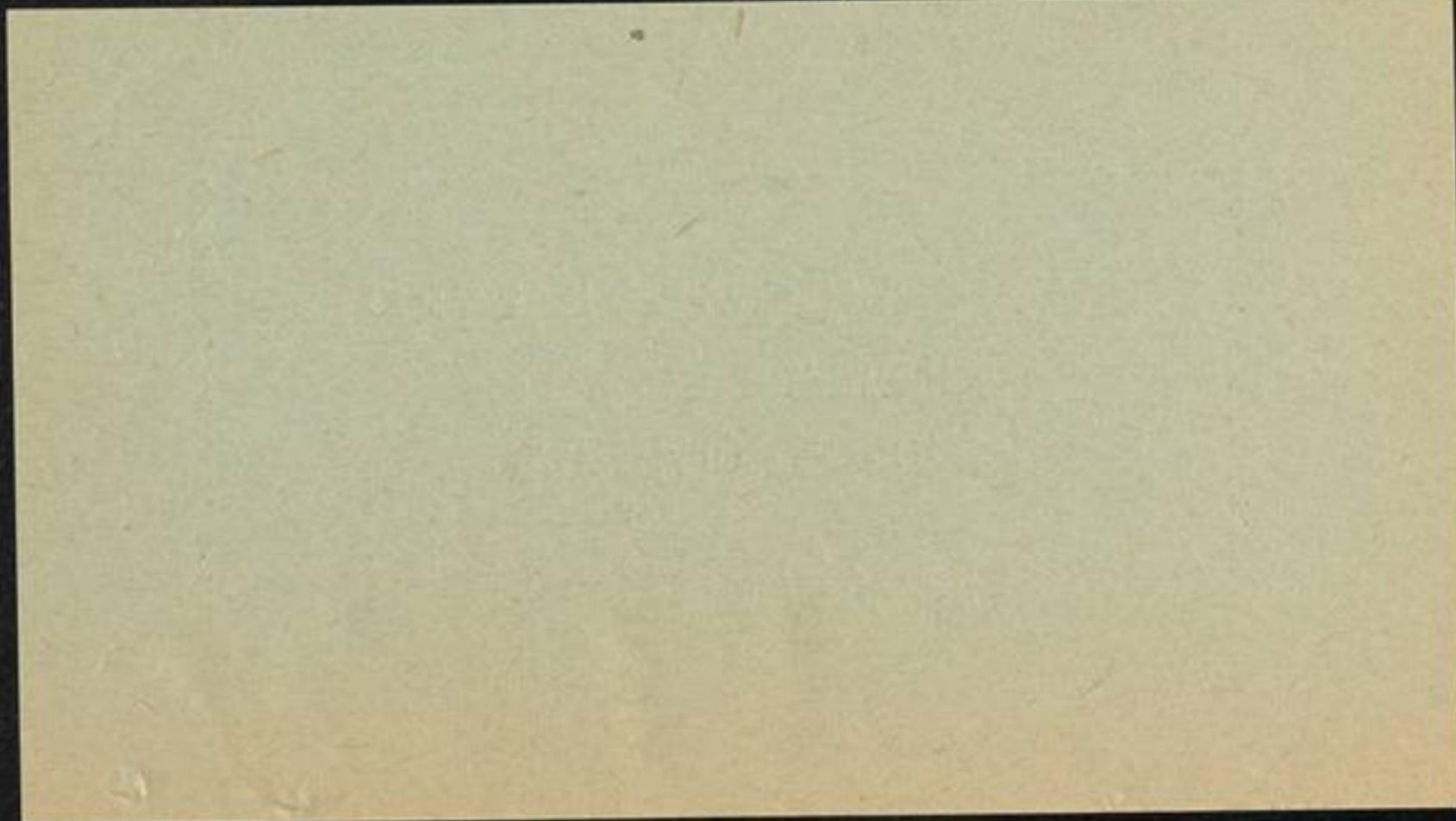
صَدَقَ اللَّهُ الظَّاهِرُ



مُقدَّمة المؤلِّف

كلما قرأت آية من آيات القرآن الكريم أو سمعت
تلاوة سورة من سوره أو مرَّ بي قبس اقتبسه منه
كاتب بلين فنظمه في ثنايا عباراته أزددت اعجاً وتعلقاً
بهذه المعجزة الكبرى في البيان العربي وجنتَ بي
الخيال الى ذلك الوادي غير ذي الزرع الذي ترعرعت
في جنباته الرسالة المحمدية وتمت حتى اكتملت
وظهرت للوجود تقدم للإنسانية مكارم الأخلاق وتعلن
للملا كرامة الإنسان . وكلما رددت تلاوة آيات الله
العزيز الحميد في قرآن المجيد : « هو الَّذِي أَرْسَلَ
رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَهِّرَهُ عَلَىٰ
الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا . مُحَمَّدٌ
رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشْدَادًا عَلَى الْكُفَّارِ

وقعت سهواً من الآيات الكريمة ص ٩
ترَاهُمْ رَكعاً سجداً يبتغون
فضلاً من الله ورضاوانا



رَحْمَاءَ بَيْنَهُمْ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ
أَثْرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثْلُهُمْ فِي التُّورَاةِ وَمَثْلُهُمْ فِي
الْاِنْجِيلِ كَزَرْعٍ اخْرَجَ شَطَأَهُ فَازْرَهُ فَاسْتَغْلَظَ
فَاسْتَوَى عَلَى سُوقَهِ يُعْجِبُ الزُّرَاعَ لِيَغِيظَ
بِهِمُ الْكُفَّارُ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَاجْرًا عَظِيمًا» .

كلما رددت تلاوة هذه الآيات الكريمة وامثالها
تكتشف لي بوضوح اهداف الرسالة المحمدية وكثير في
عيوني وجود الانسان وتمثلت لي هذه العقيدة الصافية
التي يمشي نور الهدایة بين يديها تحمل على جناحها
الرحمة والاعمال الصالحة والمودة والاخاء والتعاون
وهي ما يبتغيه بنو آدم على وجه هذه الارض .

وكلما أمسكت القرآن بيدي ارتفع بي الخيال الى
شرق الدعوة وعهد النبوة وتمثل لي المجتمع الاسلامي
كانه في مدرسة جامعة تنشيء الرجال والقادة . لقد
كانت مدرسة محمد (ص) مصنع الرجال وكانت
العناية الالهية تمده بالقوة والحنكة ، وهكذا تخرج في
مدرسة النبوة خلفاء يديرون سياسة الامة وأئمة
مشروعون يعرفون كيف يمسكون بميزان العدل وقاده
فاتحون رمى بهم الاسلام وجه الدهر فقصروا آماده
وانشأوا امة مكتملة مرشدة في مدة لا تزيد على ربع
قرن .

ثلاث وعشرون سنة من بها عهد النبوة في تشريع
وتهذيب وتكوين حتى اذا اكتمل هذا المجتمع الممتاز

خرج ابناء الوادى غير ذى الزرع الى الهلال الخصيب
سيماء الهدایة في وجوههم والرحمة مطوية عليها
جوانحهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانا ، خرجوا
ليعلموا الناس كيف يسود العدل وكيف تكون الاخوة
والمحبة والمساواة ، خرجوا وهم على مثال الانسانية
المكتملة لينشئوا للناس حضارة زاهية في ظلال
الطمأنينة .

ما رأى البشرية عهداً في عهود النبوات ولا كتب
التاريخ صفحة من صفحات المصلحين مثل هذه الفترة
التي مر بها عهد النبوة من شرق الدعوة الى اكمال
العقيدة الاسلامية . لقد اختفى في هذه الفترة سلطان
الارض عن رقابة الرعية ومشت احوال المجتمع رخاءً
يعرف كل امرئ حقه دون درجات المحاكم ودوائر
الأمن ومراكن الشرطة ومعاقل السجون ، وكانت
السماء هي الرقيبة على هذه الامة عقاب المسيء نار
موصدة في عمد ممدة وثواب المحسن جنات تجري من
تحتها الانهار . أما عقاب الدنيا فحدود معلومة وضعها
الشارع حيث يقرؤها الانسان ، ما استعملت الا لما
وفي أمور ملحة وكانت الشريعة الاسلامية نظام
المجتمع ينزل الوحي ويبلغ الرسول ويفهم الناس
فيؤمنون بما انزل ويطيعون وفي هذه الاطاعة تربى
ضمير المسلم تربية قوية وبعبارة أوضح تربت النفس
اللوامة التي أقسم بها القرآن الكريم والتي تلوم
صاحبها عند الخطأ وتعذبه فاما أن يتوب واما أن
يركض الى مقام النبوة يطلب اقامة الحد ، ومثلكما تلوم
صاحبها على الخطأ تحثه على عمل الخير وتعصمه من

الزلل . وفي ظل هذه التربية نشأ نظام الحكم في عهد النبوة وهو نظام غاية ما يطمح اليه الأنبياء والمصلحون في الأمم ذلك أن يعرف المرء حدود الله فيرتدع عن اتياً ما تحرمه الشريعة ويؤدي ما توجبه عليه وتحله .

حرم الاسلام الخمر فتمزقت الزقاق في اقل من طرفة عين وسالت بها شوارع المدينة وحرّم الزنا فازدادت حصانة المحسنات قوة على قوتها وتحصن المحسنون باليمان والخلق الكريم ، وحرم القتل فاطمأنت النفوس وحرم السرقة فكفت الايدي عن اموال الناس ، ومنع الربا فرَبَتْ الاموال دونه ومشت قواقل التجارة في رحلة الشتاء والصيف غدوأ ورواحا في المجتمع . ووضع الاسلام الزكاة فامتلا بيت المال وكفف الفقر اذياله حتى لقد كان الفقير يُعطى من المال ما يرفعه الى مصاف الاغنياء ، لقد قضى الاسلام على الرق بان جعل عتق الرقبة فضيلة من فضائل المؤمن ثوابها الجنة والعتق من النار . قضى على التمييز العنصري فلا يعرف اسود ولا ابيض ولا عربياً او اعجمياً ، ولا فضل لأحد على أحد الا بالتفوى وكان بلال الحبشي أول من وقف على سطح المسجد في مشرق الدعوة يؤذن : « الله اكبر ». نعم !! الله اكبر من كل ابيض او اسود ومن كل جبار عنيد ومختال فخور الله اكبر من كل شيء . ما أروعها كلمة ! يعرف البشر بها نفسه كلما بغي وتجبر أو تکاثر وافتخر !!

أوحت السماء كيفية قسمة الارث وعيّنت الفروض

فرضي المؤمنون بهذا القسم وحددت الشريعة المحرمات في الزواج وبناء الأسرة لحفظ اصالة النسب وصلة الرحم بحدود لا مثيل لها في انظمة الأمم وأقرت الشريعة قسمة الغنائم مما أفاء الله على رسوله وجعلتها للرسول ولذى القربي واليتامى والمساكين كى لا يكون الفى دولة بين الاغنياء وشرع الاسلام العقود والوفاء بالعهود وفسح المجال لمواهب الفرد أن تظهر للوجود وبرزت القيادات المكتملة في جميع مجالات الحياة في الادارة وال الحرب في التشريع والتفقه في الدين والتجارة والزراعة . وفي هذا الطراز من التهذيب والتلاؤن ابدعت شخصية المسلم فكان الصحابي مثال الرجل الكامل ، نور القرآن يمثى بين يديه وسيرة الرسول ماثلة أمم عينيه وهي سيرة فيها معانى المثل العليا فالمؤمن لا يكذب والمؤمن لا يغصب بل يحل اموره بالعلم والعقل والعزم والارادة والمؤمن يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة والمؤمن اخو المؤمن وناهيك بهذه الاخوة من تضحيه وايثار ومعونة .

وعندما اراد الاسلام ايقاظ ضمير الانسان وتربيته وضعه بين عقاب الجحيم ان أخطأ وثواب النعيم ان تاب أو اصاب وأكَدَ عليه في التزام التوحيد ليكون له العروة الوثقى من الزلل ووجه نظره الى الكون الى ما وراء الطبيعة « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ » .

ادركت الفطرة العربية الصافية في مشرق الدعوة

هدف التوحيد وتقبلته دون تردد ذلك لأن الايمان
بأله فيما وراء الغيب لا تدرك كنهه العقول ولا يقاس
بمقاييس البشر أتم واصدق واقبل للعقل من الايمان
بمعبد منحوت من الحجر ناقص تستطيع رياح الطبيعة
وامطارها ان تأكله وتضع فيه الأخاديد فلا ينطوي
ولا يسمع ولا يعقل . وبذلك ارتفع المؤمن من حماة
الشرك والتمرغ على قدم صنم منحوت من اللخاف
والصوان او الرخام الى عبادة الديان الى عبادة رب
لا يقصد في الحوائج غيره ولا يصمد الى احد سواه ،
انه رب منزه عن الحوادث ، قوة جباره هائلة لا يحيط بها
وصف ولا تفاس بمقاييس البشر وجدير بالرب
الواحد القهار أن يعبد ولا معبد سواه .

وهكذا حرر الاسلام الفكر من عبودية الأرض
وكسر فيها قيود الذلة وسما بالنفوس الى عالم ما
وراء الطبيعة الى التفكير في الكون الواسع الى المخلوقات
العظيمة التي لم يكن الانسان فيها الا ذرة من ذراتها
بل اصغر من ذلك وأنها كلها ترجع الى خالق يجعل
عن الوصف . وفي هذا التفكير السامي كفاية لسمو
النفس وترفعها .

وبهذا السمو تطمح نفس المسلم الى الاستزادة
من الكمال وكلما طمحت النفس الى الاستزادة تقدمت
 الى الافضل فالافضل ويمثل هذه الروح اخذ المجتمع
 الاسلامي يتطور وينمو ويعرف من معين شريعة
 لا تنضب لأنها تستند الى العدل . بهذا السمو أتم
 محمد (ص) مكارم اخلاق هذه الامة وأخذ ينشيء

الرجال في مدرسته السماوية . وفي اقل من ربع قرن ولدت الفضيلة ونمّت وترعرعت ونبتت في ظلالها الوارفة عبقرية الاسلام .

كلما رجعت الى السيرة النبوية أو مررت بحوادث التاريخ في شرق الدعوة ترايت لي تلك النفوس الكبيرة التي هذبها الاسلام لانشاء المجتمع الفاضل وتبينت لي وضاحه تلكم المبادىء السامية التي ابدعها وطبقها الفكر الاسلامي واندفعت بها الجموع العربية تنادى بالاخوة والتي لا تزال تتلاًلاً في امجادنا وتشهد بها اخلاقنا .

وفي غمرة هذه النشوة بالاعتزاز بمبادئ الدين الاسلامي الذي نشأْتُ عليه لبيت نداء السماء في الوحي المنزل : « وَأَذْنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجَّ يَأْتُوكَ رَجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ قِيَّامًا مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسِ الْفَقِيرِ » .

ونويت الحج وتوكلت على الله لاؤدي فريضة من اجل الفرائض واكرمها ولارى مهبط الوحي لاري البيت الذي جعله الله مثابة للناس ولاشهد جبل النور وغار حراء ولارى بعينى مهبط الوحي لاري دار الأرق حيث كان المسلمين قلة يستخفون من الناس ويغافون أن يتخطفهم الجاهلون ثم علا صوت الحق وصدع المؤمنون بما كانوا به يؤمرون ، لاري المكان

الأول الذى ارتفعت فيه جملة « الله اكبر » هذه الجملة العربية المبينة التى هزت العالم وايقظت البشرية وهدب النفوس وعلمت الانسان مكانته فى الوجود ذلك الانسان المغدور الذى يدعى تارة أنه صنديد وأخرى أنه جبار عنيد فادا به يصغر ويصغر حتى لا يرى نفسه شيئاً اذا فكر في معنى جملة « الله اكبر » .

أجل ! الله اكبر من كل كبير لأن كل كبير في هذا الوجود الامكاني صائر الى تراب في حما مسنون .

رَأَتْ هذه الجملة في آذان المؤمنين وعقلتها قلوبهم فادا بهم في أعلى علية من المثل السامية واذا بهم يعلمون البشرية كيف يجب أن يكون الانسان .

نويت الحج لأرى هذه المشاهد بعينى ولاقف بنفسي على تلك المناسك لأرى الصفا والمروة ولأتذكر كيف خرت الأصنام المذلة وتكسرت أمام جملة « الله اكبر » لقد شهدت ووقفت وتدكرت . وقفت في بدر وجَنَاحَ بي الخيال وتراءات لي تلك القلة من الصفة المختارة من بين المؤمنين ومثل أمام ناظري صراع الحق والباطل ، صراع الشرك والتوحيد وايقنت أن الحق هو المنتصر في احواله كلها وأن الفضيلة لا يعجبها الغبار مهما تكافف حولها .

شهدت عرفة ووقفت حول جبل الرحمة وسمعت نداء المسلمين يلبون يستجيبون نداء الرب ويعترفون أن الله اكبر من كل كبير وتدكرت رسول الله (ص) يتلو آية الوحي المنزل « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَاتَّمَّتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ

لكلمَ الاسْلَامَ دِينًا» .

وافضت حيث افاض الناس من عرفات وذكرت الله عند المشعر الحرام ذكرت الله في مزدلفة وجمعت الحصى استعداداً لرجم الشيطان وطرد الخنَّاس الوسواس الذي يوسموس في صدور الناس ويفغويهم وعلمت أنه درس لل المسلمين ليتفرغوا من الخطايا والذنوب ويجددوا نشاطهم في نشر الفضيلة شهدت منابع التشريع في الاسلام وشعرت بروح الاسلام السامية تملأ جوانحي وتنير فؤادي .

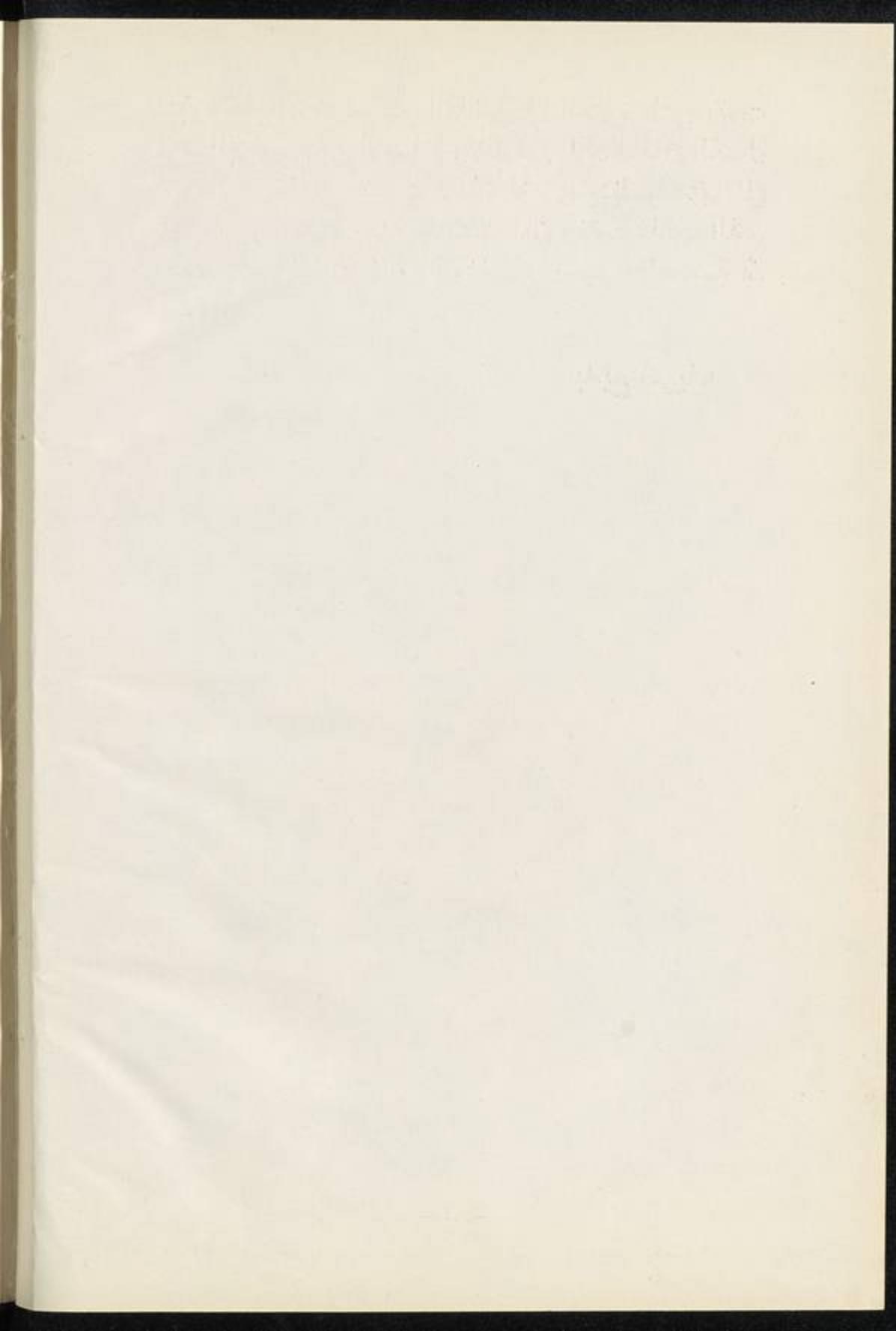
وتَلَقَّتْ لأرى قوة الاسلام وعظمته فلم أرها الا في هذه الجحافل المزدحمة والخيام المضروبة وتمنيت أن يتحقق في الحج هدف من اهدافه السامية ومقصد من مقاصده العلياء تمنيت ان لا يصل الى الحج الا من استطاع اليه سبيلاً فاما قوة وفيه استطاعة ولكنه ليس الكل في الكل ففي الصحة استطاعة وفي الشباب استطاعة وفي العلم ثروة تعدل المال وتزيد عليه فتمنيت أن يكون جلة الحجاج من شباب المسلمين الاشداء الاقوياء وعلمائهم الفضلاء ليُنقلب الحج بعد اداء المناسك الى مؤتمر عام تعرض فيه امور المسلمين ومشاكلهم وتظهر فيه قوة الاسلام .

ملاً هذا الشعور جوانحي فكتبت ما استطعت أن اكتب مما شعرت به في مهبط الوحي .

كتبت عن عقريّة الاسلام وتنشئة الرجال وكتبت عن عباقرة المسلمين ووصفت المناسك ووضاحتها وشرحـت مقاصدـها لقد وضـحت نظامـ الحكمـ فيـ عـهـدـ

النبوة وابنت المجتمع الفاضل في الفترة التي اتمت
الرسالة فيها دين الاسلام ولا ادعى الكمال فان الكمال
للله وحده ولكنني فتحت نافذة لغيري ينظر منها الى
منبع غير يغترف منه ما يشاء فان وفقت بذلك الذى
اردت وان اخطأت فان الله غفور رحيم والعصمة لله
وحده .

بديع شريف



من جده الى المدينة
محمد رسول الله (ص)

اندفعت بنا السيارة من جدة الى المدينة تنهب صدر الارض فوق طريق
لاحب اسود واسع لا يهدأ محركها الا اذا اراد قائدتها ان يتحاشى منعطفا
او يصعد مرتفعا او يهبط منخفضا وكانت اشجار الاوتل والuosج المتناثرة
في الباطح والابل السارحة فوق هذه الارض المعزاء تظاهر وكأنها تمرا بنا
من السحاب .

ولم نقف الا بريهه تحت ظلال سقية في حي من الاحياء المتناثرة في
هذه الصحراء على جانب لكي يتم السائق ابدال العجلة التي اصابها
العطب . ثم استمر بنا المسير حتى وصلنا الى بدر ولنا عود في الحديث عن
هذا الموقع الذي يتتصدر تاريخ العرب والاسلام . ووصلت السيارة مشارف
المدينة المنورة وكانت الشمس قد اخذت تجنيح في سيرها منحدرة الى الغروب
وتشعر خلفها على ذرى الجبال السمر والباطح العفر غاللة ذهبية كأنها

محراب النبي (بالمصلحة)

برگن المدينة المنورة



ابتسامة في فم الصحراء ٠

فلما ترأت لنا منائر المدينة المتأوحة تمشت في مفاصلني رعدة الجلال
والاحترام وارتفع بي الخيال الى يوم الهجرة وشخصت صورة محمد (ص)
أمام ناظري فقد عرفته في التاريخ : ازهر اللون واسع الجبين ، جمل
الحاجين ، اقنى الانف ، سهل الخدين ، ضليع الفم ، بادنا ، بعيد ما بين
المنكبين ، عبل الذراعين ، شلن الكفين هيبة مكتملة في خلق عظيم وشخصية
اختارتها العناية الإلهية لادة رسالة الوجود ٠

وصرت كأني اشهده واقفا بمكة بين جماعة من صحبه يحثهم على
الهجرة والملأ من قريش يأنموون به ليقتلوه او يخرجوه ، لا لشيء الا
لأنه سمه احلامهم وعاب عليهم اصنامهم واراد ان يسمو بهم الى الذرى
فانفتحت اوداجهم وورمت انوفهم ٠

لقد كانت هجرة النبي امتحانا لإيمان المسلمين وايذانا بظهور الاسلام
قوة مكتملة في الوجود وكانت نتيجة لصراع بين حق يريد ان يعلو وباطل
لابد من ان يهبط . لقد عقد المشركون العزم على اخراج محمد أو الفتاك
به واشتد الجدل بينهم واشتبكت الآراء حتى قال لهم ابو جهل :
والله ان لي فيه رأيا ما اراكم وفتنم عليه ٠^١
قالوا : وما هو يا آبا الحكم ؟

قال : ارى ان نأخذ من كل قبيلة فتي شبابا جليدا شجاعا نعم نعطي كل
فتى سيفا صارما بتارا ، فيعمدوا الى محمد فيضربوه بها ضربة رجل واحد
فيقتلوه فنستريح منه ، واذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعها فلا
يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ففرضوا بالدية فيه . فرضي
ال القوم بهذا الرأي ، وقالوا لابي جهل : الرأى رأيك يا آبا الحكم ٠^٢

واما المسلمين فقد تسللوا لواذا الى المدينة ولم يبق منهم الا نفر
قليل واشتدت وطأة قريش على النبي فلاذن الله له بالهجرة فأسرها الى ابن
عمه علي والبسه برده الحضرمي وأمره أن ينام على فراشه ، ثم ذهب الى
ابي بكر واخبره بما اوحته اليه السماء فنهل وجه ابي بكر بالبشر وقال :
الصحبة يا رسول الله ! فقال له : الصحبة ٠

ووضع محمد مع أبي بكر خطة الهجرة وكان غار ثور في جنوب
مكة مأواهما لثلاث ليال ولا يعلم بهما أحد الا آل أبي بكر .

ترك محمد (ص) مكة مهاجرا والافق الاوسع يمتد امام بصره
والثقة الصامدة في نفسه تدفعه الى السمو بالبشرية لا يخاف ولا يجزع
ولا يتrepid وخلف وراءه قبائل قريش في حياة رابكة لا تعرف شيئاً من
أمره ولكنها ادركت ان محمدا قد أصبح في منعة وان هذا الامر لابد ان
يظهره الله . وادرك الاوس والخرج في المدينة ان المجد بدأ يلوح لهم
في الافق لأن في قدوم محمد قوة وان القوة مصدر المجد والسعادة والمسرة .

نزل محمد في قباء وهي ضاحية تبعد عن المدينة مسافة فرسخين
ومكث فيها اربعة أيام بني خلالها مسجدا لا يزال يعرف باسمها . ولما علم
أهل المدينة بقدومه خرجت كلها بشبابها وشيوخها يستقبلونه وهم لا
يعرفونه ولم يروه ولكن كانت قلوبهم العاشرة بالاعيان تعرفه وتحن اليه ،
تحن الى شيء جديد كان يتrepid في أحلامها تحن الى الاعتصام بالذرى
المالية حيث ينابع الحياة التي لا يصعد اليها الضعيف ولا تدب اليها ديدان
الحمة .

وفي ظل نخلة التقى شيخ المدينة بمحمد وكان اليوم يوم جمعة
صلاحتها محمد بطن وادى رانونا ، ووضع يده بيد انصاره ويد المهاجرين
من اصحابه وتسابق صناديد المدينة يدعونه كل منهم يريد ان يكون محمد
ضيفه وان ينزل في داره ولكنه ركب ناقه وارخي لها خطامها ثم قال :
انما انزل حيث ينزلني الله .

واحشد القوم حول الناقة ينادون بصوت واحد : الله اكبر جاء
محمد ، الله اكبر جاء رسول الله .
ما اروعها جملة ترتعد لها فرائض الملحد ! وتخشع لها جوارح
المؤمن !

وسارت الناقة بمحمد ما شاء الله ان تسير حتى حطت وبركت فنزل
محمد عنها وسأل من هذا المربي ؟ فتقدم اليه معاذ بن عفرا و قال له :

يا رسول الله انه لسهيل وسهيل ابني عمر وهم يتيمان في حضانتي وسأرضيهم
عنه فاتخذه مسجداً فاشترى رسول الله المربد من معاذ حاضن الغلامين
وأمر ان يبني له في هذا المكان مسجده وان تبني داره
ونزل في دار خالد بن زيد الانصارى حتى فرغ من بناء المسجد
والدار فانتقل اليهما *

هكذا مرت بي هذه الحوادث كما يمر الشريط السينمائى تلاحق
صورها وتلتئف من حولها حتى ارتد الي بصرى حين اوقف الشرطى
السيارة وقال : هنا قفوا فان الازدحام لا يسمح بمرور أية سيارة فترجلنا
وتركتنا امتعتنا الى حيث ننزل *

كان المنزل بجوار المسجد النبوى وكانت الشوارع تموج بالخشود
لا تسمع الا نداء ولا تبين كلاماً من بين الرطانات المشتبكة واللهمجات المتعددة
التي لا انثر فيها من فصاحة قريش ولا مكانة بينها لبلغة الاوس والخزرج *
الله اكبر هذا هو مسجد محمد وهذه الجموع كلها تؤمن برسالة
محمد وهذه الخشود في كل عام تتوالى لتجدد العهد لمحمد *

ما ابدعها رسالتها حملت الشرق والغرب اليها وزحفت جموع الشيوخ
والشباب والفتيات والمعجائز من اطراف الدنيا ، لا يقفها بحر ولا يعوقها
جبل ولا يقف دونها سد ، ركبت متن الهواء ، وامتنعت ظهر الارض وعلت
ثيج البحر كل اوائل ذلك جاءوا ليقولوا : الله اكبر ! اشهد ان لا إله الا الله
واشهد ان محمدا رسول الله *

فلم اذا كل هذا ؟

اجل ! لقد ملأ محمد سمع الدنيا والهم فم الزمان ان البشر كلهم
لآدم وآدم من تراب ، وان الناس سواسية كأسنان المشط وان الناس احرار
في الوجود كيوم ولدتهم امهاتهم ، وان العدل قاعدة من قواعد السماء وان
الاخاء قوة ينفعني بها الغضب والحسد والحقد * فلا ابيض ولا اسود
ولا سيد ولا مسود ولا سيدة الا لشرعية السماء ولا يخضع انسان الا
له ، فكلنا عبيد الله ، لا طبقية ولا لجنة مركزية وان الدنيا مزرعة الآخرة

فاعملوا لدنياكم كأنكم تعيشون ابدا واعملوا لآخرتكم كأنكم تموتون غدا .
 وهكذا افلت الهندي من قيوده والبوزى من نسكه وابتعد المجنسي عن
 ناره والوتنى من صنمها وجاءوا ليعمروا قلوبهم بالإيمان وليعبدوا الله وحده .
 ما اروع منظر المسلمين حول مسجد الرسول وفي اروقتة ، ثياب بياض
 ووجوه الوان ، ومنازل شتى : فقير وغني ، خادم وسرى آمر وجندي .
 وال ورعاية كلهم واقفون خشعاً بأصبارهم بين يدي الله في صلاة واحدة
 صفوياً متراسة يقرءون سور القرآن وأياته ويسبحون بعظمته الله في الركوع
 وبحمده بالسجدة ويثنون عليه في القيام والقعود ويسلمون ذات اليمين وذات
 الشمال احدهم يحيى الآخر . هذه هي المساواة التي اجملها القرآن في
 جملة واحدة « انما المؤمنون اخوة » .
 انها قوة لو علم المؤمنون سرها .

رحب واسع شامخ الاروقة متطاول الاعمدة في طراز عربي جميل
 تزيين جدرانه آيات من الذكر الحكيم واحاديث من سنة النبي الكريم .

يتسابق المسلمون الى اتخاذ مكان فيه قبل ساعة او ساعتين من ميقات
 الصلاة . فإذا امتلأت رحابه واروقة وصحنه طار الحمام الآمن الذي يلتقط
 الحب الوفير من صحن المسجد الى اعلى الاعمدة والاروقة ينظر الى هذه
 الجموع الراخفة في هدوء لا مثيل له . فإذا اطمأن بك هذا الرحب الواسع
 في وسط هذا الزحام الشديد فانك لا تسمع الا تسبيحاً ودعاء وصلاة
 وتسليمًا وتلاوة آيات وكلما اقتربت من حجرة النبي اشتد الزحام ورأيت
 أكفاً مرفوعة وجهاها موضوعة وسمعت تشبيجاً وبكاءً وبصرت أكفاً
 تتلمس الجدران وحلقات تستمع الى ادعية المطوف وتردد ما يقول .
 ضعف وقوة يبدوان للناظر اينما تلفت في وسط هذه الجموع
 المشتبكة .

يجد الضعف في هذا الكائن المذنب الذي جاء تائباً معتزاً بيرجو غفران
 ربِّه ليخلص من عذاب ضميره فيما اقترفت يدها أو جنته نفسه ويدعو الله
 في جوار احب الناس اليه .

ويجد القوة في شخصية معتزة قطعت الفيافي وركبت من السماء
لترى مواطن العظمة والجلال ، لترى مهبط الوحي ونزول الآيات ومكان
تبلغ الرسالة ومصدر التشريع ، لترى منبر محمد الشامخ ينذر ويشر
ويقرأ رسالة السماء من فم جبريل الى الناس كافة ٠

ويرى مدرسة محمد (ص) فيتخيله يهذب ويعلم ويصنع الرجال
الذين رمى بهم صفة الدهر ولطم وجه الشر ونشر بهم على العالم ثمرات
الخير والامن والسلام ٠

أجل هذا هو المكان الذي اختاره محمد (ص) ليث دعوته وتبلغ
رسالته فإذا ارتد إليك وعيك من الخيال السابع إلى الحقيقة الواقعه وجدت
نفسك بين القوة والضعف ضعف المذنب التائب وقوة المؤمن العابد الشاكر
لله أنعمه على ما هداه إلى هذا الدين الواضح في قرآن عربي مبين وسنة
رسول أمين ٠

اقيمت الصلاة بعد ما تاءب الفجر ورفع الصبح لثامنه فنهضت الجموع
من أماكنها تستجيب إلى الكلمة « الله أكبر » ٠ وإذا دوت هذه الكلمة في
أرجاء هذا المسجد المهيء رقت القلوب بالإيمان وخشعوا الأصوات فلا
تسمع إلا همسا فيه حمد وثناء وتسبيح واستغفار ٠

وقرأ الإمام في صوته الرقيق الحنون وترتيله السامي في هذا الصباح
الأول من وصولي إلى مدينة الرسول « سورة الطارق » حتى إذا وصل إلى
قوله تعالى : « والسماء ذات الرجع والارض ذات الصدع انه لقول فصل
وما هو بالهزل » ٠ تمشت في مفاصلني رعدة الجلال وشعرت كأنني لم اسمع
بهذه الآية إلا في هذه اللحظة رغم تلاوتي للقرآن الكريم دون انقطاع من
سن الطفولة إلى يومنا هذا وايقنت أن قوة الاسلام تكمن في قوة العزم
والارادة وإن مخددا (ص) ربى رجاله على هذه القوة ٠ فقد اقسم بالسماء
بافلاكها وابراجها وشموسها واقمارها واجواز فضائلها التي تسبيح فيها نجومها
 وبالارض التي تشقق وتصدع فتثبت الزرع وتحيي الفرع ويعيش عليها
الكائن الحي من اصغر نامة إلى اكبر نسمة ٠

أجل أقسم محمد أن هذا القرآن قول في جد لا يعرف الهازل وان
الاسلام لابد ان يثبت ويتصر . كأنه يقول اقسم بعزمك الكائنات اني حامل
رسالة السماء لا انطق عن الهوى اني اريد ان اخلق امة تنشر السلام
والاخاء على الارض فلا انتي ولو وضعوا الشمس في يميني والقمر في
يساري وملكوني كنوز الارض والسماء . وانه لقسم لو تعلمون عظيم .

وعندى ان هذه الآية البلية الصادقة تمكنت من نفوس مشركي
قريش بل من العرب اجمع فرددت صوابهم اليهم واكدت لهم ان الامر جد
« وانه لابد مما ليس منه بد » فاستجابوا لها . ولا يجيز البلوغ الا البلفاء
والبيان مفخرة العرب وموضع تكاثرهم وتفاخرهم ومعجزة القرآن في
فصاحته وبيانه .

فإذا قضيت الصلاة انتشر المسلمون في ارجاء المدينة هذه البلدة
الطيبة . هواؤها عليل وماؤها عذب نمير ، تأثيرها الثمرات من كل مكان
وتهد إليها الوفود من ارجاء العالم يبعدون الله في جوار نبيه ويشترون
وبيعون . شوارع رحبة نظيفة منسقة ونظام للمرور مريح وحرية واسعة ،
طعمها رخيص . لا احتكار ولا استغلال رغم الزحام وتباعي العادات
والأخلاق بين الوافدين . فلقد وحد الاسلام فيهم روح التواضع والتسامح
وزاد في ذلك الطاعة لاولي الامر وارشاد رجال الامن والشرطة وحرصهم
وسرورهم .

وتشتهر في ضواحيها حدائق فيها تخيل باسقة واشجار من العنبر
والرمان في خضراء زاهية تسقيها عيون ثرة وفي ضاحية المدينة بحيرة صغيرة
كوتها مياه الامطار المتقدرة من الجبال كانت قبلا تسيل بالوديان والباطح
وتذهب هباء وقد تنبهت لها الحكومة فجعلت لها سدا ذا ابواب تفتح وتغلق
شأن كل باب في السدود فلما تটمعت ان تقف هذه المياه في هذا النبع الواسع
فتكونت بحيرة جميلة عذبة يضخ منها الماء الى مرتفع عال ويصفى فذا به
عذب سائع شرابه يسر الشاربين .
ومثلكما تنتشر في ضواحيها البساتين تكثر المساجد قديمها وحديثها ومن

اقدم هذه المساجد مسجد قباء أول مسجد أسس على التقوى بعد الامن
والاطمئنان بعد الخوف والهجرة أسس في ضاحية قباء فسمي باسمها واتخذ
مكانه في التاريخ الاسلامي لسابقته الاولى في انتشار العقيدة المحمدية ولانه
اول محطة حطت به راحلة النبي من مكة .

صليت فيه ركعتين شكرًا لله تعالى على ما انعم به علي في لحظة من
لحظات الحياة ان اقف في هذا المكان الخالد في سجل التاريخ اذذكر مواقف
النبي وما وضع رکوعه وسجوده واتخيل حركاته وسكناته . انه مسجد
صغير ذو رواق ممتد قصير ومحراب لا تجد فيه زخرفة ولا نقشًا ولا
النواء واضح كوضوح الشريعة الاسلامية الغراء لا تختلف عنه المساجد
السبعين الاخري في المدينة .

رأيت الناس يدخلون فيه أفواجاً ويخرجون أفواجاً رأيت نسياً وشباناً
والوانا من النساء والرجال كأنهم يستوحون الذكريات مثلما استوحوها أو
انهم يجدون في هذه الزيارة متعة الایمان انهم يريدون أن يروا أول مكان
دخل فيه الاسلام قوياً آمناً مطمئناً عزيزاً ليأخذوا العبرة في المصير والثابرة
عند اشتداد المحن وليستطعوا أن يحلو عقد الشدائيد بالغزم والارادة . ان
عبر التاريخ كثيرة ودروسه هي التي تجدد الحياة وتغير معالمها والقدوات
في التاريخ عند الامم من اجل اليابس التي تخلق الاجيال وتصنع الرجال
وفي القدوة بقوة ارادة محمد (ص) وتضحيته اندفاع قوى للشباب العربي
المسلم الذي يريد أن يجدد شاطئ الحياة العربية الاسلامية ويصونها من
الانهيار .

ان في سيرة محمد (ص) والقرآن الكريم عصمة قوية تعصم العقيدة
المحمدية من الفناء وانتي واثق أنها لن تفنى وستغلب على منافذ الضعف
فسدها لأنها لا ترضي بالذلة والهوان ولأنها تسمو بالتفوس عن التمرغ
على أقدام الأصنام والأوثان وغيرها من صنع يد الإنسان الى المثل الاعلى
حيث الكمال الانساني في صلته بخالق الاكوان .

وفي المدينة قصور عالية طبقات بعضها فوق بعض وفيها فنادق جميلة

يجد الزائر فيها برد الراحة ويتسابق الناس في التطاول بالبيان وتنشر
 في أرجائها عمارات لا تزال تتضرر تمام البناء لقيم بها حجاج العام المقبل .
 وتحترقها شوارع واسعة مبلطة اوجدتتها جهود المسؤولين وفي اسواقها المترعة
 بالبضائع والحلبي يزدحم البائعون والمشترون والمتزهرون الذين يمشون
 وينظرون وكثير من البايعة اصحاب الحوانيت لا يتسمون الى فريش ولا
 يعرفون الاوس والخزرج وانما هم من وراء البحار والجبال من الهند من
 جاوا وفارس وتركستان او من العرب الذين سافر اجدادهم الفوارس البلغاء
 المتفقهون في الدين لنشر العقيدة زمن الفتح الى الشام والبلاد الاخرى ثم
 عاد هؤلاء احفاد الاحفاد تجارا يبيعون ويشترون ويفهمون في لهجات فيها
 رطانة بعيدة عن الفصاحة ومن اهل البلاد الذين أفسدت لغتهم اختلاطات
 العجمة كما حدث في سائر البلاد العربية فلم تعد لهم صلة بتلك الاندية
 الحافلة بفصحاء فريش وبلغاء الاصصار ولم يعد المرء يسمع قوله بلينا مثل
 قول خارجة عندما قدم النبي الى المدينة « عندنا يارسول الله في العدد والعدة
 والمنعة » ولا يسمع قوله سعد بن معاذ سيد الاوس في نخوته بين يدي
 رسول الله عندما عزم على مقابلة فريش في موقعة بدر بهذه البلاغة الواضحة
 والبيان المشرق والارادة الصادقة والتأييد المطلق .

« قد آمنا بك وصدقك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق واعطيناك
 على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة . ولعلك يا رسول الله
 تخشى ان تكون الاصصار ترى عليها الا ينصروك الا في ديارهم وهأنذا
 اقول عنهم واجيب فاضعن حيث شئت وصل حبل من شئت وعد من شئت
 وخذ من الاموال ما شئت وما اخذت منا كان احب اليانا مما تركت ، فامض
 يا رسول الله لما اردت فتحن معك والذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا
 البحر فحضرته لحضرناه معك ما تختلف منا رجل واحد وما نكره ان تلقى
 بنا عدونا وانا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يرييك منا ما تقر
 به عينك » . أجل انك لا تسمع هذه البلاغة لأن العرب تركوا تراثهم
 ومالت بهم الحياة عن العلم منذ ان تركوا سنن الرسول وما ثار قادة العرب

الفاتحين وفقائهم المُشرعين وفي الأفق أمل مشرق أن تعود للمدينة نهضتها
بجماعتها التي يتطلّل بيتها في الأفق ولعلها تشرق باليان العربي وتسمو
بفقه القرآن وتعود كما كانت مصدر التشريع والهداية والرجولة .

وفي ليلة مباركة صافية الاديم طيبة الهواء وفي ساعة متاخرة من الليل
حين فرغ المسجد من المصليين العابدين وحين أولى فريق من الحجاج الى
منواهم وانتشر فريق آخر حول المسجد يتوددون امتعتهم على بسط خفيفة
ومن حولهم الباعة المتجلولون قد لموا بضاعتهم وطوروها عليها اغطيتها فمنهم
من توسلها ومنهم من تركها ليد الامن وفي هذه الساعة المتأخرة اذن لي
ولرهط من المؤمنين اخوتي ان ندخل المسجد ونقف في رحاب العبرية
والجلال وقد استقبلنا فيه رجل ذو شيبة وهبة ومن حوله رجال اشداء
هم البقية الباقيه من عمومه بلال الجشي أول رجل ارتفع صوته بأجل الكلمة
عند المسلمين كلمة « الله اكبر » وبأعظم نداء هو نداء الاذان لاقامة الصلاة
واجتمع كلمة المسلمين وتوحد صفهم . هؤلاء الرجال الاشداء الذين هم
على الاكثر من عشرة بلال أو من احفاد احفاده اعتادوا ان يحرسوا ضريح
النبي ويخدموه والذين هم في مكانتهم مثل رائع في حضارة العرب والاسلام
وصوت صارخ في وجه حضارة الغرب التي تؤمن بالتمييز العنصري بل
صوت مدو يعلن ان الاسلام لا يعرف ابيض ولا اسود وان الذي يحرسه
هؤلاء ائمن ذخيرة في وجود العرب والمسلمين وان حراسهم ما هي الا
الوفاء والاعتراف بهذا الفضل الكبير لهذا العبرى العظيم الذى ساواهم مع
اخوانهم المؤمنين ووضعهم في محل الارفع . فلما وقفت في جانب الضريح
بانت لنا ثلاث فتحات دائيرية الشكل . فقال الرجل : ها هو ذا ضريح
المصطفى ، وها هو ذا ضريح صاحبه أبي بكر الصديق وها هو ذا ضريح
صاحب عمر بن الخطاب . اجل هذه هي مدرسة العبرية تجتمع في هذا
المحل الجليل وها هو ذا صانع الرجال محمد وها همadian ابو بكر وعمر
تلميذان تخرجا في مدرسته وتكونيه وهما هؤلاء الثلاثة يوحون للواقف
امامهم بالهيبة والجلال ويملاون سمعه وبصره وفؤاده بالحقيقة الواضحة

تلك هي : ان الوحدة في العقيدة الصافية والايمان الصادق والتضحيه والفناء في الله وانكار الذات لانقاذ العالم من الشر والفساد وايجاد مجتمع فاضل ، كل اولئك هى القواعد التي رسمت عليها بناء الاسلام الشامخ ومجد هذه الامة وما اروع الفضيلة انها تسبغ على المرأة الهيبة والجلال . لقد ملاً هذا الموقف جوانحى فنلت الآية الكريمة : « تلك الدار الآخرة يجعلها للذين لا يريدون علواً في الارض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » .

وايقنت ان روح محمد ترف حول جسده الكريم الثاوى في هذا المكان الجليل وترشف على العالم لازال تهذب وتعلم وتتحلى بالقوه والعزم والحفظ على شخصية المسلم والاسلام ما اروع تعاليم محمد واجلها ، لقد حرص ان تكون للمسلم شخصية مستقلة وان لا يكون تبعاً لغيره لأن التبع لا يأتي بشيء فنلا على امته الآية الكريمة المنزلة « ولا تأمنوا الا من تبع دينكم » وتلا قوله تعالى : « الذين يتخذون الكافرين من دون المؤمنين ايتفعون عندهم العزة فان العزة لله جميعاً » وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوكم اولياء تلقون اليهم بالمرارة وقد كفروا بما جاءكم من الحق » وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين اولياء من دون المؤمنين » انه لا يريد بذلك الا عصمة شخصية الاسلام وشخصية المسلم من القناه في غيرها .

ولا يريد بذلك الا التحذير والانذار لامته خوف ان تتكلب عليها الامم تكالبها على قصعة الثريد ، وقد حدث ما وقع عندما ضفت شخصية المسلم فانفلت المستعمرون الى المسلمين من ثور الضف يستغلون بلادهم ويستمرون خيراتهم . لقد اراد محمد أن يقول لامته انتي احاف عليكم ان تضعف شخصيتكم فتتحدى اليكم آراء وآفدة ليست من دينكم ولا من تقاليد العرب ومبادئه في نواجهها الشر وفي انيابها العطبر تسرب اليكم خرافات الامم من قبلكم ووثنيتهم فتبعدون الاصنام من بعدي . ولا شخصية لم يترن على اقدام الاصنام ولا شخصية لم تستولى عليه الخرافات ومن يفقد شخصيته فهو عبد ذليل . والذليل لا يدع . ولقد جئتكم مبدعاً منشأ

وعلمتكم سبل الابداع *

ما اجلك حين اوصيت القوم « لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم
وجوه بعض » كأنك تشير اليانا بان لا تفرق احزابا سيئة يضرب بعضها
بعضها فينفذ العدو اليانا من ثغور الضعف *

ان روحك السامية لا تزال تهز الشباب العربي المسلم في كل لفظة
من اقوالك الصادقة وفي كل سورة من آيات كتاب الله المنزل عليك وتوحي
اليهم أن عليهم واجب اداء الرسالة حق ادائها وان عليهم ان يجددوا شباب
العالم ويعثروا فيه السعادة وان في دين محمد ينبوعا غزيرا لا ينضب في
تكوين الامم وتطويرها انك ثاو بين صاحبين من الصحابة الاجلاء الذين
عمرروا الدنيا بمبادئك وخلقك العظيم وعلموا الناس كيف تكون الصحبة
وكيف يكون التهذيب وكيف تكون التضحية * ما اجلك واعظمك حين
اشتد عليك المرض فزع المسلمين وخافوا عليك واضطربوا فخرجت اليهم
وجلست على منبرك هذا الذي اراه امام عيني فخطبتم وقلت :

أيها المسلمون :

بلغني انكم تخافون من موت نيكم *
ان كل الائياء السابقين ماتوا وانا مثلهم *
اووصيكم بالمهاجرين الاولين خيرا *
واوصي المهاجرين فيما بينهم
واوصيكم بالانصار خيرا *
احسنوا الى من احسن من الانصار وسامحو من اساء *
ما اروع الوفاء وما اجل الحلم *

وفاء فيه ذكرى جهاد المهاجرين الاولين معك وصحابتهم لك وفيه
اعتراف بفضل الانصار وكفى بهذه الكلمة ثمنا عظيما * انهم الانصار الذين
نصروك على الحق ووقفوا دونك يردون عنك العوادي وساروا معك الى
حيث تشاء واعطوك من اموالهم ما تشاء ما اروع خطبتك هذه *

فيها اخاء بين المهاجرين فيها نواب المحسن والغفو العام الشامل عن
المسىء *

تلك هي كلماتك لا تزال ترن في اذن الدهر تعلم الناس مكارم
الاخلاق ومعنى النبوة والمثل الاعلى الكامل . وحين ألح عليك المرض فلم
 تستطع أن تقف على المنبر وصلت في صلاة الصبح عن يمين أبي بكر
 وهو يصلى بالمؤمنين فلما انتهت الصلاة قلت للناس ايها المسلمين :

اني والله لم احل الا ما احل القرآن
ولم احرم الا ما حرم القرآن
ايها المسلمون :

من ضرب ظهره فهذا ظهري فليضربني
ومن شتمته فليشتمني
ومن اخذت له مالا فهذا مالي فليأخذ منه .
قام رجل من المسلمين وقال : يارسول الله : لي ثلاثة دراهم عندك .
فاعطيته ما طلب .

لقد وجهت الناس في كلامك هذا الى منبع شريعتك الى القرآن الذي
وضع حدا بين الحلال والحرام وفي هذا التحديد عنوان الحضارة والعدالة ،
ومتي ما تمت معرفة الحلال من الحرام ومتي ما حافظت الدول على
احترام هذا الحد نعمت اممهم بالسعادة والرفاه وساد فيها الاستقرار
والامن . غمضت عين محمد يوم الاثنين في الثاني عشر من ربيع الاول
من السنة الحادية عشرة من الهجرة وفي اليوم الثامن من حزيران من
السنة الثانية والثلاثين بعد سنتة من ميلاد المسيح على اصح الاقوال
وتلية على وجهه الكريم آية : « انك ميت وانهم ميتون » .

دخل المسلمون لهذا النبأ العظيم وعجبوا أن تكون هذه القوة الالهية
تحتفى من الوجود .

أجل لقد احتفى جسد محمد (ص) وخلدت روحه في الرفيق الاعلى
ولا تزال شرق والقرآن الكريم ينطق بما ت يريد ويقي المسلمين على

ذهب لهم لا يصدقون ولا يدركون ما يقولون حتى دخل على النبي صاحبه في الغار وصاحبته في المجرة وضجعه في الضريح بعزم ثابت وارادة صامدة معززة بروح من عند الله فكشف عن وجهه الغطاء وقبله وقال : « افديك يارسول الله بابي وامي طبت حيا وطبت ميتا » ٠

وأقبل على الناس وصعد المنبر فقال :

أيها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت ٠

وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم؟ ومن ينقلب على عقيبه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين ٠

فلما سمعها المسلمين ادركوا ان الامر جد وعرفوا الحقيقة ونبت في نفوسهم ان الله متم نوره وان الاسلام سيخلد وان الفناء طبيعة الكائن ٠

هكذا مرت بي حوادث التاريخ في هذه الوقفة المباركة ثم التفت الى الدائرة الاخري حيث الضجيج الاول ٠

الضَّجِيعُ الْأَوَّلُ

والتفت الى الصجيع الناوى في جوار كتف محمد (ص) الى : ابى بكر
فتمثل لي بوجهه الايض المعروق وجبهه الطالعة وعينيه الفائزتين وانفه
الاقنى وقامته الطويلة النحيلة واجتمعت هذه الصفات بمخيلتي فاذا بها هى
التي اسبغت على روحه صحة العزم وقوه الارادة وهدوء الطبع ولين العريكة
وشفقة الاباء فكان الوزير الاول والرائد الثاني ٠

لقد اسلم ابو بكر وهو في نضج الرجلة عارفا باحوال قريش ضليعا
بأنسابها محباها بين بطونها وقبائلها لطيف المجلس عذب الحديث سهل
طبع امينا يثق به قومه ٠

والثقة اذا توفرت في المرء كانت عنوان اكباره واجلاله فالتف حوله
قاده الرأى والعزم من شباب قريش فاسلم على يده عثمان بن عفان والزبير
بن العوام وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عياد الله
فكانت جماعة مباركة قويت بهم شوكة الاسلام دلف هذا الرهط القومى

إلى محمد بن عبد الله والتلقوا حوله فصلى بهم وقال : (ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ما عُنِّكَ عَنْهُ حِينَ ذَكَرْتَهُ لَهُ وَمَا رَدَدْ فِيهِ) . وتلکم هي صفات الشجاع والشجاعة من المثل العليا ، ومن يصطحب المثل العليا يجد النجاح يمشي في ركبها وهكذا مشى النجاح في ركب أبي بكر فهو الوزير الصديق وهو الأخ العتيق وهو الصاحب الرقيق القلب الذي دمعت عيناه حين جاء إليه النبي فقال له : (أمرني ربِّي بالهجرة) فقال الصحبة ، الصحبة يا رسول الله فقال له النبي : الصحبة . فتهلل وجهه بالبشر ودمعت عيناه دموع الفرح فكان (نانِي اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا) .

ما أمضى قوة الارادة اذا التقت بمنتها فاجتمعنا على الحق انها تركب الهول وتعصى وساوس شياطين الانس والجن ولا تنظر الا الى العدو كيف ترهبه والى الصعب كيف تلينه والى طريق الحق كيف تركه .

كانت دعوة الإسلام في خطر ولابد من اتقائه ولا يمكن اتقاؤه الا بالهجرة لتكون في منعة من ايدي الاعداء . وهكذا ركب محمد (ص) طريق الحق مع صاحبه وسارا يقطعان على راحتهم السهول والوديان والتلل في الليل والنهار على طريق أمعز لا يشبه هذا الطريق الواسع اللاهب المنبسط ولا تستطيع الايل في ذلك الوقت أن تغدو السير مثلاً تنهب السيارة صدر الأرض وتطوى السهول والوديان وتمر من السحاب .

استقر المقام بهما في هذا المكان الذي يشوان فيه ولزم كل منهما صاحبه ، كان أبو بكر صاحب محمد وكان محمد رسول السماء ومنشئ أمة ومعلم جيل وكانت دروس محمد تبني شخصية أبي بكر فيزداد سموا في اعين القوم وترتفع مكانته في مجلس النبي صعدا حتى سمي وزير محمد وهو أول لقب اعطي في صدر الإسلام وفي دروس محمد اجتمعت لأبي بكر قوة الارادة ومضاء العزم ولبن العريكة وصلابة العقيدة والتواضع والدماثة .

وهي صفات تؤهل الذات لقيادة أمة الى فجر مشرق جديد ومجد
طريف ٠

كانت القيادة لـ محمد (ص) وكان محمد يتغلى الوحي وما كان
للسخابة غير المشورة والدراسة والطاعة عندما ينضج الرأي وتقول السماء
كلمة الفصل ٠

فـ لما أعمض النبي (ص) جفنيه واضطرب المسلمين بـ رزت مواهب
أبي بكر وـ نظر الى وجه حبيبه في مكة وـ صديقه في الفار وـ رفيقه في الهجرة
واستاذه في العقيدة والتشريع والدفاع عن الدعوة فقال : (يا بني أنت وأمي
طلت حيا وطبـت ميتا) ٠ وـ خرج على القوم يدعـوهم الى الصبر ويـحـthem على
الثبات وـ يـتـلو عليهم آيات الكتاب : (وما مـحمد الا رسول قد خـلت من
قبلـه الرسـل أـفـان مـات او قـتل انـقلـبـم عـلـى أـعـقـابـكـ وـ من يـنـقـلـبـ عـلـى عـقـيـه
فـلن يـضـرـ الله شـيـئـا وـ سـيـجـزـي الله الشـاكـرـين) ٠

ويـقول :

(أيـها النـاسـ منـ كـانـ يـعـدـ مـحـمـداـ فـانـ مـحـمـداـ قدـ مـاتـ وـ منـ كـانـ
يـعـدـ اللهـ فـانـ اللهـ حـيـ لاـ يـمـوتـ) ٠

فـ كانت هذه الخطبة أول ثمرة من ثمرات مدرسة محمد فيها صلابة
العقيدة وفيها الإيمان بالسماء وفيها الاعتراف بأن الكائن الحي والجماد
لا تلازمـهما في الوجود صـفة البقاء وـان الباقي الوحـيد هو إله السماء الذي
لا يـعـدـ أحدـ سـوـاهـ وـ فيـ هـذـهـ الـخـطـبـةـ قـوـةـ الشـخـصـيـةـ التـيـ صـبـهاـ مـحـمـدـ فيـ
أـصـحـابـهـ وـ رـمـيـ بـهـمـ وـ جـهـ الـدـهـرـ وـ وهـنـاـ تـفـتـحـتـ عـيـونـ الـقـوـمـ عـلـىـ الـحـقـيـقـةـ
الـواـضـحةـ وـ مـشـىـ اـبـوـ بـكـرـ وـ زـمـامـ الـأـمـرـ بـيـدـهـ ثـمـ وـ قـفـ وـ وـلـفـتـ إـلـىـ النـاسـ
وـ قـالـ : (اـنـ أـقـوـاـكـمـ الـضـعـيفـ عـنـدـيـ حـتـىـ آـخـذـ لـهـ بـحـقـهـ وـ انـ اـضـعـفـكـمـ عـنـدـيـ
الـقـوـىـ حـتـىـ آـخـذـ الـحـقـ مـنـهـ وـ اـنـ اـحـسـنـ فـاعـيـنـوـيـ وـ اـنـ اـنـزـعـ فـقـومـونـيـ
لـاـ يـدـعـ أـحـدـ مـنـكـمـ الـجـهـادـ فـانـهـ لـاـ يـدـعـ قـوـمـ اـلـاـ ضـرـبـهـمـ اللهـ بـالـذـلـ) ٠

كـأنـ أـبـاـ بـكـرـ كـانـ يـرـيدـ أـنـ يـقـولـ لـلـنـاسـ : لـقـدـ أـصـبـحـنـاـ عـرـضـةـ لـاـمـتحـانـ
الـزـمـنـ فـيـمـاـ أـفـدـنـاـ مـنـ رـسـالـةـ مـحـمـدـ فـلـتـبـتـ لـلـتـارـيخـ اـنـاـ نـرـيدـ اـنـ نـقـطـلـ مـسـافـاتـهـ

بقوة أرادتنا وصدق ايماناً وان هذه الامة التي أنشأها محمد وسجل عليها أنها خير أمة أخرجت للناس لن ندعها تسقط في الامتحان واننا سندفعها الى مراحل الابداع *

ان ارادة الرجلة التي اوجدها محمد فيما تأبى أن ترکن الى الذلة بعد العزة وان الفضائل التي ملأ بها جوانحنا فحققت بما الى الاعالي لا ترضى أن تسف الى الارض انتا لا ندع هذه الفضائل تتصل في اليدياء انها روح هذه الامة وعقلها فإذا تخلينا عنها عدنا الى الجهالة الجهلاء والضلاله العمياء * ان العرب شرعت تعيد جاهليتها جذعة والله لن أدعها تفعل ذلك (والله لاقتلن من فرق بين الصلاة والزكاة والله لو منعوني عقلاً يؤدونها الى رسول الله لقاتلتهم على معنها) *

فاستيقظوا فان مستقبل العرب والاسلام أصبح بأيديكم اجعلوه تهب عليه النسمات ولا تدعوه عرضة للمواصف لقد اختارتكم العناية الإلهية لاداء رسالة الوجود ومنكم سيكون الشعب الذي يحيط قيود العبودية وينشر المساواة بين الناس * انكم تحبطونني بالاجلال والكرامة فان احسنت فاعينوني وان أنا زغت فقوموني * بهذا السمو سار الضجيج الاول سيرة الوالي الحكيم والقائد اليقظ الواائق بنفسه فأنفذ جيش اسمه الى الشام وهو يقول : (والله لو أني علمت أن السابع تأكلني في هذه المدينة لافندت جيش اسامه ولن انقض أمرأ هياه الرسول ولن يصيينا الا ما كتب الله لنا) * ثم اوصى هذا الجيش بالوصية الخالدة (لا تخونوا ولا تغلو ولا تغدوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعمروا نخلا ولا تقطعوا شجرة مشمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لماكلاه) *

ما أروع هذه المثل العليا في حروب الامم وما أرفع شأن الاسلام في التعمير وما ابعده عن التدمير * انه مثل من أمثلة السماء صبه الله في قلوب هؤلاء الرجال النابتين في الصحراء الساكنين بواد غير ذي زرع ليلقوا على الناس دروس الفضيلة في كرامة الانسان وقيمة الاشياء *

حفظ أبو بكر الاسلام من الردة فرکز قاعدة المجد * واعاد الزمام

إلى يده وأنفذ جيش اسامة فعاد متصرفاً في غزوة قضاة وظهرت قوة
الاسلام °

وبعث خالد بن الوليد إلى العراق فانضم إلى المتنى فكان النصر حليفهما
في الواقع كلها ووجه جيوشاً أربعة إلى الشام فاجتمعت في اليرموك ووحد
قيادتها وتبعتها خالد بعد الاستجاد به ومجيئه من العراق ووقعت موقعة
اليرموك فانتصرت جيوش العرب على الروم وفي انتصار اليرموك جاء نعي
أبي بكر فاهتز العالم العربي لوفاته وسمع أبوه الشيخ الكبير أبو قحافة
فقال (رزء جليل) °

نعم أنه رزء جليل لصحبة جليلة وقدر رفع أن تكون الصحبة حيا
وميتاً ونوى الضجيع الأول بجانب صاحب الرسالة العظيم °

الضَّجْعُ الثَّانِي

والضجيج الثاني ثالث اثنين في هذه الروضة المقللة بالتجدد والسوداد
يرقد عند حقوق الضجيج الاول من بخيالي شخصه العظيم فتمثل لي بقامته
الفارعة ورأسه الاصلع ووجهه الشرق بالحمرة وانفه الانفي ولحيته الكثة
تمثل لي في رجلولته وقوه باسه وشدة عزمه في رحمته وعطشه وبره بقومه
ومر بخاطري ما حدثنا به التاريخ عند مشرق الدعوه الاسلامية كيف كان
عمر قاسيا شديدا البأس يجد في دعوه الاسلام خروجا على تقاليد قريش
وعاداتها وجحودا ل الدين آبائها وعبادة آلهتها وكيف توسيع سيفه يريد أن
يخلص العرب من هذا الذي فرق قريشا وسب آلهتها هذا الجبار المعارض
الذى كان لا يخشى أحدا من صناديق قريش ثم تمثل لي مطرقا الرأس
خاشع البصر حين سمع صوت القرآن في بيت أخيه يجلجل بالتوحيد ويدعو
الجبار الذليلة المتعفرة على أقدام الاصنام أن ترتفع بالعزوة الى صفحة السماء
لتعبد إلها واحدا لا إلها غيره ٠

ان العقول الجباره تقدح فيها الفكره الصائبه عند اصطراع الرأي
 اسرع مما تنقدح الشرارة في الزناد الوارى وفي هذا الانقداح تفصح عندها
 الحقيقة وتلمع الفضيلة ، وهكذا كان شأن عمر بان له نور الاسلام يسطع
 في أرجاء مكة لينير العالم وتبينت له وحدة العرب التي كان يخاف عليها
 قوة هائلة تحرس هذه الدعوة التي سينبعث عنها عالم جديد في هذا الوجود .
 فدلل ورعدة الرهبة تسري في جوانحه يريد محمدا واصحاب محمد حتى
 اذا وصل الى دار الارقم المجتمع الخفي الذي كان يجلس فيه المؤمنون
 بينهم حمزة وأبو بكر وعلي وبلال . فلما قرع عمر الباب جاء صوت
 بلال يسأل ، فأجابه : أنا ابن الخطاب فرجع الى رسول الله يقول . (ان)
 ابن الخطاب بالباب وانا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى أن فتحنا له)
 فقال رسول الله ادخله فان اراد خيرا بذلك له . وقال حمزة وان أراد شرا
 لقي ما هو أشر منه وذهب بلال يفتح الباب لعمر . فلما وقف عمر امام
 رسول الله قال له : فيم جئت يا ابن الخطاب ؟ قال جئت أشهد بين يديك :
 ان لا اله الا الله وانك رسول الله . فما كاد عمر يعلن اسلامه حتى اهتزت
 جواب الدار بصيحة واحدة : الله اكبر . الله اكبر الله اكبر .

مشهد رائع اضطررت فيه قوتان قوة الارض وقوة السماء قوة الارض
 متمثلة في لامة من العقاد اوجدها عقل الانسان لم تبعد عن صنم منحوت
 من صخر واسطورة مفعمة . وقوية السماء يدعو لها وحي مبين منزل وقول
 فصل لا يجاد امة كريمة تحمل معاني المرودة الكاملة والشخصية المتميزة
 في الوجود لتبدع وتشنى . وكانت هذه الشخصية تملاً قلوب المؤمنين قوة
 وتزيدهم اعتزازا على قلة وهي صفات ثلاث شخصية عمر وتوافق طبيعته
 وتكوينه فأسرع اليها بنفسه دون أن يأخذ بيده احد فلما دخل اليمان في
 قلبه وجد مهاده وعزه .

التفت عمر الى رسول الله فقال : يا رسول الله السنّا على الحق ان
 متنا او حيننا ؟ قال محمد : بلى ، والذى نفسي بيده انكم على الحق ان
 متمن وان حيتكم . قال ففيما الاختفاء يا رسول الله ؟ فقال لاتنا لا نزال قلة

واعداًونا كثيرون ° قال عمر : والله لا يعبد الله سرا بعد اليوم ° والذى
بعثك بالحق ما بقي مجلس كت أجلس فيه بالكفر الا اظهرت فيه الاسلام °
فكان هذا اليوم بدء شروق الاسلام وبده الاعلان جهرا وفي هذا اليوم
شرع عمر يدعو الى دين محمد بمثل القوة التي كان يعارض بها الاسلام
وينهى عنه وفي هذا اليوم خلع محمد على عمر لقب الفاروق اذ فرق الله
به بين الحق والباطل °

عجب أمر هذا الوادي الذى لا ينت الزرع كيف ابنت هؤلاء
العاقة وكيف كان يصنع الرجال ويصوغ النقوس السامية التي تتجلى
لها عظمة مبدع الكون لقد ابنت محمد ان بين رجاله وبين الله عروة لا
انفصام لها لقد نشأهم على العزة والطاعة ° أطاعوا الله فعزوا ووهبوا امتهن
حكم العالم والخلود وهبوا التشريع والادب الرفيع وهبوا الحياة بكل
معانيها او لئكم هم صانعوا مجد الاسلام ومهذبو تراث العرب هؤلاء هم المثل
العليا وهم السر الخفى الذى يهمس في اذان فتیان العرب أن الجزيرة
العربية ولود تلد العاقدة تلد القادة ففتثروا عن قادتكم بين احيائكم ومجامعكم
فانكم واجدوهم واياكم وتقليد من لا يتم الى العروبة والاسلام بشئ °
مشى ابن الخطاب في صحبة رسول الله قوى الجانب صادق الرأى ليس له
من الامر شيء الا مشورة تطلب منه عند احتدام النقاش وهو طوال حياة
محمد يستمع القول ويتفهم الدرس ويترسم افعال الرسول ويحفظ اقواله °

آمن فخاف الله وتحول جبروته في الجاهلية الى قوة مبدعة في الاسلام
 فهو قوى على الباطل حتى يدمغه وهو قوى في الحق حتى يستخرجه وهو
القائد الذى لا ينام حتى يرى النصر بيته وهو الراعى الذى لا يجلس
حتى يطمئن على راحة رعيته ° وكان أبرز ما في خصائصه الحزم وكانت
شدة تنمو كلما اشتد ابناء هذه الصحراء قوة وبأسا كان يريد ان ينشئ
أمة تستقر لتبعد وتشرع وكان يقول : (انما مثل العرب مثل جمل انب
اتبع قائدك فلينظر قائدك حيث يقوده فاما أنا فورب الكعبه لاحملنهم على
الطريق) ° وهذا متنه الثقة بالنفس ومتنه الحزم في تكوين الام °

لقد اجتمع لعمر الدين والرحمة مع الشدة والقسوة وكان العدل ميزاناً بين الدين والشدة وبين الرحمة والقسوة وكانت ارادة عمر المبدعة هي التي تضع الامور في نصابها ٠ وهي موهبة لا تكمن الا في صدور العباءة ٠

بهذه المثل العليا حمل عمر أمة العرب على الطريق فسار النصر في مواكبها طوال حكمه ومثني المجد في ركبها طوال حياته ٠ ولماذا ؟ ألم يكن عمر بشرًا كأمثاله من بني البشر ؟ بلـى ! انه لذلك بيد انه تخرج في مدرسة محمد صانعة الرجال وكان أبرز ما في هذه الصنعة هو التغلب على الذات ، لقد تغلب عمر على ذاته وغلبها على أمرها فانطلقت من القيود وعرفت سر وجود امة العربية في شعار (اطلب الموت توهب لك الحياة) وهو شعار فيه انكار الذات والتضحية في الوقت وفي المسرات والملذات والاتجاه الى الابداع في اندماج وصبر من أجل الاسانية ٠

ولولا ذلك ما قال عمر في خطبة له : (انى قد وليت عليكم ولو لا رجاء أن أكون خير لكم واقواكم عليكم وأشدكم استضلاعا بما ينوب من مهم أموركم ما توليت ذلك منكم) كان عمر واثقاً من نفسه في السيادة لأن ارادة القوة كامنة بين جوانحه وانكار الذات يحتل سوياده قلبه وفي ارادة القوة وانكار الذات يبرز السوّدد ٠

ساد عمر الدولة وحمل العرب على الطريق واختار العمال ليسوسوا البلاد ويكرموا العباد وكان كثير التوفيق في اختياره وابداً عامل لا يمشي على طريق عمر لا يجد له مكاناً في الدولة كان يبعثهم الى الاقطار ويشيعهم ويقول لهم :- انى لم استعملكم على امة محمد -ص- على اشعارهم ولا على اشعارهم انما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة وتقضوا بينهم بالحق وتقسموا بينهم بالعدل ٠ وكان يقول : (اربع من اصل الاسلام لست مضيعهن ولا تاركهن لشيء ابداً : القوة في مال الله وجمعه حتى اذا جمعناه وضعناد حيث امر الله وقعدنا آل عمر ليس في ايدينا ولا عندنا منه شيء ٠ والهاربون الذين تحت خلال السيف ألا يحسوا ولا يبحروا وان يوفر في الله عليهم وعلى عيالاتهم واكون انا للعيال حتى يقدموا ، والانصار

الذين اعطوا الله عز وجل نصيبا وقاتلوا الناس كافة ان يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وان يشاوروا في الامر ° والاعراب الذين هم اصل العرب ومادة الاسلام ان يؤخذ من صدقتهم على وجهها ولا يؤخذ منهم دينار ولا درهم وان يرد على فرائتهم ومساكينهم °

يرى عمر ان العرب مادة الاسلام ويرى فيهم القوة التي تحفظ العقيدة من الاندثار ويجد في عزهم عز الاسلام ° وهو ابو عيال المهاجرين الذين يمشون تحت ظلال السيف ينشرون عقيدة الاسلام ويحررون الناس من العبودية ويخرجونهم من الوثنية الى العزة والایمان لا يمنعهم ولا يؤخرهم يشرف على اطفالهم وعيالاتهم ويجزل لهم العطاء فلا يجعل لهم هما غير ما يهتمون به في نشر عقيدة السماء ° فرض عمر للناس العطاء من بيت المال وكتب الدواوين فبدأ بقراءة رسول الله ثم الاقرب فلاقرب ووضع آل الخطاب حيث وضعهم الله وهو يقول :- ان العرب شرف بمحمد والله لئن جاءت الاعاجم بالاعمال وجثنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيمة فلا ينظر رجل الى قرابة وليعمل لما عند الله فان من قصر به عمله لم يسرع به نسبة وكان يحمل الديوان بيده فاذا نزل خزانة دعا اسرها اسرة اسرة فلا يغيب عنه امرأة بكر ولا نيب فيعطيهن في ايديهن وينزل عسفان فيفعل مثل ذلك ويقول :- والله ما من احد الا له في هذا المال حق اعطيه او منعه وما احد احق به من احد الا عبد مملوك وما انا فيه الا كأحدهم ولكننا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله ° والرجل وبالرجل في الاسلام والرجل وقدمه في الاسلام والرجل وغناوه في الاسلام والرجل وحاجته والله ليأتين الراعي بجبل صناعه حظه من هذا المال وهو مكانه °

وقال :- لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين °

وكان يقول لئن عشت ان شاء الله لاسيرن في الرعية حولا فاني اعلم ان حوايج تقطع دوني اما عمالهم فلا يرعنها الي واما هم فلا يصلون الي فأسير الى الشام فاقيم بها شهرین ثم اسير الى الجزيرة فاقيم بها شهرین ثم

اسير الى مصر فاقيم بها شهرين ثم اسير الى البحرين فاقيم بها شهرين ثم اسير الى الكوفة فاقيم بها شهرين فالبصرة والكوفة والبحرين والجزرية ومصر والشام موطن العربة ومادة الاسلام وكان يطوف بالأسواق يقرأ القرآن ويقضى بين الناس حيث ادركه الخصوم .

سئل عمر احد صحابة رسول الله : (املك انا ام خليفة ؟) فقال له ان انت جئت من ارض المسلمين درهما او اقل او اكثر ثم وضعته في غير حقه فانت ملك غير خليفة فاستعبر .

ما اروع هذا السؤال ؟ ان عمر يريد ان يقف على رأى الناس فيه هل استطاع ان يؤدي امانة التخرج في مدرسة محمد وهل سار على سيرته وخلفه في امته في حق الخلافة ؟

اجل ! لقد ادى الامانة ولكنه توافع في سمو ، واعتزاز في رقة ورفاقة .

حكم عمر فتدفق ابداعه تدفق الجداول في الارض لينبت الزرع ويدر الفرع واتشر عدله يظلل الناس كمثل الفمامنة في يوم الرياح .

واتجه الى العراق فعبأ له جيشا لجبا وولى قيادته سعد ابن ابي وقاص وقال له قد وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتي فانت تقدم على امر شديد كريه لا يخلص منه الا الحق فمود نفسك ومن معك الخير واستفتح به واعلم ان لكل عادة عتادا فعتاد الخير الصبر فالصبر الصبر على ما اصابك او انابك .

وسار هذا القائد المحنك والنصر يسير في ركباه ويظلل عساكره ظل الله في الخشية والرعبه والايمان حتى اذا فتح الله عليه وقف وصلى ركتعين فوق منبسط المدائن وتلا قوله تعالى : « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمه كانوا فيها فاكهين واورثتها قوما آخرين » .

فلما انبسط امامهم هذا السواد الخصب في راقيده الهادرين واستحلب افواهم هذا النعيم المقيم دلفوا الى عمر يريدون تقسيم الارض بينهم لانهم

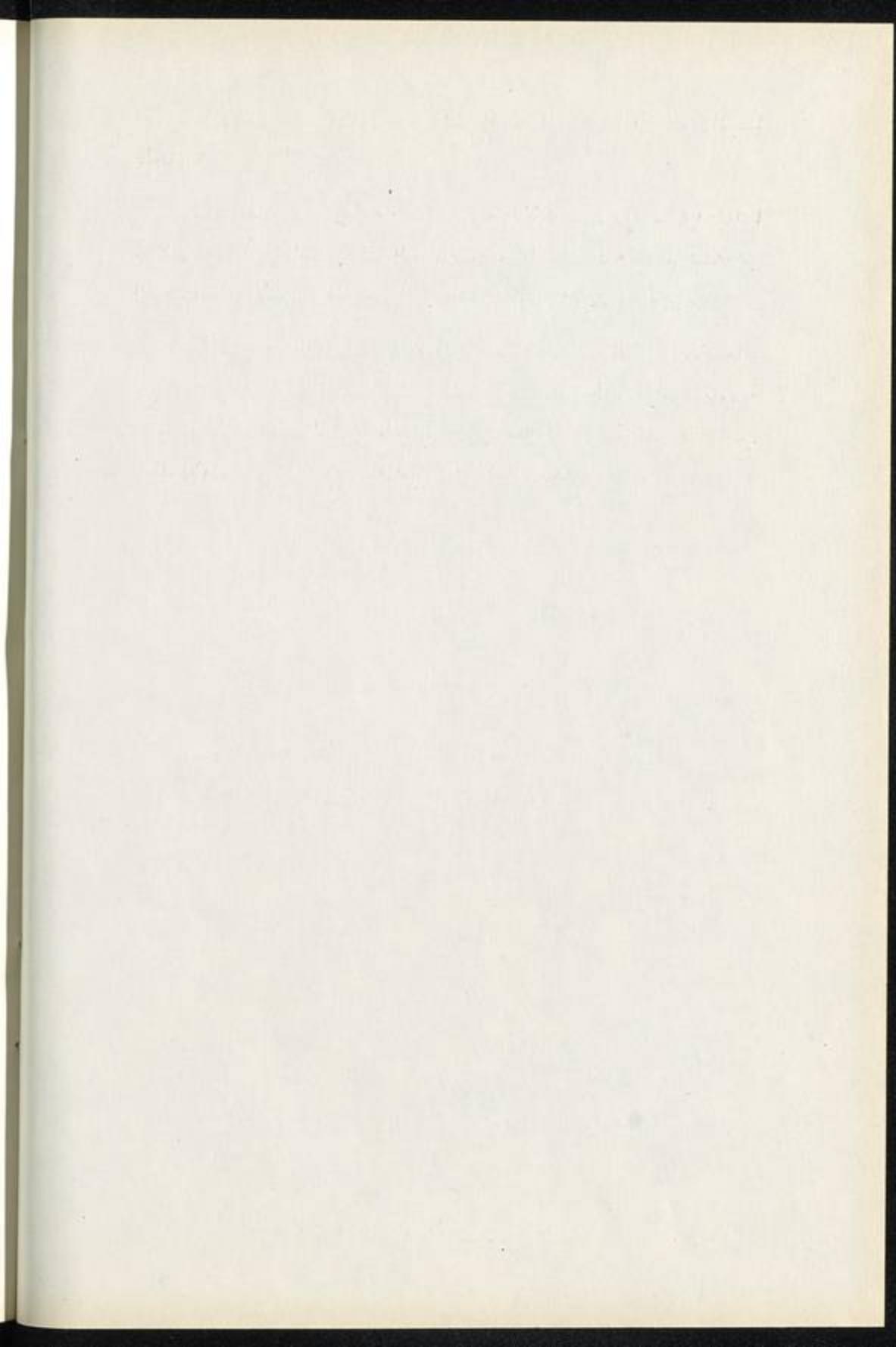
الفاتحون الغالبون فهاله الامر لاول وهلة ودعا اصحاب رسول الله للشوري
فانقسم الجمع فريقين فريق مع عمر وفيهم علي ابن ابي طالب يأبى توزيع
الارض ويريد أن تبقى بيد اهلها فهم الخيريون وهم المتدربون العارفون
كيف يذر البذر وتسقى الارض وينمو الزرع اما الفاتحون فهم أخسر
بشئون الحرب على ظهور الخيول وتحت ظلال السيف ينشرون العقيدة
ويحمون التغور فتقلب هذا الرأي وبقيت الارض بيد اهلها وأمر عمر
فمسحت ارض العراق فكانت اثنين وتلائين ألف ألف جريب ووضع على
كل جريب درهما وعلى كل نخلة خمسة دراهم وعلى كل كرمة خمسة
عشر درهما فاماًلاً بيت المال بهذه الثروة الهائلة والخارج العادل ٠

ما تخرج عمر في احضان الجامعات ولا بحث في نظريات الاقتصاد
ولا علم فقه الرومان انما تخرج في مدرسة محمد (ص) فحكم فعدل وعبأ
الجيوش وفتح القتوح واخبط المدن : اختط البصرة والكوفة وجبلة وتوج
والفسطاط وغيرها ووضع التاريخ وكتب ديوان الأسرة وديوان الجيش
وجبي الاموال ووزع الثروة توزيعا عادلا ورفع شأن الأسرة ٠ ما استدل
احدا ولا صادر مالا ولا أمم مشروع ، جعل الفرد يعمل والاسرة تعمل
واعز كرامة الاثنين وجعل بيت المال للمسلمين دون أن يحدث طبقة مفتعلة
ودون أن يحكم طبقة في رقب طبقة اخرى ٠ وضع نظام الخراج كما
تعلمه من القرآن وقضى بين الخصوم بشريعة الله ورفع اسم القضاء وجعله
مستقلأ وقال في رسالته الى ابي موسى الاشعري ٠ « ان القضاء فريضة
محكمة وسنة متبعة فافهم اذا ادلى اليك فانه لا ينفع تكلم » بحق لا نفاذ له
آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في
حيفك ولا يتأس ضعيف من عدلك ٠ البينة على من ادعى واليمين على
من انكر والصلح جائز بين المسلمين الا صلحًا أحل حراما أو حرم حلالا ٠
لا يمنعك قضاة قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك ان
ترجع الى الحق فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل ٠
الفهم الفهم فيما تجلجج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ثم اعرف

الاشياء والامثال فقس الامور عند ذلك واعمد الى اقربها الى الله وابشها
بالحق .

حكم فعدل : سـم حكمه ما شئت سـمه عدلا فحسب ، او سـمه اجتماعيا
او اشتراكية في اصطلاحـك الحديث سـمه ما شئت فـانه حكم فيه عز
العرب ومجد الاسلام ومثل من أمثلة العبرية التي ولدت في الجزيرة .

مـلأ عمر فـم الزمان عـزا ومجـدا وملـأ صـحائف التـاريخ بالـابـداع
والتـكـوين وـكـاد تـاريـخ العـرب يـمشـى عـلـى طـرـيق سـوي لـولا مـؤـامـرة يـهـودـية
مـجـوسـية اـطـفـاتـهـذهـالـعـبـرـيـةـالـجـبـارـةـ وـنـوـيـعـمـرـ فـيـ روـضـةـ يـقـيمـ بـهاـ صـاحـبـ
المـجـدـاـوـلـ نـوـيـاـلـىـ جـانـبـ الصـدـيقـ وـفـيـ رـحـابـ مـحـمـدـ .



الْبَقِيع

وعلى بعض مئات من الامتار من مسجد الرسول يقع البقىع هذا الموضع
الذى يضم رفات جماعات ملأة أعمالهم صحائف التاريخ وشغلو العالم فلما
وافيناه الفينا عليه بابا مقفلًا يزدحم الناس حوله فلما اذن لنا الحارس دخلنا
وخلفنا وراءنا النساء اذ لم يسمح لهن ، فلما توسطته رأيت منسيطا فسيحا تدور
حول بعض قياعاته حواجز من الاسمنت يمشى عليها الزائرون كيلا يدوسوا
القبور الدوارس فوقنا ووقفت جموع كبيرة في اماكن متعددة . وكل جمع
دليل او مطوف كما يقولون يدل الناس على من تحت الارض ويقرأ كلاما
محفوظا مكرروا والناس يرددون معه ادعية فيها السلام وفيها الرجاء وفيها
المغفرة يتخلل بعضها نشيج وبكاء .

ولم أشأ أن اتابع هذا الدليل في قراءته لكثره لحنه ووقفت مع اصحابي
صامتا وتركت لعيوني أن تلتفت بيمنة ويسرة وتركت لخيالي ان يجتاز وينطلق
ليستذكر حوادث الايام وصحائف التاريخ ويستعرض اسماء هذه الشخصوص

التاوية في هذه القبور الدوارس في هذه الروضات من رياض الجنة وشرعنها
 تنتقل من روضة الى روضة ، فهذه روضة تضم فريقا من آل بيت النبوة
 وتلك روضة تضم رفات شهداء احد وهذه تضم بعضا من شهداء بدر الذين
 جرحوا في المعركة ووافاهم الاجل في المدينة وهذه روضة تضم رفات عثمان
 ابن عفان الرجل المربع الاسمر الحسن الوجه ذى الانف الانفي واللحية
 الكثة والشعر الوحش تضم صاحب الرسول وثالث الخلفاء الذي دخل الاسلام
 قبل ان يدخل محمد (ص) دار الارقم والذي هاجر من مكة الى الحبشة
 مرتين فرارا بدينه من اذى قريش وحافظا على ايمانه ان يتزعزع ثم هاجر
 بعد ذلك الى مكة وهو في العزة والثروة الهائلة في المكان الاول بين قومه
 وهو الذى صحب محمدا يتلقى دروس الرجالية والتضحية عليه ضم رفات
 هذا الرجل السخي الذى وسع مسجد الرسول ولم يجد فيه شبرا ينام
 عليه وجهز جيش العسرة بالابل والخيل والمال واشتري بئر رومة ليشرب
 منها المؤمنون هذا الرجل الذى خرج على الناس حين ولـى الخلافة والحزن
 يملأ جوانحه فقال لهم : « ايها الناس انكم في دار قلقة وفي بقية اعمار
 فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه فلقد أتيتم صبحتكم او مسيتم . الا ان
 الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور . »

واعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تنفلوا فانه لا يغفل عنكم . اين
 ابناء الدنيا واخوانها الذين اثاروها وعمروها وتمتعوا بها طويلا ألم تلقطهم ؟
 ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها واظلبو الآخرة فان الله قد ضرب لها
 مثلا والذى هو خير فقال عز وجل : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء
 ازلئله من السماء فالختلط به نبات الارض فأصبح هشينا تذروه الرياح
 وكان الله على كل شىء مقتدر . المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات
 الصالحات خير عند ربك نوابا وخير املا . »

واقبل الناس يبايعون هذا الشيخ الوسيم الكريم الزاهد القوى في
 الحق الشديد على الباطل ، خطب والكابة تمتلىء بها جوانحه والامانة
 المتقدة بالواجب ينوه بها كاهله فقد اتسعت رقعة الاسلام وانبسط سلطان

العرب في ارجاء العالم وفتیان قریش الذين حجزهم عمر بن الخطاب في المدينة ومنهم من الخروج فاصبحوا ينظرون الى الخليفة الجديد نظره المفرج عنهم يريدون ان يصربوا في الارض ليروا مجد الاسلام ومجد العرب وي يريدون ان يتمتعوا بنعمة الفتح وعز السلطان والاجناد في التغور يدافعون تارة ويغزون اخرى والولاة في الامصار تولوا مناصبهم بغير اختياره . فماذا يفعل هذا الشیخ الذى وقف على منبر الرسول في ساعة تجرأ فيها عبد مملوك على اغتیال خلیفة المسلمين وكانت جرأة لها ما بعدها . ففتحت ابواب الفتنة على مصاريعها واظهرت للاقوام المغلوبة على امرها انها تستطيع ان تستقم وتأخذ ثارها بيدها من اعظم رجال العرب .

نظر عثمان الى رقعة الاسلام المنسيطة وراء الافق فلم يجد بدا ان يبدأ بالولاية فيكتب لهم ان يكونوا رعاة لا جبة وان ينظروا في امور المسلمين فيعطوهم ما لهم ويأخذوا منهم ما عليهم وان يثنوا بأهل الذمة فيعطيوهم الذى لهم ويأخذوهم بالذى عليهم وان ينظروا الى العدو فيستفتحوا عليهم بالوفاء وانهم بغير ذلك لا يستطيعون ان يديروا الامصار ولا يتالفوا الرعية ولا يستقيم لهم امر . كما كتب الى الاجناد في الفروج بأنهم حماة المسلمين والمذادة عنهم وان يسيراوا على ما رسم لهم ولا يغيروا فيغير الله ما بهم .

وكتب الى عمال الخراج (خذوا الحق واعطوا الحق به) الامانة قوموا عليها ولا تكونوا اول من يسلبها لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فان الله خصم من ظلمهم) .

ووجه كلمة الى العامة : (اما بعد فانكم بلغتم ما بلغتم بالاقداء والابداع فلا تلتفتكم الدنيا عن امركم وان امر هذه الامة صائر الى الابداع بعد اجتماع ثلاث فيكم تكامل النعم وبلغ اولادكم من السيايا وقراءة الاعراب والاعاجم القرآن فان رسول الله (ص) قال الكفر في العجمة فذا استعجم عليهم امر تكلفوا وابتدعوا .

وفي هذا الكتاب تبين بعد نظر الخليفة وشدة تفهمه للمجتمع الاسلامي الجديد الذى هو صائر لا محالة الى طريق غير طريق المؤمنين الصادقين في ايمانهم وان هذا التغير سوف ينحدر الى المجتمع

جبل المقطم



وسرى هيره صدراهم المؤمنين علهمون وراب اسقمع ميرزا المرساة المؤمنة

الاسلامي من تصور ثلاثة من سعة العيش ومن نبت ناشئة جديدة هجينة من السرايا والاماء . واطظر الثلاثة عدم تفهم الناس احكام القرآن ومن لم يفهم تكفل الشرح والتفسير فابتدع واخترع وفي هذه الظاهرة ما فيها من الخطورة وهذا هو الخطر الذى استقبله عثمان فلقد ابطرت الناس النعمة وغيرتهم العجمة وتکلفوا في التفسير والتأويل وتململت اليهودية والمجوسية والوثنية ونشأت الغوغائية في امصار المسلمين وكان عبدالله بن سبا اليهودي الصناعي بن الامة السوداء رأس هذه الغوغائية شأن اخلق اليهود الحاذفين .

اظهر اسلامه زمان عثمان واتخذ من الاسلام ستارا وشرع يتنقل في بلاد المسلمين يحاول اضلالهم فبدأ بالحجاج ثم البصرة فالكونف فالشام فلم يقدر على ما يريد عند احد من اهل الشام فاخرج حتى انى مصر فاعتمر فيهم وشرع يبث سمومه وحرث الناس على عثمان وطعن في الولاة واتخذ يظاهر هو ومن اغراهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واتخذوا يكتبون الى امصار بكتب يضعونها في عيوب ولائهم ويكتبهم اخوانهم بمثل ذلك ويكتب اهل كل مصر الى آخر بما يصنعون فيقرؤه اوئل في امصارهم وهولاء في امصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة واوسعوا الارض اذاعة وهم يريدون غير ما يظهرون . فيقول اهل كل مصر انا لفي عافية مما ابتلى به هؤلاء الا اهل المدينة فانه جاءهم ذلك من جميع امصار فقلوا انا لفي عافية مما فيه الناس . وجاء اهل المدينة الى عثمان فأخبروه بما وصل اليهم فقال انتم شركائي وشهود المؤمنين فاشروا علي . قالوا نشير عليك ان تبعث رسلا الى امصار حتى يرجعوا اليك بأخبارهم فأرسل عثمان من يثق بهم الى امصار فرجعوا اليه فقالوا ما انكرنا شيئا ولا انكره علماء المسلمين ولا عوامهم الا عمار بن ياسر الذي ارسل الى مصر فأغراء عبدالله بن سبا فمال اليه هو وجماعة آخرون .

هذا الارجاف في الفتنة تقمصته اليهودية ولبسه الشعوبية فاجتمع الفرقان معا على الضلاله وتضليل الناس وتشكيكم في امور دينهم وظللت

تنقل في اصلاح الزمن الى يومنا هذا يعيشون في الضلاله ويسترون بالظلم
ويبشرون الاذاعات كى تفتت قوى الامة فيما بينها فتضعف وتبعد نواخذ
الشر ولا يزال المرجفون يعملون عندما يرون حكم العرب العادل يستقيم
ليقوضوه ويقيموا حكمًا شعوبيا حاقدا متقدما

احسن عثمان بنواخذ الشر ورأى قرون الفتنة فكتب الى اهل الامصار :
اما بعد فاني آخذ العمال بموافتي في كل موسم وقد سلطت الامة مني وليت
على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا يرفع على شيء ولا على أحد
من عمالي الا اعطيته وليس لي ولعيالي حق قبل الرعية الا متروك لهم وقد
رفع الي أهل المدينة ان أقواما يستمدون وآخرون يضربون فیامن ضرب سرا
وشتم سرا من ادعى شيئاً من ذلك فليواف المواسم فليأخذ بحقه حيث كان
مني أو من عمالي وتصدقوا فان الله يجزي المصدقين

قرىء هذا الكتاب على الناس في الامصار فأبکاهم ودعوا لعثمان وقالوا
ان الامة لم تخض بشر

حمل عثمان الناس على مصحف واحد بعد ان استعجم القوم وجاءت
الشکوى الى عثمان بأن المسلمين في التغور والامصار أخذوا يختلفون في
قراءة القرآن ويشتد بينهم الخصم فيما فيه يختلفون وصار أحدهم يفضل
قراءته على الآخر وجاء حذيفة بن اليمان الى عثمان فقال له : (ادرك امة
محمد قبل ان تفرق حول القرآن) فاقدم عثمان على توحيد المصحف
فارسله الى الامصار موحدا ثابتا كما حفظه الصحابة من رسول الله وها هو
ذا بين ايدينا هو معجزة الاسلام ورمز لتوحيد كلمتي العرب والمسلمين بل
هو القوة القاهرة الخالدة التي تربت في رحابها شخصيتنا . وفي اقدام عثمان
على هذا العمل جرأة ما بعدها جرأة فقد روى عن امير المؤمنين علي بن
ابي طالب انه قال في خلافته (لو كنت مكان عثمان لحملت الناس في امر
القرآن على ما حملهم عليهم)

ما كان عثمان جبانا ولا مبتدعا ولكنه تلميذ في مدرسة محمد لا يستطيع
ان يعمل الا في حدود الله وما كان يظن ان احدا يجرؤ عليه وهو في هذه

السن الطاغية وهو العادل الذى لا يخاف في الحق لومة لائم . غير ان المجتمع استعجم وابهم فقه الشريعة على الناس وتنفس اليهودية الصعداء حيث وجدت لها متنفسا في التغور والاقليم ولقيت مكانا خصبا تترعرع فيه بذور الفتنة .

لقد اوغلت جيوش عثمان في الشرق من نور العراف فقضت على دولة الاكسرة وفتحت جيوشه بلاد ارمينية وغزت اساطيله قبرص فاستولت عليها وتحطمت اساطيل الروم في واقعة الصواري أمام اساطيل العرب واخذت تمخر عباب البحر حتى وقفت على ابواب القدسية ومشت جنوده في افريقيا حتى تم له فتحها وشرعت تحاول العبور الى الاندلس ولكن الله لم يمد في عمره .

كان عثمان قويا فاتحا غازيا استطاع ان يفتح من المدن والامصار ما لم يتيسر ل الخليفة غيره واستطاع أن يعلم الولاية ما لم يستطع ان يقوم به غيره ولم يؤخذ على عثمان الا انه لم يكن يعلم أن الرعية التي كان يرعاها من قبله تقلب على مجتمعها الرعاع وتحكمت فيها الفوغائية وصار من السهل ان يقول القرآن والحديث وتشيع الفاحشة بين الناس .

وهكذا افتعلوا عليه في الامصار وافتعلوا عليه كتابا وجدوه مع غلامه بختمه . ظهر عثمان على رعاع الناس ففهمهم وردهم ورجعوا الى بلادهم وكادت الفتنة أن تخمد لو لا اليهودي ابن السوداء الذي دبر هذه المكيدة فعادت جذعة وتجمهر السبيون على باب الدار واشتد الزحام وقارعت السيوف ووقع من وقع صريعا وكادت الغلبة تكون لامير المؤمنين لو لا ان ت سور عليه نفر من خلف الدار فاقتلوه والقرآن الكريم بين يديه وهو اغلى درة حرص عليها وهكذا ضم البقيع هذا الرجل العظيم الذي نشر راية الاسلام في أوسع رقمة من بقاع الشرق ونشر تعاليم محمد وحفظ لنا القرآن رمز عزتنا ومجدنا . ما أبدر ان يكون عثمان مثلا من مثلنا العليا يقتدي به شبابنا .

بُدر

ملاً هذا المكان فم التاريخ وظل ينطق به اربعة عشر قرنا وسيبقى
ينطق به قرون اخرى ٠٠ كان هذا الوادي وما به من آبار وواحات منها
بشر بدر منتدى العرب في الجاهلية وموسمها من مواسمهم تجتمع لهم فيها
سوق كل عام فيقيمون عليه ثلاثة أيام ينحررون فيها الجوز ويطعمون
الطعام ويشربون الخمور وتعزف عليهم القيام وقد انطمست معالم هذه
الذكرى فيه وخفيت من الوجود مثلما تحفى متع الحياة ومرانع الشهوات
واللذات وبقيت الذكرى الخالدة ذكراء الفاصلة بين الحق والباطل تلك
التي سجلها العرب المسلمين فبقيت تضيء جوانب التاريخ وكانت امنيتي
ان ازور هذا المكان اذا وصلت ارض الحجاز منبع مجدنا في مكة والمدينة
وتوجهت من جدة الى يثرب وحسبت حسابي ان اكون في بدر وقت
الظهيرة وكان الجو لطيفا هادئا والهواء يمر بنوافذ السيارة وهي تنهب بنا
صدر الارض على طريق واسع مفروش بالاسفلت فتركت جدة في الضاحية

ووصلت بدرًا والشمس في كبد السماء ومررنا في طريقنا بقري متأثرة في هذه الصحراء المنبسطة حتى وصلنا إلى منخفض منبسط قال السائق عنه انه وادي بدر فنزلنا قرب سقيفة واسعة كبيرة فيها كراسى مصفوفة يستريح عليها الحجاج الزائرون وتربض حولها سياراتهم الضخمة وهم في ذهاب وجية يحملون اباريق الماء رجالا ونساء محجبات او سافرات الوجوه وفي بعض خطوات من هذه السقيفة رأينا ظلة فأولينا إليها ووقفنا سيارتنا في مدخلها ووجدنا فيها ظلا ضليلا وهواء لطيفا وجاءنا صاحبها وسألنا ماذا تريدون فطلبنا الإباريق لل موضوع واؤوصيتك على شيء بعد الغداء فتوضأننا وصلينا ركتين ركتين للشكير وصلينا صلات الظهر واخرجنا متعانا وتجمع حولي بعد الغداء صبية صغائر من العرب الضاربين في منعطفات الوادي فناديت أحدهم وسألته من اي القبائل انت ؟ فقال من حرب ! فلما سمع السائق كلمة (حرب) قال : (ان هذه العشيرة من اقوى العشائر لم تستطع الحكومات السابقة ان تلوى عنانها وتتأتي بها الى الطاعة وأهملت ففتكت بها الجهل فيما مضى فصارت شقية عنيفة تقطع الطرق على الحجاج ففتكت بهم وقد قللت الحكومة الحاضرة اظافرهم ووردتهم الى صوابهم وفتحت لهم المدارس فهم اليوم اطوع من البنان ونعم هذا الطريق بالامن والاطمئنان .

وسألت الطفل عن اسمه فقال اسمى محمد وكانت مخايل الذكاء بادية عليه ثم علمت انه في المدرسة ، واذا به يجيب عن استلة التاريخ وبحذا لو علم هذا الطفل تاريخ هذا الموقع العظيم في هذه السن . ثم قدمت للصبية من طعامنا فأبوا جمیعا مع انه لم يكن من فضلات المائدة . وسألت أحدهم اتعرف دليلا يدلنا على موقعة بدر این وقت ؟ فقال نعم ولكن اعطيك ريالا وانا اذلك عليك فاعطيته ما اراد وزدته وركب معنا في السيارة حتى اذا علونا ربوة رملية تنتشر حولها ربوات وتزيينها في منخفض الوادي واحدة واسعة من التخيل هي موطن الخصب وهي غرة هذا الوادي . قبل علينا شخص من بعيد فقال الصبي هذا هو الدليل قد اقبل . وفي دقائق معدودات تجمع

حولي صبية صغاري اكسبتهم هذه الارض الجافة المعاذه القاسية صحة ورشاقة
في الابدان ووسامة وجمالا عربيا في الوجه قد عودهم الحجاج على الهدايا
حتى اصبحت فيهم عادة فقلت سبحان الله ان الله ابدلهم رزقا حلالا يمتحنهم
ايات الزائرون في طيبة نفس واطمئنان خاطر بدلا مما كان يأخذنه آباؤهم
عنها وعنونه *

وقف الدليل واشرف اشرافه القائد في المعمعة او اشراف المعلم المتمكن
من درسه في صفة وشرع يصف لنا الموقعة كأنه يراها ويقول تلك هي
العدوة الدنيا وهذه هي العدوة القصوى وهذا هو الوادي وفي ذلك المرتفع
على ما يزعمون عريش النبي (ص) أما قليب بدر فلم يبق له اثر وهذه
هي البطاح التي تقارعت عليها سيف كتائب المشركين مع سبعة من شهداء
بدر الرافقين في هذا المكان * فيهم مهجع مولى عمر وعمير بن أبي وفاص
وعاقل بن البكر ورافع بن المعلى وحارثة بن سراقة وصفوان بن الحارث
وكان لها لحمة غريبة عن العربية وكان يسكن الاواخر ولا يعرب وليس
للصرف في كلامه محل *

ان مكان الواقعه واضح ومكان الالقاء متقارب فقد كان النزال
بالسيف والسهم وكنت اتمنى ان يكون في بدر فندق ضيافة كبير وفيه قاعة
تزينها لوحة توضح معالم الواقعه وترسم خطوطها ويلقي فيها محاضر عارف
بتاريخ دروسا على الزائرين يبسط فيها تاريخ صناديد العرب من المشركين
الذين اشتراكوا فيها وابطال المسلمين الذين قادوا المعركة واحرزوا النصر
على قلتهم وكثرة عدوهم ولتكون مثلا من امثلة النصر الذي يحرزه
الايام دوما فان المقيدة اذا تمكنت من التفوس دفعتها الى ركوب الاهوال
وتخطى الحواجز * والايام اذا تمكنت في القلب خزم انتف العاطفة واطلق
للعقل العنان ان يخلق ويبدع بل لتكون هذه الموقعة مثلا ونقطة انطلاق
للعرب كلما اصابتهم ناثة الام او وقعت في صفوهم مكائد الشعوب ولتعلمهم
ان القلة المتحدة تغلب الكثرة المتناثرة وان الصف العربي الصامد الذي خفق

على رأسه لواء النصر في بدر استطاع ان يقف على حدود الصين وعلى جبال البرنات وان يقدم للبشرية حضارة القرآن في اقل من نلثي قرن . هكذا كنت افكر والفتى يشرق في حديثه ويغرب وهكذا اطلقت لخيالي عنانه ان يتذكر هذا الوادي الذي كان مراح عرب الجاهلية وموطن لهم وسرورهم وتفاخرهم وتکاثرهم كيف حزبهم الامر واشتدت بهم المحن فتادبوا واستنفروا قومهم كيلا يخسروا تجارتهم وينذر موطن لهم وسرورهم ومنتهم ويأخذ العرب في ارجاء الجزيرة يتذرون في مضاربهم عن الذلة التي تقع عليهم .

بهذه العاطفة الجامحة اقدمت قريش بكتابها لتنزل على بدر لقاوم عقيدة السماء وتطفيء نور الاسلام الذي بدأ يشع ضياؤه في ارجاء الجزيرة .

وخرج المسلمون بالروية والتفكير والافق الواسع والنظر في مستقبل الاسلام وعزه ووقف النبي (ص) وقد احمرت وجنتاه وكانت هذه علامته عند اشتداد المحن فتقدما اليه المقداد وهو على تلك الحالة فقال : ابشر يا رسول الله فوالله لا تقول لك كما قالت بنو اسرائيل اذهب انت وربك فقاتلا انا هنا قاعدون ولكن الذي يعتك بالحق لنكون من بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك او يفتح الله لك ثم التفت رسول الله الى القوم وقال اشيروا علي ايها الناس . واما كان يريد الانصار وذلك لأنهم كانوا عدد الناس ولا نهم حين التقوا به بالعقبة قالوا يا رسول الله انا براء من ذمامك حتى تصل الي دارنا فاذا وصلت الينا فانت في ذمامنا نمنعك فيما نمنع منه ابناءنا ونساءنا فكان رسول الله يتخوف ان لا تكون الانصار ترى عليها نصرته الا من دهمه بالمدينة من عدوه وان ليس عليهم ان يسير بهم الى عدو من بلادهم فلما قال ذلك رسول الله (ص) قال سعد بن معاذ : « والله لكأنك تريديننا يا رسول الله . قال : اجل فقال : فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا ان ما جئت به هو الحق واعطيناك على ذلك عهودنا وموائينا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فوالذي يعتك بالحق ان استعرضت بنا هذا البحر فحضرته

لخضناه معك ما تختلف منا رجل وما نكره ان تلقى بنا عدونا غداً انا لصبر
 عند الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يرثك منا ما تقر به عينك فسر بنا على
 بركة الله فابسطت اسارير الرسول يقول سعد ثم قال سيروا على بركة الله
 واشرروا فان الله قد وعدني احدى الطائفتين • سارت سرايا المسلمين بثمانية
 رجل وتلاته عشر رجلاً المهاجرون منهم يوم بدر سبعة وسبعون رجلاً
 وصاحب راية رسول الله عليهم ففي بنى هاشم امير المؤمنين علي بن ابي
 طالب وصاحب راية الانصار سعد بن عبادة و كانوا مائتين وستة وتلاته
 رجلاً فلما وصل ركب المسلمين ادنى ماء من بدر نزل به فجاء العجب
 بن المنذر فقال يا رسول الله أرأيت هذا المنزل امنزل انزل له الله ليس لنا
 ان تقدمه ولا تتأخره ام هو الرأى وال الحرب والمكيدة؟ قال : بل هو الرأى
 فقال يا رسول الله فان هذا ليس بمنزل فنهض بالناس حتى نأى ادنى ماء
 من القوم فنزله ثم نفور ما سواه من القلب ثم بنبي عليه حوضاً فملؤه ماء
 ثم نقاتل القوم فشرب ولا يشربون فقال رسول الله لقد اشرت بالرأى •
 فنهض الرسول ونهض من معه وساروا حتى اتوا ادنى ماء من القوم فنزلوا
 عليه ثم غورت الآبار وبنوا حوضاً على القليب الذي نزلوا عليه فملئ ماء
 ثم قذفوا فيه بالآنية • وجاء سعد بن معاذ الى الرسول وقال : يا رسول الله
 بنبي لك عريشاً من جريد ف تكون فيه ونعد عندك ركائبك ثم تلقى عدونا فان
 اعزنا الله واظهرنا على عدونا كان ذلك مما احبينا وان كانت الاخرى جلست
 على ركائبك فلتحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تختلف عنك اقوام يانبي
 الله ما نحن باشد حباً لك منهم ولو ظنوا انك تلقى حرباً ما تختلفوا عنك
 منعك الله بهم ينصحونك ويجهدون معك فانتي رسول الله عليه خيراً
 ودعا له بخير وبني لرسول الله عريش فكان فيه •

وأقبلت قريش بألف رجل فيهم صنادييد العرب ومنهم عتبة بن ربيعة
 وشيبة بن ربيعة وابو جهل بن هشام وامية بن خلف والنضر بن الحارث
 وزمعة ابن الاسود وغيرهم • واقسم قادتهم الا يرجعوا حتى يردوا ماء بدر
 دا - لوا رائدهم فجال حول معسكر النبي ثم رجع فقال لهم : يا معشر

قريش : الولايا تحمل المنيا ، نواضح يشرب تحمل الموت الناقع قوم ليس لهم منعة ولا ملجاً الا سيفهم والله ما ارى يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم فاذا اصابوا منكم اعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ؟ فروا رأيكم ومشى حكيم بن حزام في الناس وكان من عقلائهم فاتى عتبة بن ربيعة فقال يا ابا الوليد انك كبير قريش الليلة وسيدها المطاع فيها هل لك الا تزال تذكر منها بخير الى آخر الدهر قال وماذاك يا حكيم ؟ قال ترجع بالناس وتحمل دم حليفك عمرو ابن الحضرمي ٠ قال قد فعلت وكادت قريش تلوى عنانها وترجع الى ديارها لو لا عناد ابى جهل فقد امتلأت رثاث القوم ربعاً وجزعاً ولكن ابوا الرجوع عناداً واستكباراً ٠

وما التقى الجماع وتراءت الفتتان وقف رسول الله وقال ايها الناس هذه مكة قد القت اليكم بفلاذ اكبادها ٠ اللهم هذه قريش قد اقبلت بخيالها وفخرها تحداك وتکذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتنی اللهم فاحنthem الغدة وقال :

« ايها الناس اما بعد فاني احثكم على ما حنكم الله عليه وانهاكم عمما نهاكم عنه فان الله عظيم شأنه يأمر بالحق ويحب الصدق ويعطي على الخير اهله على منازلهم عنده به يذكرون وبه يتغاضلون ٠ وانكم قد اصبحتم بمنزل الحق لا يقبل الله فيه من احد الا ما ابتقى به وجهه وان الصبر في مواطن اليأس مما يفرج الله به الهم وينجى به من الغم وتدركون النجاة في الآخرة ٠

فيكم نبى الله يحذركم ويأمركم فاستحيوا اليوم ان يطلع الله عز وجل على شيء من امركم يمقتنكم عليه فان الله يقول :
« لقت الله اكبر من مقتكم انفسكم » ٠

انظروا الذى امركم الله به من كتابه واراكم من آياته واعزكم به بعد ذلة فاستمسكوا به يرض به ربكم عنكم وابلوا ربكم في هذه المواطن امراً تستوجبوا الذى وعدكم به من رحمته ومحفرته ، فان وعده حق وقوله صدق وعقابه شديد وانساانا وانتم بالله الحي القيوم اليه الجنانا ظهورنا وبه

اعتصمنا وعليه توكلنا واليه المصير يغفر الله لي وللمسلمين .
ونزل الجمuan الى الميدان ورسول الله لا يزال يقول اللهم انى اسألك
عهدك ووعدك اللهم ان تهلك هذه العصابة (يريد المسلمين) لا تعبد بعد
اليوم وقال سيهزم الجمع ويولون الدبر الساعة موعدهم وال الساعة ادهى
وامر .

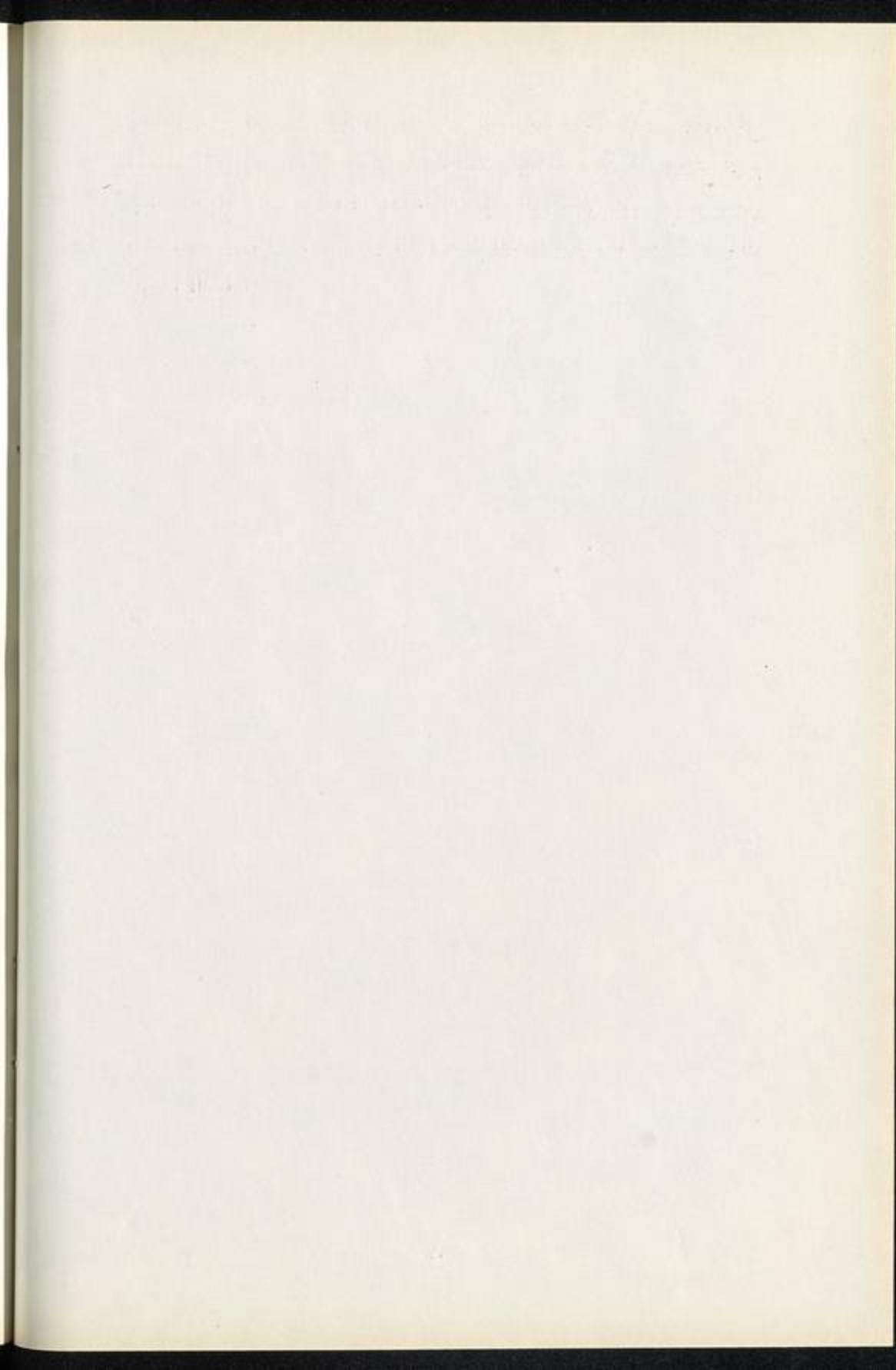
وتقارعت السيف وسقطت القتلی وانكشفت الموقعة عن هزيمة قريش
وايد الله المؤمنين بنصره فاستشهد منهم من استشهد وجراح من جرح ولحق
فريق من الجرحى بالشهداء ودفن سبعة من شهداء المسلمين في بدر .
وهكذا دخلت العقيدة في طورها الاول من الذروة في المجد وجمعت
تلك القبائل المتاثرة فوق الروابي والاكمات ولت شمل العشائر الضاربة في
السهول والوديان ونزعـت ما في القلوب من غل اخوانا على سرر مقابلين
ومحـت من وجود العرب طبقة السادة والصناديد وجعلـت موطن التفاخر
والتكافـر في الدفاع عن دين محمد وعقيدة السماء وببدأ عصر العرب يرتفـع
في سلم القوة والمجد العسكري وتمـتعت قريش بالطمأنينة والاستقرار ونزلـت
السورة :

« لا يلـاف قريـش ايـلافـهم رحلـة الشـتاء والصـيف ، فـليـعبدـوا ربـ هـذا
الـبيـت الـذـى اطـعـمـهم مـن جـوـعـ آـمـهـمـ مـن خـوـفـ » .

وحـفتـ بالـبيـتـ العـتـيقـ نـعـمةـ الـاطـمـئـنـانـ وـسـارـتـ رـكـائـبـ العـربـ تـضـربـ فيـ
الـسـهـوـلـ وـالـوـدـيـاـنـ فـيـ ظـلـالـ عـقـيـدـةـ السـمـاءـ الـىـ اـنـزـلـتـ السـكـيـنـةـ فـيـ قـلـوبـ
المـؤـمـنـينـ وـاـمـتـلـأـ الـوـادـيـ بـالـخـيـرـاتـ وـجـاهـ دـورـ الـفـكـرـ وـالـعـقـلـ دـورـ التـشـريعـ
وـالـفـقـهـ وـنـظـامـ الـحـكـمـ وـاسـتـقـرـتـ اـمـورـ الدـنـيـاـ لـهـذـهـ اـمـةـ الـفـتـيـةـ .
وـاـنـتـهـتـ مـعـرـكـةـ الـقـلـقـ وـالـخـوـفـ وـاـنـتـهـتـ مـعـرـكـةـ رـغـيفـ الـخـبـرـ وـطـفـقـتـ
الـتـجـارـةـ تـسـيرـ غـدـواـ وـرـوـاحـاـ تـحـفـ بـهـاـ اـجـنـحةـ التـقـوىـ وـالـاـيمـانـ .

انـ الـاطـمـئـنـانـ وـضـمـانـ الـعـيشـ عـنـصـرـانـ مـهـماـنـ مـنـ عـنـاصـرـ الـحـضـارـةـ
وـتـوـطـيـدـ اـرـكـانـ الـاجـتمـاعـ وـازـهـارـ التـرـوـةـ وـتـفـتـحـ آـفـاقـ الـفـكـرـ .ـ فـانـ النـفـوسـ
اـذـ آـمـنـتـ وـاـرـتـاحـتـ شـرـعـ الـعـقـلـ يـفـتـشـ عـنـ مـعـرـفـةـ الـحـقـائقـ وـاسـرـارـ الـطـبـيعـةـ

وهكذا شرع المؤمنون يفكرون في خلق السموات والارض ويرجعون الى
انفسهم ويقولون ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك وهكذا تفتحت لهم
ابواب المعرفة لانهم عرفوا ان هذا الكون لم يخلق باطلا ولا بد من استئماره
فمشوا يضربون في الارض لابراز مواهبهم الكامنة فابدعوها حضارة لا تزال
مفترضة الدنيا .



العُمَرَة

املاً فؤادي بنور النبوة في يثرب واثرق بين جوانحي ذلك الضياء
الروحي الذي يملأ جوانح المؤمنين ورضيت نفسي لأنني زرت ضريح
المصطفى قبل أن أزور موطن مولده وموطن اشراقة الدعوة ، ونمازعني
نفسي للبقاء في يثرب او السفر الى بيت الله الحرام لاداء الواجب المفروض
في القرآن الكريم « وأتموا الحج والعمرة لله » وتعلقت بهذا السبب فان
اطاعة امر الله احب الى رسول الله وتوضأت ونزلت ملابسي وتخليت عن
بدلتي ورباط العنق وحداني بل جمیع کسوتی ولبسی ثوبي الاحرام :
رداء وازارا غطیت بردايی ظهري وصدری والکفین وکسوت بالازار ما
بقى من جسمی من السرة الى الركبتین ووقفت في غرفتي مکشوف الرأس
حافی القدمین ثم اتعللت حذاء غير مخيط وتحزمت بحزام وضعت فيه نقودی
وتوشحت بحقيتي التي وضعت فيها هويتي وصغار النقود . نم القيت آخر
نظرة على القبة الخضراء قبة الرسول (ص) وعلى المنائر المتلائمة بالضياء

ونحركت بنا السيارة نريد بيت الله الحرام نريد اداء العمرة فوصلنا بشر على اوهي (ذى الحليفة) وهو مقبات اهل المدينة الذى يحرمون منه أى يعتقدون النية على اداء فريضة الحج او العمرة او كليهما معا فنزلنا وصلينا ركعتين وقلت اللهم ربى اريد العمرة فيسرها لي وتقبلها مني : لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك . وما انتهيت من هذه الكلمات حتى شعرت برعدة العجلان والرعب تتمنى في مفاصلي ووقفت اتأمل ما فاض به فؤادي ولفظه لسانى فلعلمت انى اصبحت متوجها بكلتي الى بارئي مسرعا اقول هأنذا يا رب لا املك لنفسي ضرا ولا نفعا ولا حياة ولا نشورا ! ° فانت مالك الملك مالك يوم الدين وان عبادك مهما تجروا وتعظموا وتفاخروا وتکافروا ضعاف ترديهم البعوضة وقتلهم الجرنومة التي لا تراها اعينهم ° ثم صلينا صلاة الفجر وليلنا وركنا سيارتنا حتى وصلنا بدوا عندما ذر قرن الشمس وسال ضياها الذهبي على ذرى الجبال والبطاح وكان النسيم لطيفا فيه برد الصحراء الذي خلفه الليل واربع اعشابها واثوابها المتاثرة الذي تهفو اليه افئدة المؤمنين °

ووقف ركبنا يستمع مرة ثانية الى الدليل يشرح مراحل الموقعة ويصف عظمية الاسلام وذل الشرك وتجمع حولنا صبية صغاري ففحناتهم مما قسم الله لنا ولهم وانطلقت بنا السيارة تنهادى فوق رمال روابي بدر ثم نزلت الى الوادى فاطلقت العنان فوق طريق منبسط واسع مفروش بالاسفلت ما دامته مناسم الابل قبلة ولا سارت به الركبان ايام غزوة بدر ° وكانت السيارة في انطلاقها تهزاً بالابل التي تراها بين الفينة والفينية ولو نظرت الابل لقالت انى حملت امة على ظهوري ففتحت وحكمت وابدعت الشرائع والمرمان ° واستمر بنا السير ما توفرنا حتى وصلنا جدة فاسترحنا واستبردنا ثم استأنفنا السير تارة اخرى الى مكة ارض بيت الله ومرابع قريش وأول مكان رأى فيه محمد (ص) ضياء الوجود فلما تراءت لنا منائرها وآطامها كبرت وهلت وليلت ، ولما اطمأن بنا المكان توجهنا الى الكعبة الى اول بيت وضع للناس واتخذنا مطوفا يطوف بنا ووقفت بريئه اتأمل هذه الجموع

الراخرة في رداء وازار مكشوف الرءوس فقلت سبحانك ربنا : اننا سواسية
 فوق اطاق الشرى وفي بيتك في الوجود كذلك سنكون سواسية تحت اطباق
 الشرى في المحدود انك تعرض علينا كل يوم عبرة الحياة فلا تعتبر . انتي
 اقسى بين يديك ولا اعرف من هو عن يميني وعن شمالي ومن هو خلفي
 وامامي . اهو امير نرى او حاكم قوى او صعلوك ضعيف او شجاع صنديد
 او جبان رعديد . كلهم يمشون مقنعي رءوسهم يذكرونك ويلبونك
 وينادونك ويستغفرون ذنبهم ويطلبون رحمتك وغفرانك .

خرمت أنوف العرب عن الكربلاء والتعاظم والتکادر والتفاخر فذروا
 لك وعنت وجوههم لك انت وحدك لا شريك لك انحنت رءوسهم بالركوع
 والسجود حتى لامست الارض اعتراضا بعظمتك وجروتك فارتقت نفوسهم
 الى منابر المجد فملأوا الدنيا عزا وسؤدا . ذلوا لك فعزت نفوسهم وخافوك
 ققويت افثتهم . آمنوا برسولك وبفرقاتك ففتحتم قبسا من ضيائلك فاناروا
 العالم وبعنوا الحياة في الوجود اطفأوا نيران الم Gorsie وابدلوها هدى
 وضياء وحطموا اصنام الوثنية وابدلوها شمما وباء فدخلت الامم في دين
 محمد افواجا . وجرني موكب مطوفنا حتى اذا وقفت امام الحجر الاسود
 وبداننا الشوط الاول قلنا باسم الله الله اكبر والله الحمد وأشارنا اليه وحاولنا
 ان نخترق الحزام البشري لنصل اليه فلم تستطع . انها امواج تدافع
 وتزدحم فانية في وجود الله وفي وسط هذه الامواج رجال غلاظ شداد
 يحملون على اكتافهم ضعفاء الحجاج في محامل من الخشب ذات قوائم
 ومقابض يركضون بها ولا يلوون على أحد لا يهمهم ان يدفعوا عاجزا او
 يصطدموا بامرأة عليك ان تتجنبهم وليس عليهم ان يتتجنبوك . ولو مشى
 هؤلاء بهدوء ولو تمهلت جماعات الحجاج قليلا في سيرها لادوا اشواظهم
 السبعة دون عناء ولكنهم من امم مختلفة ومن ارجاء متباينة وعادات متباينة
 وطبع فيها الباردة المطيبة وفيها الهائلة النافرة لا ينفع فيها ضبط ولا تنظيم
 ولو لا الضبط الشديد عند الحجر الاسود لرمت اجساد وديس ضعيف
 وفنيت نفوس .

سرنا من وراء المطوف تتحاشى الموجة اثر الموجة وندفع الناس بالتي
هي احسن . المطوف يقرأ والصحاب يرددون فمنا من يتبعه ومنا من يدعوه
لنفسه يؤلف الدعاء كي فيما يشاء او يقرأ سورة من القرآن كي يبقى فؤاده
رطباً بذكر الله . وكلما مررتنا بالحجر الاسود اشرنا بآيدينا وقلنا بسم
الله الله اكبر والله الحمد . وتمت سبعة اشواط ما قبلناه ولا لمسناه ولكن
اشرنا اليه تكريماً وذكري اتمام بناء البيت به ولأن الله حقن به دماء القبائل
على يد محمد بن عبد الله حين ارادت قريش بناء الكعبة بعد ان هدمها
السيل واختلفت القبائل بينها على من يرفعه بيده الى مكانه فجاء الامين
محمد فوضعه في رداء فامسك به القبائل كلها ورفعه حتى اذا بلغت به
 محله أخذته محمد بيده ووضعه بمكانه فكان هذا الحدث ارهاصاً لاول لبنة
وضعت في بناء الاسلام . ما اقتربت من الحجر الاسود في طوافٍ خوف
التصادم ورققاً بنفسي ان تلهم عن مشهد هذا الوجود العظيم بمواكب هذه
الامم المزدحمة المهللة المكيرة وتوجهت الى الله ادعوه فهو قريب يجيب
دعاة الداعي اذا دعاه لا يريد ويسطا ولا يحتاج الى وسيلة تقف بينه وبين
عباده وهو الذي يسمع دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء .

أكملنا سبعة اشواط فذهبنا الى مقام ابراهيم فصلينا فيه ركعتين ونزلنا
إلى بئر زمرم فازتوينا وقد صب حول هذه البئر الاستمنت المسلح وضررت
حولها الانابيب والحنفيات والناس بين سابع ومتواضي وشارب ومالي .
ابريقا او آناء يذهبون ويحيطون يسبحون الله ويمجدونه وبعد ما ارتوينا
توجهنا الى الصفا والمروة يقودنا المطوف حتى اذا بلغنا الصفا صعدنا اليها
ويبدأنا بتلاوة الآية الكريمة « ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حجج
البيت او اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما ومن تطوع خيراً فان الله
شاكر علیم » . وكبرنا وهلتنا ودعونا الله وهبطنَا نسعي نحو المروة ورملنا
وهدائنا حتى أتممنا سبعة اشواط وقصرنا ثم عدنا الى الفندق وتحلّلنا .

وما أيقنت اني اكملت اركان العمرة وقفت وقفه التأمل وذهب بي
الفكر مذاهبة واحذت اقوال لنفسي : أين هي ربوة الصفا

وain هي ربوة المروءة اللتان كانت هاجر تسعى ركضا بينهما وأين رمالهما
واحجارها وأين اساف الصنم الذي اقامته الجاهلية على الصفا وأين صنمها
الآخر نائل الذي اقامته على ربوة المروءة وain هي الارض المزعاء التي
كانت تمتد بينهما وain هو ذلك الوادي الذي يصل الى بئر زمزم ٠

اما الصنمان فقد حطمهما الاسلام وجعل من الربوتين شعيرة من
شعائر الله واما الوادي المتبد المكشوف تحت الشمس المحرقة فلا انز له
فقد اولته الدولة عنايتها واشأت عليه بناء ضخما عاليا تفتح من حائطيه
نوافذ واسعة صبت أرضه بالاسمنت المسلح وغطيت الربوتان بالخشب
المتحوت وشطر الوادي بين الربوتين شطرين بينهما حاجز منخفض يمنع
تصادم الساعين واشتباكهم ٠ الهابطون من الصفا يمرون زرافات والهابطون
من المروءة يمرون جماعات لا تختلط الا اصواتهم بالدعاء ولا يزعج الساعين
غير اولئك الاجيرين الغلاظ الاشداء الذين يحملون في محامل على اكتافهم
ضعفاء الحجاج او يدفعونهم بعجلات صغيرة يزحمون الناس بسرعتهم
ويقلقون الساعين بلاحفهم ٠ ولو تمهلوا في سيرهم قليلا لكان السعي متعة
الحجاج في هذا البناء الجميل والمشهد الذي يأخذ بالنفس فيسموا بها عن
صغرائهم ويرتفع صعدا في سلم الانسانية حتى يجد الانسان أن عليه ان
يكون في صفوف الملائكة ويشعر ان الاخوة والمساواة والعدل التي جاء بها
محمد ما هي الا تراج هذه التربية المحمدية التي لقن بها محمد العرب
دروس العظمة والجلال عن طريق الطاعة لله والتواضع فمن تواضع لله رفعه ٠

مَكَةَ

أنهينا طواف العمرة والسعى وقصرنا وتحلتنا وعدنا الى الفندق وزعنا
ثوبنا الاحرام ولبسنا ثياباً يضا خفيفة . كان الفندق مريحاً هادئاً من يزيد
أن يتبعه أو يقرأ و كان الماء فيه غزيراً والجو في غرفه لطيف مبرد وهو
قريب من البيت الحرام . نسمع أذان المؤذن وتنتظر وقت الصلاة فنسعى
إلى ذكر الله ونذر كل شيء لتشترك مع جموع المسلمين في خير يتعげ
إليها المسلمون في كل يوم خمس مرات في مشارق الأرض و مغاربها .

ولما كشف الليل لثامنه عن ثغر الفجر الباهم وسمعت كلمة الله أكبر
توضات واخذنا سمتنا إلى البيت العتيق ورأيت الناس تسير أفواجاً تسبح
الله في هدوء وسكون يمشون مسرعين أو الهوينا يتسربون من طرق شتى
يحمل كثير منهم على كتفه سجادة صلاته وأخرون يصلون على الأرض
المفروشة بالمرمر .

فإذا أصبحى الضحى ونفضت الأعين عنها ملأة النعاس وانتشر الناس

وفتحت الاسواق اعجبك هذا المنظر الرائع في الغادين والراطحين البايعين
 والشارين وازدحام الحجيج على الصرافين وأيقت ان هذا الوادي الذي
 لا زرع فيه ولا ضرع قد جعل الله افئدة الناس تهوى الى أهلة في هذا
 الموسم المقدس . وأنت اذا ذهبت الى سوق لتشترى حاجة او هدية طالعتك
 البضائع البراقة الناعمة في أنواع من الحرير الطبيعي والصناعي وأنواع من
 انسجة الصوف والقطن . والأواني المصنوعة والسبح المعلقة (جمع سبحة)
 ولعب الاطفال وأماكن الساعات الثمينة والمكتبات الواسعة ورأيت الحاجات
 جالسات على عتبات الدكاكين أو واقفات في وسط المخازن يقلبن البضاعة
 وطالعتك حركة بيع وشراء لا مثيل لها الا في اسوق الموسام . وزحمتك
 عجلات صغار عليها بضائع مختلفة . فاذا تحولت في اسوق آخرى رأيت حوائط
 العطور والبخور والصموغ واذا توغلت قليلا وجدت أكواخ المأكولات الأخرى
 من الجبن والزبتيون والمتبلات وainما تلفت رأيت صناديق زجاج المشروبات
 الغازية والمعيلات كل ذلك في وفرة كافية ومدد لا ينقطع واوفر من هذا وذاك
 الفواكه الطريبة الناضجة من البرتقال والموتز والتفاح والبطيخ في تحديد اسعار
 فلا اختكار ولا استغلال لا يتنى كلام البائع الذي يبيع الفواكه . هو في الدكان
 مثله على العجلة رخيص ولطيف تشتري وانت مطمئن وتأكله وأنت ملذ . أما
 في حوائط البضائع وبين الباعة والمتجولين فان المعاملة أساس البيع ولكنه
 لا يطلب منك ضعفين كما هي الحاله في بعض الاقطار ويكتفي ان يربح منك
 ربحا بسيطا ويدرك التاریخ ان هذا هو شأن مكة من قديم الازمان . هي
 سوق تجارة وهي محجة دینية فيها تقام اسوق الادب فيجد اليها الشعراء
 ليشهدوا سوق عكاظ كما يجد اليها المتدينون ليقضوا مناسكهم وليطوفوا
 بالبيت العتيق وينحدر اليها التجار ليعوا بضاعتهم .

ان اهل مكة لا يتجاوزون مئة الف ويفد اليها في موسم الحج من
 البلاد الاسلامية البعيدة والقريبة ما يزيد على مليون نسمة فستقبلهم
 بترحاب وسعة ورزق كبير وماء وفير وهدوء وآمن ولكن لا تستطيع ان
 تقف عند هذا الوصف اذا علمت ان الوافدين من امم مختلفة متفاوتة في

الثقافة والعلم متفاوتة في الثروة ولا يفوتني اختلاف الاعمار فكثير منهم
شيخ عجزة او كهول لا يتعدون في تعليم مناسك الحج وفى هذا الازدحام
المضغوط وفي تفاوت الاعمار وفي تفاوت الثقافات لا يخلو موسم الحج من
خطيبات لا لوم فيها على احد الا على الذين جاءوا من بعيد الذين اوصاهم
القرآن الكريم بقوله تعالى : « الحج اشهر معلومات فمن فرض فيهم الحج
فلا رفت ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله
وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الالباب » فأمرهم ان يتأدبو
وينصرفوا الى اداء الفريضة ومعرفة الغاية منها . ولقد وجدت اكثرا الذين
يحجون لم يأتوا ليتعرفوا على اخوانهم المسلمين بل لا شأن لهم بمشكلات
المسلمين في قطر من اقطارهم . وقصاراه انه اذا بدأته بالسلام رده عليه على عجل
وتركت تمشى وقليل منهم من يذكر انه عضو في الاسرة المسلمة المنتشرة
في ارجاء العالم وان فيها الضعيف الذي يشد العون والقوى الذي يستعان
به . وبين العون والاستعانا تستكمل الاسرة قوتها .

ولقد سرني اني عرفت رجلا من الباكستان له وظيفة كبيرة في هيئة
دولية عابني ولام العرب المسلمين وقال : « اتنا نريد ان نقرأ سيرة نبينا
والغايات السامية من ديننا مكتوبة بأقلام عربية في لغة اجنبية وذكر انه
اشترى كتابا واحد المستشرقين في سيرة (محمد) فلما بلغ في قراءته اربع
صفحات اضطر ان يقتلع من الكتاب صفحتين ويمزقهما ويترك الكتاب
مركونا في مكتبه ذلك لأن الصفحتين مملوءتان طعنا بـ (محمد) وجدت في
هذا الاخ المؤمن روحًا عالية ووجدت قوة الایمان تتدفق من ثنيا كلماته
كأنه يحاول ان يستثيرني ويبعث في نفسي الحماسة وما يدرى اني كنت
كلي اذنا صاغية وما لي من حاجة الى اثارته .

ولقد اعجبني في هذه الرحلة المقدسة الممتعة شباب طامح مفتوح
السواهد اصحاب الاجسام في حديثهم قوة العارضة وصدق المنطق هؤلاء
الفتيان بيدهم منشورات وجرايد يوزعونها على الحجاج يشكون ظلم
النجاشي وتسعفه في شأن اخوانهم المسلمين اعجبت بالشباب وعجبت من

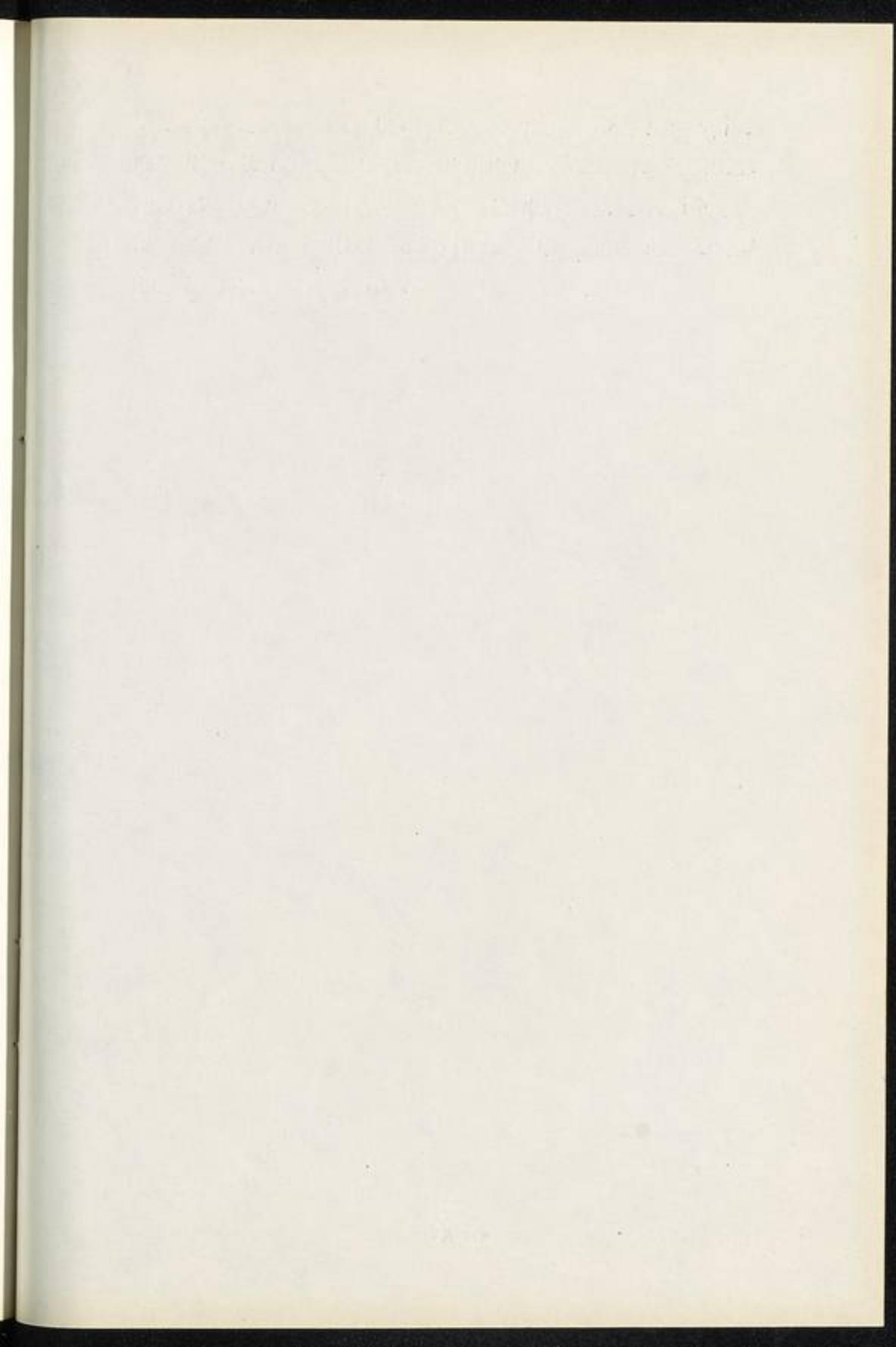
الخبر وقلت سبحانك اللهم مبدل الاحوال ٠ لقد كان النجاشي في فجر الاسلام سندًا للمهاجرين ونصيرا لهم بل اذا صح ما اوردته روايات التاريخ فإنه كان قد قبل الدعوة واسلم لله رب العالمين ٠ ان هؤلاء الشباب يستصرخون العالم الاسلامي ويستعدونه على الظلم القاسي وكان يكون لهذا النجاشي وأمثاله ان يعرفوا حدودهم لو كان هذا الحج مؤتمرا اسلاميا يتدارس المؤمنون فيه احوالهم ويحلون معضلاتهم فانهم لو اجتمعوا لكانوا قوة هائلة ولعلموا الخصم درسا لا ينسى وما ترددت كلمة الاستعمار على السنتهم وانى لهم ذلك والآتون من اقطار بعيدة فقراء مساكين كثير منهم لا يحسن فراءة الفاتحة وكثير منهم عجزة ضعفاء وكثير منهم نساء محجبات لا يغشين المؤتمرات ولا يحسن الكلام وقد يحول بينهن وبين ذلك خجل طبيعي او تجنب تربوي اخذنه عن بيوت آباءهن ٠

ومكة هذه تقع في واد ضيق ممتد طوله ثلاثة أميال وعرضه أقل من ميل ويصل في بعض اماكنه الى أقل من نصف ميل هي على ضيقها مفرحة بهيجية شقت فيها الشوارع واقامت متزهات وشيدت عمارات ويعحيط هذا الوادي جبال عالية قد يصل ارتفاع بعض ذراها الى ٢٥٠ قدما فوق سطح البحر واشهر جبالها جبل ابي قيس وهو اقرب الجبال الى الكعبة والربوة التي من أسفله هي ربوة الصفا التي يبدأ السعي منها والتي كانت الجاهلية نصبت عليها صنمها - اسف - ٠ وجبل ثور وهو جبل مرتفع يشرف على مكة من جنوبها وفيه غار ثور الذي اختفى فيه النبي مع صاحبه ابي بكر كيلا يلحق بهما المشركون عندما هاجروا الى المدينة ٠ وفي شرقى مكة جبل امعز أشم مرتفع تنتشر على سفوحه صخور حمراء وتجلله حتى تصل الى الذروة اسمه جبل النور وفي هذا الجبل الاشم غار حراء الذى كان يبعد فيه الرسول ٠ ولنا عودة اليه عند الحديث عن شرق النبأ وتنشر بيوت أهل مكة في هذا الوادي وبعضاها يرتفع صعدا حتى يحضن صدر الجبل او يقف على الذروة وتکاد هذه البيوت لا تكفي اهل مكة على قلتهم فكيف بهم اذا نزل في احیائهم نصف مليون حاج او يزيدون يغدون من

مشارق الارض ومغاربها ؟ انها محنة لاهل مكة وامتحان قاس لولاة الامر
 فان هذا الموسم على قصر ايامه لا يتسع الى تأسيس فنادق عديدة تسكن
 في أيام معدودات ثم تترك خالية طوال أيام السنة ولا يمكن ان تدفن ثروة
 هائلة في طبات حجارة واسمنت وحديد هذه المدة الطويلة ولكن كيف
 الخلاص من امر واقع ليس له دافع ؟ انك تشهد مظاهر هذه المحنة في
 الاجسام الممدة في افيا الصفا والمروة واروقة المسجد الحرام وقد لا تستطيع
 ان تجد محطة قدم في بعض هذه الامكنة بين أجساد المضطجعين يفترشون
 الارض او سجادة رقيقة او يتسودون حذاء او رداء وحول الجميع نفسيات
 أكل وأوراق . اتنى كلما أبصرت هذه المناظر قلت سبحانك يا ربى ان
 عبادك لم يفهموا ماذا هدفت اليه في شريعتك السمحاء في قدسيه الحج ونبيل
 المقصد منه فانك يسرت على عبادك شعائر عبادتك ولكنهم آثروا ان يؤدوا
 مناسكهم في عناء ونصب .

اتنى لا اجد فرضا محتما في اداء فريضة الحج على هؤلاء العجزة
 والمساكين والشيخوخ الضعفاء ولا اجد فرضا محتما على هؤلاء الفقراء
 الاميين ، كنت اتمنى ان يقصد الى مكة شباب المسلمين المثقفون وكهولهم
 الناضجون وان يأتوا متأبطين مناهجهم وخططهم يبحثون في شأن أممهم
 ويتداولون بما يحيط بهم . ولو فعلوا ذلك لكان رسالة الاسلام وضاعة
 تثير العالم . وأقسم قسما لا أحنت فيه لو ان المسلمين كانوا فعلوا ذلك
 منذ ان أصبحوا قوة ترهبهم الامم لكان للتاريخ الاسلامي شأن غير هذا
 الشأن ولكتب لهم صفحات متلائمة تفسح للحضارات طرقا مفروشة بالمجده
 والسؤدد ، ولما ضاقت مكة على رحباها بهذا العدد الضخم الضعيف والخلف
 بالصفوة المختارة المثقفة الناضجة من ابناء الامم الاسلامية . ولاعادت مكة
 ندواتها السياسية واسواقها الادبية ومظاهر حياتها الاجتماعية ولصارت مكة
 ام العواصم بدل ان كانت قبل ام القرى . انك لا تسمع في مكة حدينا
 في ندوة ولا تجد دارا كدار الارقم يتشاور فيها القوم ولا تسمع الخاذلية
 من شعراء الجاهلية والاسلام ولا تبصر صناديق قريش بل تجد خليطا من

أمم مختلفة وتسمع عربية فيها لكتة في الحانوت والشارع و كنت اتمنى ان أجده
الدار التي ولد فيها الرسول يذهب اليها الزائرون يستوحون سر العظمة
والعصرية ودار اببي بكر وددت ان ارى هذه الدور عامرة وفيها اثر من
آثار اهلها . ولكن في الكعبة كفاية وفي شعائر الله ومناسك الحج ما يملا
القلب قوة والنفس سموا ورفعة .



قُرْيَشَ وَالْكَعْبَةَ

كثرت الروايات في شأن بناية الكعبة وتعددت ولكنها مهما اختلفت وكثر تعدادها فان الحقيقة الواقعة ان هذا البيت العتيق بنى وانه أول بيت وضع للناس بمكة وان الحجر الاسود سواه انزل من السماء أم جيء به من الارض قد خلد في التاريخ وأخذ مكانه من شعائر المسلمين وبلغ الاهتمام به حدا لم يبلغه حجر غيره في الارض وان شيد في ركن من اركان هذا البيت يتناقل الرواة اخباره ووصفه وتهتم به دول العالم وقد افتعلته الحروب من مكانه واعادته الحروب الى مكانه .

وعندما اقيمت قواعد البيت ببط الماء من بئر زمزم ليكمل الاسكان والاستقرار فان الله جعل من الماء كل شيء حي ولا حياة للانسان بغير الماء والهواء والشمس تلك العناصر الثلاثة التي تعين على البقاء واستمرار الحياة . وضع هذا البيت رمزا للاسكان وترغيبا لاستقرار هذا الانسان الذى كرمه الله وحمل ذريته في البر والبحر والجو ورزقهم من الطيبات

كل ذلك ليؤدي الانسان رسالة الوجود . وضع هذا البيت ليكون متابة لتلك القبائل الضاربة في الصحراء والوديان والشواب وعلى ذرى الجبال في المروج الخضر والخصبة وأقيمت قواعده ليفد اليه الناس من كل فج عميق وليشهدوا منافع لهم وتنتزج الحضارات ويتعاون الفكر الانساني على البقاء والاستمرار وتدالوت على شؤون هذا البيت قبائل ورددت في اخبار التاريخ في روايات مختلفة فيها ما يميل المرء به الى التصديق وفيها ما يدعو الى بحث وتحقيق واقربها ما جاء في الاخبار عن قبيلة جرهم حيث استخفت بالبيت ولم تهتم بشأنه فغلبتها عليه خزانة وهي قبيلة قحطانية كان من بين اسيادها عمرو بن لحي دل في افعاله انه رجل اجتماعي بالطبع يهتم بالمجتمع ويسير به من الحسن الى الاحسن فكان يتألف الحجاج وكان مطاعا في قومه واذا تكلم ذهب كلامه مذهب الشريعة فيتبعونها ويدرك عن انه اول من نصب الاصنام في مكة وجاء بضم يقال له « هبل » فاقامه في بطن الكعبة . وعبادة الاصنام في بلاد العرب تخضع في شأنها الى ما تخضع اليه الروايات التي تأرجح بين الشك واليقين .

ويقول التاريخ ان امر الكعبة خل في يد خزانة حتى وفد الى مكة قصي بن كلاب بن مرة القرشي وكان الامر يومئذ الى حليل بن حبشه فتزوج قصي ابنة حليل فآل الامر الى قصي وغضبت خزانة واقتلت قريش وخزانة قتلا شديدا ثم تداعوا الى الصلح وان يحكموا بينهم رجلا من العرب فيما اختلفوا فيه فحكموا يعمر بن عوف فقضى بينهم بان قصيا أولى بالکعبه وأمر مكة من خزانة فجمع قصي قومه من منازلهم الى مكة وتملك على أهل مكة فملكونه واختلط للکعبه ساحة واسعة واباح للناس أن يبنوا دون ذلك حولها من الجهات الأربع وامرهم ان يجعلوا بين بيوتهم مسالك يفضون بها الى ساحة الكعبه كما أمرهم الا لا يرفعوا بيوتهم عن الكعبه لتظل مشرقه عليها و كانوا يستظلون بظلالها وكان حول الكعبه اشجار هابت قريش قطعها قصي بيده واعانوه فجمع قومه وقسم مكة اربعاء فائز كل قوم من قريش منازلهم من مكة التي اصبحوا عليها ولذلك يقول الشاعر :

أبوكم قصي كان يدعى مجمعاً

به جمع الله القبائل من فهر

كان قصي أول من أصاب ملكاً من أولاد كعب اطاع له
به قومه فكانت له الحجابة والسقاية والرفادة واللواء وهو
اول من بنى دارا للندوة فكانت قريش لانقضى أمراً الا فيها وما يتشارون
في أمر نزل بهم الا في هذه الدار ولا يعقد لواء الحرب الا فيها ولا يعقد
نكاح الا بها . ولا يدخل فيها للبت في الامور من قريش الا من بلغ الأربعين
وهو اهل لان يفصل في مهمات الامور فهي دار الشورى وهي مجلس الامة
وكان أمر قصي في قومه يسير مسير الشريعة في حياته وبعد مماته لا يعمل
بغيره تيمناً بفضله وشرفه . وكانت الرفادة خرجاً تخرجه قريش كل موسم
من أموالها الى قصي بن كلاب فيضع به طعاماً للحجاج يأكله من لم يكن
له سعة ولا زاد من يحضر الموسم وذلك أن قصياً فرضه على قريش وقال
لهم : يا معشر قريش انكم جيران الله وأهل بيته ، وأهل الحرم وان الحاج
ضيف الله وزوار بيته وهم أحق الضيف بالكرامة فأجعلوا لهم شراباً وطعماماً
ايم هذا الحج حتى يصدروا عنكم ففعلوا فكانوا يخرجون لذلك كل عام
من اموالهم فيدفعونها اليه فيضعه للناس أيام مني . واتخذ أولاده هذه سنة
بعده وما اصاب مكة في عهده جدب خرج حفيده الى الشام ومعه ما تجمع
من خرج قريش فاشترى به دقيقاً وكعكاً فنحر الجذور وطبقه وجعله
نريداً واطعم الناس ، فسمى بذلك هاشماً لانه هشم التربيد ، وجاء الاسلام
وقريش تتخذ هذه عادة موسمية فامضها النبي (ص) واقام على ذلك أبو
بكر والخلفاء من بعده ويقول الطبرى جرى ذلك في الجاهلية حتى قام
الاسلام ثم جرى في الاسلام الى يومنا هذا فهو الطعام الذى يضعه السلطان
بمنى للناس حتى ينقضى الحج . واهتم قصي بسقاية الحج واتخذ لهم
حياضاً من الجلود توضع بفناء الكعبة ويسقى فيها الماء العذب يؤتى به من
الآبار البعيدة محمولاً على ظهور الابل . ما اروع هذه الادارة البسيطة
في شؤون الحج وما اسمى هذه النقوس الطيبة الكريمة الآمنة المطمئنة ذلكم
هي طباع العرب السمححة وتلكم هي الفطرة الطاهرة التي يفترط عليها

الاسان قبل ان تتعقد عليها امور الحياة . أمن واستقرار وضيافة سخية
وعنایة فائقة مع طيب نفس دون منه بل كانت تراها قريش فرضا عليها
تسهل امور الحج للناس ليشهدوا منافع لهم .

ولما كبر قصي وضعف احضر ولده البكر عبدالدار وكان هذا ضعيف
الشخصية وله اخوة اقوىاء . قال له أبوه والله لا الحقنك بالقوم وان كانوا
قد شرفوا عليك . فلا يدخل رجل الكعبة حتى تكون تفتحها ولا يعقد لواء
حرب لقريش الا بيده ولا يشرب رجل بمكة ماء الا من سقاياتك ولا يأكل
احد من اهل الموسم طعاما الا من طعامك . ولا تقطع قريش امورها الا
في دارك . ولما توفى عبدالدار لم يرض ابناء أخيه عبد مناف أن ينفرد
بالامر ابناء عبدالدار واختلفوا فيما بينهم ولم ينزل احد عما يدعوه للآخر
ولكنهم جنحوا للصلح وقسمت مصالح قريش بين الفريقين بالقرعة فكان
الرياسة في بني عبد مناف فوليها هاشم واتتهت اليه الرياسة ومنه الى ابنته
عبدالمطلب الذي ظفر بال محل الارفع من الشرف والحياة واستهل اعمال
رياسته باكتشاف بئر زمم وكانت قد خفيت ونبت على حواشيه الشب
وكان قريش قد منعه من حفرها لان صنعا كان قائمها عليها فلما اكتمل
لعبد المطلب عشرة اولاد أقدم على حفرها فنبط ماوتها مرة اخرى ووجد
في عينها غزالين من الذهب وجواهر وسيوفا وذهبا فأخذ الذهب والغزالين
وصنع منها باب الكعبة .

وفي أيام عبدالمطلب حدث حادث جلل ذلك ان ابرهة اقدم يقود
جيشا لجبا يقتدمه فيل لا عهد للعرب به وكانت نية ابرهة ان يقوض اركان
اليت ويزييل الكعبة وعلم العرب بهذه المفاجأة فنادي عبدالمطلب فيهم أن
احموا ابلكم واتركوا أمر اليت فان له ربا يحميه وقد اجاب الله طلبته
وحمى بيته وجعل كيد اصحاب الفيل في تضليل وارسل عليهم طيرا ابابيل
فأهلتهم وجعلتهم كعصف مأكول . وكانت هذه أول غزوة اجنبية حاقدة
لقد التف حول الكعبة العرب وتکاثروا وانتظم امرهم وسارت تجارتهم
غدوا وروحا وصار لهم کيان دولي وبدأت قوتهم تظهر للوجود فحافظ ذلك
ابرهة والاجاش ولم يجدوا لهم منافسا في هذه المنطقة فجهز

هذا الجيش اللجب فأهلکه الله *

استقرت الاحوال واخذت الامور تجري على اذالها وتکاترت القبائل
وکثرا سادات القوم واعتبر كل صنديد بعشيرته وضعفت أحوال قريش والامة
العربية تبت الرجال الاذكياء وكانت مدارس الحياة تقدم كل يوم رعيلا
من الشعراء والخطباء والعرفاء والكهان وعلماء الاساب والأنواء والعيش
صفوة ومجالس الطرب والفناء قائمة في كل مکان وأسواق عكاظ وذى المجاز
وذى المجنحة الحافلة بالادب ومجالس المحدثين والقصاصين كل اولئك كانت
ترید رائدا يدير هذه الحضارة الجميلة فكان أمر الله قدرا مقدورا وفصلت
السماء في الامر واشرق فجر مكة عن مولود مبارك ما كان الناس يعرفون
انه رائد هذه الامة وقائدھا الى الصراط المستقيم كان مولد محمد بن عبد الله
بن عبدالمطلب بن هاشم فاتحة عهد جديد لهذه الامة وكان ذلك ارهاما
للهور النبوة وبعد خمسة وعشرين عاما من مولد محمد انتاب الكعبة حريق
فتصدع بنيانها وهدمت ليعاد بناؤها واشتراك قريش كلها في نقل الحجارة
اليها وشارك محمد في ذلك ولما بلغ البناء موضع الحجر الاسود اختصمت
القبائل في شأنه فكل قبيلة ترید أن تحتجز الشرف لنفسها في رفعه الى
موقعه وكاد القتال ينشب بينها لولا أن خرج عليهم رجل من كبارهم
قال : يا عشر قريش ، حكموا فيما اختلفتم به أول داخلي عليکم فكان
محمد أول داخلي وهتف القوم : هذا الامين وكلنا نقبله ونرضاه * فقال
محمد : احضروا لي ثوبا فوضع الحجر فيه وقال لتأخذ كل قبيلة بطرف
نم ارفعوه جمیعا حتى اذا بلغ الموضع اخذه بيده ووضعه في مكانه واتموا
بناءها وزادوا تسعه اذرع عن البناء الاول وجعلوا لها سقفا ومیزانا ينزل
منه المطر *

فکانت هذه اول زيارة في الكعبة منذ ان وضع قواعدها ابراهيم عليه
السلام وكانت هذه الظاهرة ابتداءا للرائد الاول وارهاصا للنبوة فقد اجمع
القوم ان محمدا امين هذه الامة وانه هو الذي يحل مشكلتها ويجمع كلمتها
وانه القائد المتضرر واخذت العناية الالهية تعد محمدا لامر جلل وحدث
له ما بعده *

مُحَمَّدٌ بْنُ قُرْيَشٍ فِي مُسْتَهَلِ حِيَانَةِ الْاجْمَاعِيَّةِ

بدأ نجم النبوة يتلألأ في جبين محمد ووجد القوم فيه قبل مبعثه
صفة الرجالية وعلامات العبرية فكان لا يتصرف الا تصرف الشهم الأبي
والحليم المترن وكان يخرج مع القوم الى عكاظ ومجنحة وذى المجاز الى
هذه الاسواق التي كان يقيسها العرب في الاشهر الحرم بجوار مكة وكانت
تعرض البضائع فيها وتتنشد الاشعار ويبدى كل ذى رأيه وتحطبه
الخطب وكان القوم يتنازرون ويتكاثرون ويتفاخرون وكان كل شخص
ينشر رأيه ويبدى عقيدته وهو آمن مطمئن لانه في الاشهر الحرم وكان
محمد يجد في هذه المعارض المزدحمة آفاقاً واسعة للتفكير في خلق الله
وفي نفسه ° والى هذا كله كان محمد يرعى غنم أهله من ي يريد ان يعهد
بأنعامه اليه فإذا خرج الى البر رأى هذا الفضاء المنسي تمرح به الاغنام
السارحة تتداعف لتقضم العشب أو تتفاًظ اللؤلؤ وأرى في وداعه مشيها وتدافعها
على قسمة العشب أو شجرة الشيح لونا من الوان الفرائز وكانت

له فيها دراسات كأن العناية الالهية الهمته أن يمشي في مستهل حياته هذه المشية الوئيدة الفاحصة المفكرة . والراعي الحذر المتقل يحنو على عنقه حنوه على أطفاله فلا يعطشها ولا يجوعها ولا يتركها هملا . ان رعى الاغnam يوقف في النفس الشعور بالرحمة والعطف ويدرب الرأى والعقل على حسن الادارة والتدبیر والنظام كان محمد يأخذ عنقه في السهول والوديان ويصعد بها على الهضاب ويهبط في الشعاب ويردها موارد الماء فكانت هذه المشاهد الطبيعية في الكلاً والماء والطير في السماء والوحوش السارحة في الفضاء مجالاً وسيراً يجد فيه محمد متعة العقل وراحة النفس . وكان يطلق لخياله أن يحلق ويسبح في ملکوت الله فيرجع إلى نفسه ويقول ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك . عصمت هذه المشاهد وهذا التفكير محمداً من زلة الشباب ولهم الفتیان فكان رفع الجانب عفیقاً صادقاً وأمناً حتى غلب عليه هذا اللقب الجميل فلا يوصف به أحد غيره ولا يقال «الامین» الا له . مضى محمد في رعي عنقه ردها من الزمن حتى اذا ايف وصار يقعد مكان الرجلة جاءه عمه أبو طالب وقال له يا ابن أخي ابني رجل لا مال عندي وقد احوجتنا الايام وخدیجة بنت خویلد تستأجر الرجال في الخروج بأموالها للتجارة فهل ت يريد أن أكلمها فقال : الامر اليك يا عم . وذهب أبو طالب الى خديجة فسألها أن تستأجر محمداً فأجابت قائلة : « لو سألت ذلك يا أبو طالب لبعيد بغيض لاجبك فكيف وقد سأله للقرب الامین » .

فقال أبو طالب : يا ابن أخي هذا رزق ساقه الله إليك وخرجت القافلة وخرج محمد معها يتصرف مع القوم تصرف الرجل الحكيم فأجله التجار واحترمه واطاعوه فباع وفايض وابدل ما ابدل وربح ونجح ومع ذلك فلم ينصرف عن التفكير في ملکوت السموات والارض وعاد بالتجارة الى خديجة ونقل اليها ما فعل فاصفت اليه وسررت بحديثه واعجبت بامانه وسمو خلقه وتنمـت ان يكون هذا الشاب الصالح الامین زوجاً لها وهي التي رفضت يد كبار رجال قريش وائزائهم ولم تكتم رغبتها ، فتحدثت

إلى المقربات من النساء وعلم محمد بذلك وكان الذي اعجبه من خديجة ادبها وحرزها وزفت سيدة قريش إلى أمين قريش وسيدها .

وببدأ محمد حياة جديدة مع زوجه المكتملة وتهألا له بيت في برد الراحة وانصرف إلى انفراده وتفكيره في ملوك السموات والارض يخرج إلى الفضاء العلوي يتأمل مشاهد الطبيعة ويصغى إلى احاديث القوم ويشار كهم في عكاظ وذى المجاز ومجنة ويخلو لنفسه يصعد الجبال ويبعد إلى الوديان كأنه يريد أن يجد شيئاً ينتظره ولم يمنعه ذلك كله أن يكون صاحب البيت الكفء الذي يضلله بيته بأدارته وتدبره وكانت خديجة المرأة الذكية التي عرفت ما يحب وما يميل إليه وفهمت طريقة حياته فكانت تعينه على تفكيره . والمرأة في طبيعتها تكون نافذة البصيرة تعرف في الرجل ما لا يعرفه الرجل في نفسه . هي سر اندفاعه في الحياة وهي سر شقائه . فكم عظيم كانت المرأة وراء عظمته وكم عظيم نزلت به المرأة من عليهاته وقضت على عقراته واندرت في مطواى الجهل ولم يعد إلا خبراً من الاخبار .

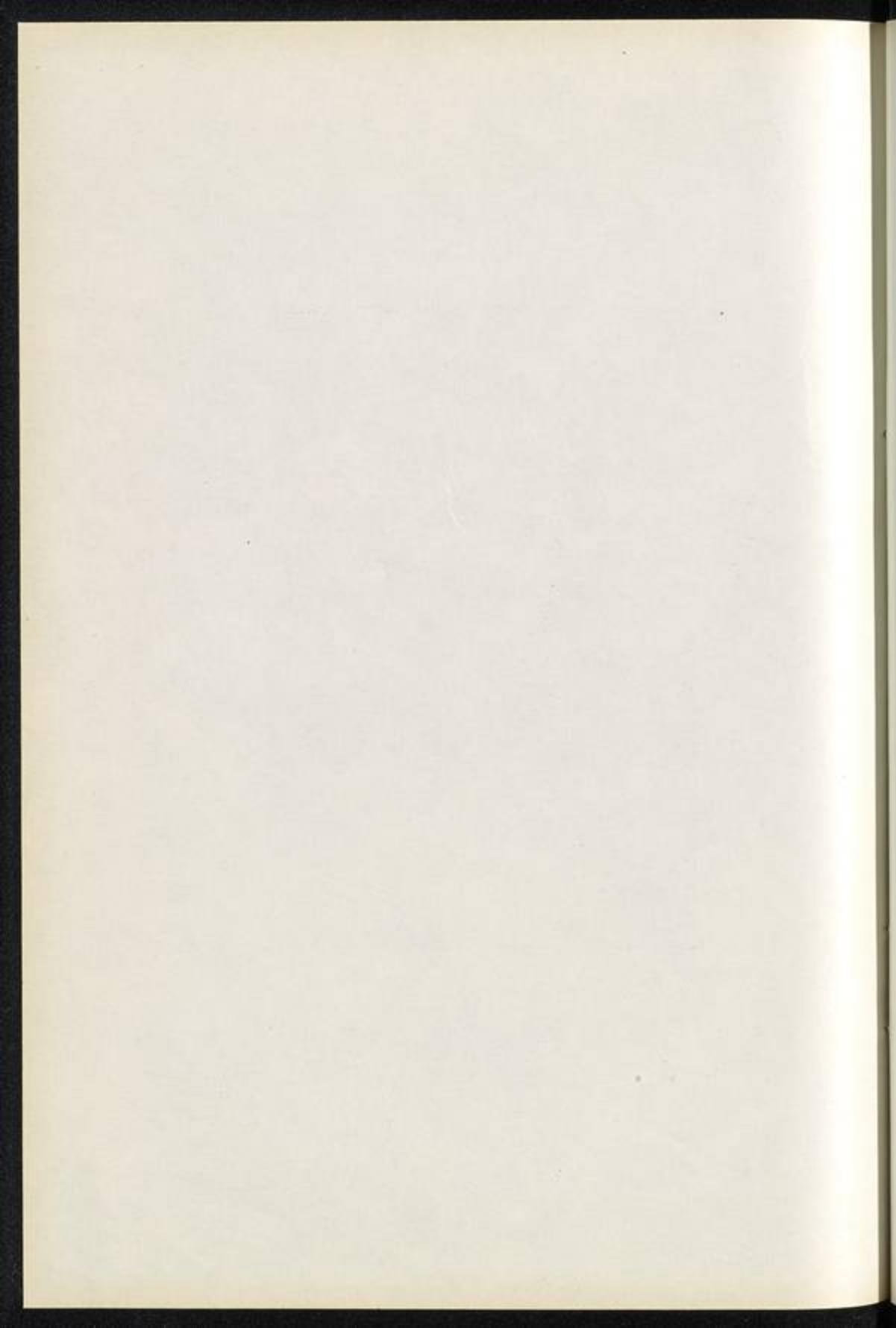
وكان العناية الالهية على موعد مع النبي المستنير فهيا له سبل النجاح في بيت هادي ، مطمئن وزوج صالححة تعمل لمحمد ما يود وما يحب وظل محمد على عهده القديم يغدو إلى فضاء الله يتأمل مشاهد الكون ويروح على بيت يلفه السؤدد والشرف ويمر بالکعبه فيجد ما يحزنه وما يقوله ، يجد عبادة الاصنام من دون الله يجد عبادة « هبل » في جوف الكعبه واحترام « أسف » على ربوة الصفا وتبجيل « نائلة » على ربوة المروءة ويسمع باللالات والعزى ومناة في ارجاء البلاد ويسمع ان بيوتات العرب الكبيرة تحمل اصنامها في حلها وترحالها ويجد في عبادة هذه الاصنام ذلة في النفوس ما بعدها ذلة . ويجد فيها أمراً منكراً تأبه طبيعة العرب ذات الاباء والشمم ثم يلتفت إلى القوم فلا يجد في لسانه ما يستطيع به ان يقوله لهم . كان يتأمل ويفكر ويلف تأمله وتفكيره الصمت فلا ينسى بنت شفة فيما يحول بخاطره ولكنه مع ذلك يتحدث إلى القوم حدثاً طيفاً لا يخلو في ثناياه من مفاكهه وكان محدثوه يصغون إليه ويقدرون حديثه حق قدره

لأنهم كانوا لا يعرفون في كلامه إلا الجد ولا يجدون في حديثه إلا الصدق
 ولم يكن بداعاً هذا الصمت في محمد فقد كان يفكر في تكوين أمة ولم
 شعب فأن الشعوب لم تكون عفو الخاطر ولا نبتت نبات الأشجار إنها خلقت
 بأيدي المبدعين الذين ملأوا قلوب شعوبهم بالإيمان والمحبة • خلقها الآباء
 الذين كونتهم العناية الإلهية • إن يد الله التي خلقت آدم من طين وماه
 مهين قادرة على أن تصنع العباقرة وتجهزهم بقوة خفية هي قبس من منبع
 النور المقدس نور الإلهية • وهذا القبس هو الذي يشع فينفذ إلى قلوب
 الناس فيغمرها بمحبة العبرى واحترامه • هكذا كانت شخصية محمد كانت
 شخصية جذابة وهكذا كانت حياة محمد في مجتمع قريش • كان في
 حديثه قوة وجزالة وكان في كلامه كأنه يبت في أمر أو يحكم بقضية
 وكان الناس يلتفون حوله ويدورون في فلك جاذبيته لا يفلتون منه ولا
 يقتربون من عذمه سره • كان محمد ينظر إلى صناديد قريش في فصاحتهم
 وسواددهم فيهاهم ويجلهم وتدفعه القوة الإلهية ليتصدع بما يؤمر فيتآخر
 فكان يبتعد عن مجالسهم ، ذلك لأن العناية الإلهية لا ترسل الرسل إلا
 في اكتمال سن الرجلة في الأربعين من العمر فما كان محمد يألف الغوغاء
 ولا يجد راحة بينهم لانه كان يعتقد أن نضج التفكير هو الذي يحول
 الغوغائية إلى قوة فلا بد من الابتعاد عنهم حتى يأتي الوقت الذي يمكن فيه
 تحويل طاقة الشر إلى منابع الخير • وكان يبتعد عن أمجاد الشهرة لانه
 يعلم ان المتواضعين هم الذين يبدعون الحياة الجديدة وهم الذين يصنعون
 الامجاد •

كان محمد يرى فئة من قومه في الذروة من الفضائل ويرى فريقا
 من القوم عيد الشهوة • ويرى تعلق القوم جميعهم بالكتيبة في الأشهر
 الحرم فيغمره الامل في أن يأتي يوم فيه يقبل عليه الفاضلون ويدخل نور الإيمان
 في قلوبهم ويضيء جوانب حياتهم فيصبحون قوة له وسندا يستند اليهم •
 ويملاً الرجاء نفسه في هداية الغوغاء الضالين من عيد الشهوة يأتي يوم
 يأتيون به إليه فيؤمنون ويكونون ينبعوا للقوة الصادقة في الإيمان لأن الصدق

في ناحية الانحدار اذا تحول الى الصدق في اتجاه العلو يمعن في الارتفاع
حتى يصل الى الذروة *

أمعن محمد في دراسة قومه قبل النبوة وتعرف الى ما يحبون وما
يكرهون وعرف مقدار تعلقهم بالكعبة فوجد في ذلك كله مادة وفيرة يكون
منها أمة مستقرة آمنة مطمئنة لا تثبت أن ترى خطاؤها في عبادة الأصنام
فستحقها وترفع العجاه المتمرغة على التراب الى صفحة السماء الهادئة
المتأللة بالنجوم فتهدى الى ما في هذا الكون من اسرار يرتد عنها الطرف
وتقف أمامها العقول * تعلق محمد بجداران الكعبة ووقف عند الحجر
الأسود الذي اجتمعت كلمة العرب على قدسيته ورأى فيه رمز وحدة
الامة وأمسكه بيده وشعر بأنه أمسك الامة العربية كلها باليد الاخرى *
هذا هو شأن الكعبة وهذا هو شأن اليت أيام شباب محمد قبل النبوة *



توسعة المسجد الحرام

العقبة العليا للمسجد الحرام فوق أرضي



جَبَلُ النُّورِ - غَارُ حَرَاءَ
الْمَكَانُ الْأَوَّلُ الَّذِي هَبَطَ إِلَيْهِ الْوَحْيُ

ظلت الكعبة جليلة القدر في عين محمد وظل رجاؤه معلقاً بها أن تكون يوماً من الأيام قبلة الأمة الجديدة التي ستخرج على العالم بعقيدة جديدة سامية واستمر محمد يتردد عليها ويطوف بها وينظر إلى الأصنام الجائمة بقربها فيشتد حزنه على قومه فيتركها وينحدر إلى بطن مكة ثم يصعد إلى الربي والجبال حتى الف العزلة واستروح الصعود على ذروة جبل التور وهو جبل يقع شرقى مكة شامخ الذروة يشرف على الكعبة يرتد عنه الطرف أمعن ينتشر على جنباته الصخر الأحمر ويرتفع حتى يصل إلى ذراه لا تجد فيه نبتة في غار حراء مأوى العبد والعزلة لحمد ومهبط الوحي الأول لرسالة السماء • ملكتني رغبة في الإطلاع على هذا المكان الخالد وعزمت على أن أزوره نس توكلت على الله وامتنعت سيارة فارهة في جمع من الصحابة وأخذت تسير بنا السيارات في شوارع منبسطة مفروشة بالأسفلت تتعرج وتلتوي بين أبنية

مكة وقصورها حتى أفضى بنا الطريق الى فضاء واسع تربض فيه خيام
الحجاج الوفدين من ارجاء العالم وحول الخiam اكواخ الحطب والحجاج
رجالاً ونساء ينصبون القدور ويهيئون طعام النساء أو يدقون الاوتد
ويمدون الطب او يوقدون النيران وينسلون القدور والمواعين آمنين
مطمئنين في هذا الشهر الحرام الذي قدسه العرب في الجاهلية والاسلام .
وكانت الشمس قد اخذت تجتمع الى الغروب قد اعيتها التعب فأصفر وجهها
ونشرت ذوابتها على ذرى هذا الجبل الامعز وسالت على جوانبه حتى
جللتها بلون ذهبي فاقع انارت صخوره الحمراء فظهر كأنه جبل من نور
يتلألأ سناب وأخذ النهار يفكفف أطراف اذياله ويلبس ملاعة الليل ولكتني
مع ذلك كله همت ان اصعده وكدت ولم أفعل لأن امراة حجزتني عن
ذلك كانت تجلس على قدمي الجبل بين صخوره الثالثة الضخمة واحجاره
المتأتة وحولها صبة صغار وقالت حين رأته اتخطى صخوره واتوقي
نواتي « احجاره » حاجة الله يا حاج « فقلت لها سأعينك بعد نزولي من
الجبل ان شاء الله . فقالت : انك سوف لا تنزل الا وقد لف الليل هذا
الجبل بظلامه وعند ذلك لن تراني اذ أخذ صبتي الى مأواهم ونظرت
إلى ذروة الجبل تارة أخرى فارتدى طيفي وصدق النظر الخبر وأمنت
بقول العجوز المسكينة ثم رأيت انصراف الناس من حوله وكانتا كثيرين
ينظرون اليه ويستوحون روحانية المصطفى في روعة الموقف . لقد حال
زحف الظلام دون الصعود الى ذروته ولكن الخيال جنح بجناحيه ولم
يقف دونه صخر صلاد ولا جبل أمعز وشرع ينظر في مطاوي التاريخ
ويتأمل ويسأله لماذا اختار محمد هذا الجبل ليكون محل اعتكافه وكيف
كان يصعد اليه وكيف كان يعيش في غار حراء في جبل النور انه جبل
شامخ الذرى وفي شموخه معنى العزة والافتة انه وعر لا تصل اليه الا
القدم الثابتة والنفس الحامحة الصابرة لقد اختار محمد هذا الجبل الصعب
المرتفق لأن الامانة التي سيحملها كانت ثقيلة وصعبه فكان العناية الالهية
ارشدته ليترمّن ويتدرب على حمل الشدائـد واقتحام العقبات لقد اراد محمد

ان يكون في الذروة ولتكون الكعبة تحت ناظريه وليكون هذا البيت الذى جمع العرب من حوله عاصمة العرب وينبع عزهم ومصدر مجدهم اراد أن تكون الكعبة منطلق فرسانهم وقادتهم وناشري رسالة السماء في شريعة عادلة غراء .

اتخذ محمد غار حراء مثوى له يتحنث فيه شهرا في كل عام ويأتي أهله اليه في الفينة بعد الفينة يزودونه بالزاد ويطمئنون عليه ويجتمع اليه الفقراء والمساكين في وضع النهار ثم يتركونه .

لقد كانت هذه الغزالة بعث الصفاء في روحه والارهاف في عقله والنفس الصافية تستشف حجب الغيب وتتفقد الى ما وراء الافق وحسبك ان ترى ذلك في نفسك فان صفاء الذهن وراحة الفكر ي Ethan صفاء الفكر ويهياً للمرء ان يبدع ، والفكر الصافي ينبوع الحياة الجميلة والعبقرية في العالم هم اصحاب الذهن الصافي الذين جملوا الحياة في الادب والفن والعلم ولهذا اختارت السماء محمدا (ص) ليقدم للعالم هذا القرآن المجيد وهذه الشريعة الغراء .

اخذت فكرة القيادة على محمد كل طريق ولم تدعه يفلت كان فائدا موفقا في رعي الاغنام وكان فائدا موفقا في تجارته وكان أمينا سيدا في القوم وكان يرى الرؤيا الصادقة في نومه ويجد في أحلام اليقظة عز قومه ويرتفع به الخيال فيجد مرتعا خصبا لتفكيره يعنكب محمد في الغار شهرا من كل عام . يأتيه المساكين فيطعمهم ويأتيه أهله يحملون الزاد فيكرم منواهم فإذا قضى شهره من عامه نزل من جبل النور الى بطن مكة وأخذ سنته الى الكعبة فيطوف بها سبعا او ما شاء الله من ذلك وكانت خديجة الزوج الصالحة الطيبة تهيء له برد الراحة وتقتمه بحنان الزوج الصادقة المؤمنة الحبيبة .

وفي ليلة غراء من شهر رمضان بينما كان محمد غارقا في نومه هادئا مستطيبا أحلامه فجأه طائف من الرحمن فهب مذعورا وقال يحدث عن هذا الطائف السماوي : انه شخص جميل الصورة يحمل بيده صحيفه من

حرير فضمني اليه وكاد يخنقني ثم ارسلني وقال اقرأ فقلت ما اقرأ ثم
ضموني مرة اخرى وقال اقرأ فقلت ما اقرأ وقد احسست أنه يريد ان
يضموني الثالثة فقلت ما اقرأ؟ قال اقرأ باسم رب الذي خلق ، خلق الانسان
من عرق اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم .
قال النبي : فقرأت ما أملأه على الملك وقد نش في قلبي نقشا ثم تركني
وانصرف .

هذا هو العقد الالهي الاول بين السماء والارض وهذه هي الرسالة
الاولى في غار حراء وهذه أول براءة استهلال في مجد العرب وعزهم القراءة
والكتابة مفتاح الحضارة وباب المعرفة والطريق اللاحب لتكوين العقل
وتهذيب النقوص وتربيه الفرائز والتوجيه الصحيح . ان محظوظ الامية وقتل
الجهل خطوة أولى الى آفاق العلم ومعرفة اسرار الكون . وهذه أول وثيقة
كتبت في خلود الامة العربية أملالها جبريل وقبلها محمد .

جزع محمد لهذا العقد السماوي واصابه الفزع وطقق يتلفت يمنة ويسرة
في أرجاء الغار وانطلق في فضاء الله يخشى انه طاف به طائف من الجن
كما كانت تزعزع العرب ثم وقف مبهوتاً يسأل نفسه من الذي
اقرأني؟ ومن هذا الذي أحي علي حتى اجنته واخذت على
نفسى عهداً أن اقرأ ونزل محمد من جبل النور يرتعد فرقاً
ويتصبب عرقاً ففجأه صوت سماوي ينادييه يا محمد أنت رسول الله
وأنا التاموس الاكبر أنا جبريل انتي مرسل من السماء لابلغك رسالة ربك
وأحملك أمانة هذه الامة التي تتضرر اشرافه رسالتك وتؤديه أمانتك وترك
محمد الغار حيث لم يوجد فيه بعد مأوى آمناً وطفقت الزوج الصالحة خديجة
ترسل رسالها يلتمسونه فلا يوجدونه وأخذها الخوف عليه ولما هدا روع
محمد وانصرف الملك عن وجهه عاد الى أهله يرتجف ويرتعد ودخل
اليت يقول زملوني دثروني فزمته خديجة ودثرته وهي خائفة عليه أن
يكون نزل به مرض فلما اطمأن به المكان وأنس بمن حوله سأله خديجة
عما به فقص عليها ما حدث معه وهنا بدت غريزة المرأة في الاعتزاز بالزوج
وشرعت تتفحص مواطن العظمة والرجلة في محمد وهي تعرف ان كلام

المرأة اذا صحبه العجب ولطفه الحنان دخل القلب بلا استئذان ونظرت الي نظرة المعجب وقالت بكل حزم وشمم : ابشر يا ابن العم وابت فوالدي نفس خديجة بيده انى لارجو أن تكوننبي هذه الامة وكانت خديجة اكشافت فيه مجموعة فضائل الرجلة ورضيته زوجا لها واستمرت تقول : ما بالك تخشى وانت تصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدي الامانة وتحمل الكل وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق . كل هذه الصفات وجدتها خديجة في محمد وعلمت أن العظمة تظلله حيث أقام أو رحل . اطمأن محمد لهذا القول الفصل والوصف الجميل الصادق وهدأت نفسه وخرج يطوف بالکعبه يناجي ربها وينظر الى الاصنام يراها تهواى وتخر الى الاذفان وتتنظر ساعة الزوال . ورن في سمع محمد وهو يطوف بالکعبه صوت السماء : يا أيها المدبر قم فانذر وربك فكبر ونبأتك فطهر والرجز فاهجر ولا تمن تستكر ولربك فاصبر فايقن ان الذى رآه هو جبريل وان الله أمره ان يؤدى الامانة ويرفع صوته ويقول الله أكبر من هذه الاصنام ومن عبادتها والله أكبر من هذا الضلال الذى يغمر هذه الامة وان الله يأمره ان يصبر على أمر ربها ويحمل ما ألقى اليه من أعباء النبوة ولا يذهب من صبره ما يناله من الاذى فان الذى يريد أن يخلق أمة عليه أن يتلقى الاذى فعزم محمد أن يدعو القوم وان يصبر على أذاهم لانه يعرف قومه ويعرف شدة تعلقهم باصنامهم ووفائهم لعاداتهم وطقوسهم ويعلم ان افتلاع العادة السيئة من نفوس الفتنه أصعب من اقتلاع الجبل . وضع محمد هذه الصعوبة في كفة ووضع حمله الامانة في كفة فرجحت الاخرى وعزم وتوكل على الله . بيد ان حدثا قد حدث أحزن محمدا وجعله يفكك في أمره لأن ذلك الصوت الجميل والرذين البديع لم يعد يمر بسمع محمد فقلق وجزع وعاد تارة أخرى الى غار حراء يتبعد ويتحمث يقضى الليالي وال ايام وظن ان الله ودعه وكرهه ونزلت عند ذلك سورة والضحى والليل اذا سجى ما ودعك ربك وما قل .

وعاد محمد الى داره تلك الدار التي يجد فيها برد الراحة وبحبحة

البيش والزوج الصالحة الذكية فأخبرها بالوحى فآمنت به وصدق بكلمات ربه وأمن به ابن عمه علي بن أبي طالب وكان لا يزال في ميزة الصبا وقد كان محمد كفله ورباه في حجره ونشأ في مدرسته حتى أصبح سيف الاسلام وعماده وهكذا بدأت الرسالة من الكعبة وغار حراء وبيت النبوة .

وظل محمد يعبد ربه خفية ثلاط سنوات يطوف بالكعبة ويرى الاصنام ترנו اليه ويرى فيها عنوان الذلة ويتنظر اليوم المجيد التي تسقط به هذه الاحجار التي ربطت عقول صناديد العرب ودهمائهم فلا تستطيع الانطلاق في فضاء واسع وعز عليه أن يصبر فلا يجهز بالقول حتى الهمة السماء ونزلت عليه آية الكتاب المبين : « وانذر عشيرتك الاقربين واحفظ جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فإن عصوك فقل اني برئ » مما تعلمون وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك تقوم وتقبلك في الساجدين انه هو السميع العليم » . فاستبشر محمد بهذا العزم ودعا عشيرته الاقربين واخذ يحدّثهم بما وصل اليه من ربه وقال لهم فيما قال : « ان الرائد لا يكذب أهله والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتم ولو غررت الناس ما غررتكم والله الذي لا اله الا هو اني لرسول الله اليكم وما اعلم احدا جاء قومه بأفضل مما جئتكم به لقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة » .

وانقسّت عشيرته فريقين فريقاً آمن به وصدقه وفريقاً زوى وجهه عنه ونأواه فما لان ولا تراجع وخرج من دائرة عشيرته الضيقة الى دائرة قريش الواسعة ووقف أمام الكعبة على ربوة الصفا بالقرب من الصنم « اساف » صنم قريش المعبد ونادي : يا عشير قريش ! أرأيتم لو اخبرتكم ان خيلا تخرج بسفح هذا الجبل اكتمن تصدقونني ؟

قالوا نعم ما جربنا عليك كذباً قط ! قال فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . يامعشر قريش انقذوا انفسكم من النار فاني لا اغنى عنكم من الله شيئاً اني ادعوكم الى ان تشهدوا ان لا اله الا الله واني رسول الله .

كان محاماً وائقاً من نفسه فهو الامين وهو الرائد الذي لا يكذب

أهلها وهو القائد الذي يريد أن يجمع أمة على التوحيد في الله ووحدة الكلمة في المجتمع وينقذها من هذا التفرق والشتات في ظلال اصنام منحوتة من الحجر لكل قبيلة صنم ولكل جماع آله *

كان هم محمد ان يجمع كلمة العرب على مبدأ واحد لانه كان واثقا ان الوحدة هي سبيل القوة وان القوة هي التي تحفظ الدعوة وان الدعوة انقاذ للإنسانية من الفلم والاستعلاء والاستغلال انه كان يريد من القوم ان يكونوا اخوة في ظلال التوحيد اخوة في ظلال القرآن دستور الامة الإسلامية *

ولم يكتفى محمد بدعوة قريش وحدها بل شرع يقف على منازل القبائل ويقول : يا بني فلان ! ابني رسول الله اليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وان تخليعوا ما تعبدون من دونه ، من هذه الانداد وان تؤمنوا بي وتصدقوا بي وتمعنوني حتى ابين عن الله ما بعثني به *

وكان قريش تجد في هذه الدعوة تحدياً لعقيدتها فوقت ضده ومنعه وأذته وتحمل من الاذى ما لا يتحمله الا نبي مرسى يريد ان ينقل قومه من الفلال الى الهدى *

وكان أكبر شيء على محمد ان يرى هذه الاحجار المنصوبة تناوح على الصفا والمروة وبين يدي الكعبة ويرى صناديد قريش وفصحاءها وشعراءها يخررون لها للادفان سجداً وكان يحزنه ان يرى في هذه الجماعة من قومه معدن الرجلة والعبقرية يصدأ يوماً بعد يوم ولا يوجد صائخ يصوغه * ان أصعب شيء على العبراني ان يعلم ويهذب ولا يوجد لتعليميه اذنا صاغية ولا قلبَا واعياً * وكان أصعب شيء على محمد ان يرى اتباعه ينال منهم القوم مالا يناله العدو من عدوه ولكنه صبر واحتمل واوذى في دعوته واستمر فظفر * كان محمد يرى النصر بين عينيه ولذلك لم يتسرّب اليأس الى قلبه وكان ينتظر في هذه المجموعة المثقفة من رجال قريش املا قويماً في الاستجابة الى دعوته ويجد فيهم العون الصادق اذا دخل الایمان في قلوبهم *

ما استطاعت قريش ان تستفزه أو تغضبه وكان جل ما يجب به الاذى
قوله اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون ٠

وهجر محمد مكة كما اسلفنا وذهب الى المدينة الى الاوس والخزرج
الى الانصار ولحق به جمع من الصحابة واشتاد الاسلام وقويت شوكته
ولكن محمداً كان لا يزال ينظر الى الكعبة ا أنها منبع النور وانها مصدر
الاسلام وانها قبلة التي تتجه اليها قلوب المؤمنين ويعز عليه ان يترك الاصنام
جائمه حولها ٠ ورأت قريش ان محمداً يزداد قوة بعد قوة واخذت تناوله
وفي السنة الثانية وقعت واقعة بدر الحاسمة وفي السنة الثالثة ثارت قريش
لنفسها في غزوة أحد وفي السنة السادسة خرج محمد معتمراً غير محارب
فوقفت قريش بشبابها وشيخها عند الحديبية على بعد عشرين كيلو متراً
من مكة تمنع محمداً من رؤية الكعبة التي أحبها ووجد فيها رمز وحدة
الامة وحلفت يميناً « لا يدخل علينا عنوة ابداً ولا تتحدى بذلك عنا العرب » ٠

وقف محمد ينظر الى عناid قريش بعين والى تدفق قوة المسلمين بعين
آخرى ثم أخذ يتأمل وكلما أمعن في الامر وجد ان الخسران سيكون في
مادة العرب وان الصناديد من الطرفين سيجدلون في ساحة الوجى فاعرض
عن ذلك ووجد في المصالحة خير مخرج لعناد قريش وغير مكسب للمسلمين
حيث اعترفت قريش بشوكة الاسلام وكثرة العدد وقوة العدة واتسع المجال
للمسلمين لنشر الدعوة في هذا الاجل الطويل الذى أمده عشر سنوات
يكفى الفريقيان فيها عن القتال وان تخرج قريش من مكة في العام المقبل
لضمان زيارة الكعبة والمكوث حولها ثلاثة أيام دون سيف ومزراق وقتل
ودم مهراق ٠

— 207 —

مَشْرِقُ الدَّعَةِ

وفي العام السابع عاد النبي ومعه ألفاً معتمر دون أن يحول بينه وبين الكعبة حائل فدخل مكة وطاف حول الكعبة ودخل في دين الله اثنان من صناديق قريش هما خالد بن الوليد وعمرو بن العاص . وفي السنة الثامنة نقضت قريش العهد فاستعدّ الرسول لفتح مكة والطواف حول الكعبة قبلته وموطن رجائه وأكمل العدد واعد العدة وتوكل على الله وقال : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها . واوصي النبي القواد والجيش ان لا يقاتلوا الا من يقاتلهم ولا يجهزوا على جريح ولا يقتلوا اسيراً ولا يتبعوا مدبراً .

وسار جيش المسلمين وجزعت قريش ولكن محمداً لا يريد قتالاً لأنّه يعلم أن الخسران من الجهتين خسران لقوة العرب . واعلن على الملأ من دخل البيت كان آمناً ومن دخل دار أبي سفيان وكانت بابي مكة فهو آمن ومن دخل دار حكيم وكانت بباب مكة فهو آمن وأغلق الناس أبوابهم

والقوا السلاح .

ومضى موكب النبي الى الكعبة واستلم الحجر وطاف ووقف في جمع من قريش وقال فيما قال « لا اَللّٰهُ الاَللّٰهُ وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده » ۰ ۰ يا معاشر قريش ان الله اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالاباء الناس من آدم وآدم خلق من تراب وفرا الآية « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » ۰

ومشي النبي الى صنم جاثم بجانب الكعبة فجعل يطعن في عينه ويقول جاء الحق وزهرق الباطل ان الباطل كان زهوقاً » ۰

وتسابق المسلمين الى الاصنام فجاءوا بها الارض كسراء وتحطيمها ودفع النبي مفاتيح الكعبة الى سدتها قبل الفتح وقال : « خذوها يا بني عبد الدار خالدة الى يوم القيمة لا ينزعها منكم الا ظالم » ۰

احتضن محمد الكعبة عند الملتم ونظر الى الاصنام تنهوى والى كلمة الله تعلو والى وحدة الامة تماسك والى نخوة الجاهلية في العصبية والتفرقة تلوذ فراراً وببدأت قلوب القوم تفتح الى تشرع جديد وبناء مجتمع فاضل في ظل عدالة واخاء ومكث محمد في ظلال الكعبة اسابيع ثم استعمل على مكة عتاب بن اسید واوصاه باهلها خيراً وقال له :

« أتدری على من ولیتك يا عتاب؟ ۰ ۰ على جیران بيت الله فاستوص بهم خيراً » ۰ اطمأن الناس لهذا الفتح المبين ونزلت السكينة على قلوب المؤمنين وعم الامن في ارجاء البلاد ووفد المهاجرين والانصار من المدينة والتحقت بهم قبائل العرب تحت امرة ابي بكر اول امير للحج واندسلمون يطوفون حول الكعبة ۰ وكان أبو بكر بين لهم مناسكهم والشركون يؤدون مناسكهم على حسب ما ورثوه من تقاليدهم وعاداتهم وبينما هم على هذه الحال وافاهم علي بن ابي طالب يحمل رسالة النبي اليهم ويعلن نزول سورة براءة ويقول : « لا يصح بعد هذا العام مشرك

ولا يطوف باليت عريان ° وانه لا عهد لشرك ولا ذمة لاحد الا من كان
له عند رسول الله عهد وعهده الى منته وان الله امر بجهاد الشرك من
نقض من اهل العهد الخاص ومن كان لا عهد له فاجله اربعة اشهر يرجع
فيها كل قوم الى مأنهم ثم لا عهد لشرك بعدها °

طابت نفس محمد بالفتح المبين وارتاح الى جمع كلمة العرب وايقن
انه سيعدهم لخلق مجتمع فاضل ولنشر عقيدة السماء في ارجاء العالم وازدادت
نفسه طيماً أن طهر الكعبة من الشرك ونقلها الى عالم يشع بالنور ويضيِّ
الكون °

الأطوار التي مرت بها الكعبة

نداعت الأصنام من حول الكعبة وولت وتنية الشرك واستعلت الفكرة
الإسلامية وصفا الفكر العربي وبدأت للعرب حياة جديدة في فنون السياسة
والحرب والتشريع وكان ابرز ما في التشريع توخي العدالة والمساواة
ومجازاة الطبيعة والفطرة التي فطر الله الناس عليها وأجل ما ولده الدين
الإسلامي في فتیان العرب وكهولهم وأوحاه الى شيوخهم الرجال والمرؤوة
أو كما يسمیها الناس به الفروسيّة وكانت الكعبة قبلة الجميع يتوجهون اليها
ويدعون ربهم بالغداة والعشي يریدون وجهه وفي هذه الفكرة كفاية في
تربيّة النفس وترويض الغرائز لفعل الخير وتجنب الشر وتقارب النفوس
وتوحيد الهدف . لقد كانت الميل موّزعة بين اساف ونائلة واللات والعزى
وغيرها من أصنام قريش فصارت الى آله واحد لا شريك له رب البيت
ورب هذه البناء التي صارت رمز الوحدة ورمز القوة . وظللت الكعبة
قوية البناء صامدة الاساس على عهدها الاول منذ وضع الامين الحجر

الاسود في محله مع قبائل قريش حين كان من عمره في الخامسة والعشرين .
 وتوفي النبي (ص) ولم تزل كما كانت واستمرت الحال بها في عهد
 الخلفاء الراشدين حتى حاصرت عساكر دمشق عبدالله بن الزبير عام أربع
 وستين فأخذ رجل من أصحابه نارا في لفحة على رأس رمح وكانت الريح
 عاصفة فطارت شرارة فتعلق باستار الكعبة فاحرقها وتصدت حيطانها
 واسودت وتناثرت احجارها فلما انصرف السكر عن حصارها شاور عبدالله
 بن الزبير اصحابه في هدمها وبنائها فاختلف الرأي بينهم فقال ابن الزبير
 قد بلغني أن رسول الله (ص) قال لو كانت بنا سعة لبنيه على أنس
 ابراهيم ولجعلت له بابين شرقاً وغرباً واستقر رأى ابن الزبير على هدمها
 فلما هدمت قال الناس كيف نصل إلى قبلة وأمر ابن الزبير بموضعها فستر
 ووضع الحجر في تابوت في خرقه من الحرير ووصفه عكرمة قال رأيته
 فإذا هو ذراع أو يزيد وكان جوفه أبيض مثل الفضة وجعل حلى الكعبة
 عند الحجاب في خزانة الكعبة . فلما أراد بناؤها حفر من قبل الحطيم حتى
 استخرج أنس ابراهيم وبني عليه وجعل لها بابين ملصوقين بالارض شرقاً
 وغرباً يدخل من واحد ويخرج من الآخر وجعل على بابها صفالح الذهب
 وجعل مفاتيحها من ذهب وبقيت الكعبة في أيام ابن الزبير على حالها إلى
 أن دخل الحجاج مكة فهدمها وبنتها بأمر عبد الملك بن مروان واخرج
 الحجر منها وأعادها إلى بناء قريش ويدرك المؤرخون أن المهدى هم أن
 يعيدا إلى مثل بناء ابن الزبير فاستشار الإمام مالكا بذلك فقال مالك : أني
 أكره أن يتخذها الملوك لعبه : هذا يرى رأى ابن الزبير وهذا يرى رأى
 عبد الملك بن مروان فيتناولونها بالنقض والبناء فاحجم المهدى ولم يفعل .

وأول من كساها سعد اليماني ثم كساها النبي (ص) بالثياب اليمانية
 ثم كساها عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان بكتان رقيق يعمل بمصر يسمى
 القباطى من بيت المال وكساها عبدالله بن الزبير بالديباج ويعزى ذلك إلى
 عبد الملك بن مروان وكساها المأمون ثلاث كسى في العام فتكسى القباطى
 في رجب وتكسى الديباج الأبيض يوم سبعة وعشرين من رمضان وتكسى

الاحمر يوم التروية وهو اليوم الثامن ذي الحجة وكان الخلفاء العباسيون يتبارون في كساء الكعبة اما الفاطميون فكانوا يكسونها البياض . ولما آل الامر الى العباسين بسوها الديباج الاسود .

وأئم ما حدث للكعبة بعد الاسلام زحف القرامطة على الكعبة وهم جماعة دوخت الدولة العباسية اواسط ايامها فقد ثارت هذه الجماعة ضد الحكم العباسي بغية القضاء عليه وزحفت جيوشهم على مكة ودخلتها في اليوم السابع من ذي الحجة من عام ٣١٧هـ ودخلوا المسجد الحرام ووضعوا السيف في الطائفين والعاكفين والركع السجود حتى قتلوا على ما يرويه المؤرخون ما يزيد على ثلاثة الفا ونهبت جيوشهم اموال الحجاج وبيوت اهل مكة حتى أصبح أهلها يستطعون الناس وفي اليوم الرابع عشر من ذي الحجة قلعوا الحجر الاسود من مكانه وحملوه الى هجر وبقي موضعه حاليا يضع الناس ايديهم فيه للتبرك نحو من اثنين وعشرين سنة ثم اعادوه الى محله .

ظللت الكعبة حرماً آمناً في الجاهلية وصدر الاسلام لا يقتل فيها صيد ولا ينال أحد من آخر نيلا طوال الاشهر الحرم وظللت رمزاً للسلام يهد العرب اليها من كل مكان يتناشدون الاشعار يتفاخرون ويتكاثرون ويبיעون ويشترون ويعقدون الاسواق حتى دخلت أقوام في دين الله تكمن في نفوسها عادات وتقاليد ليست من عادات العرب ولا تقاليدتهم . فاستهزموا بالقيم الانسانية وصارت مبادئ الدين العوية في أيديهم يفعلون بها ما يشاءون حرروا القرآن عن مواضعه واتخذوه ورаемهم ظهرياً وصاروا حريراً على الاسلام والعرب وبذلك بدأ الفتنة في الشرق العربي ولم يترك هؤلاء فرصة للنيل من العرب والاسلام الا افترضوها . وما رأى الشرق العربي حكمـا عادلا ولا رأى راحة واستقرارا الا على ايدي العرب ذلك لأن هذا العنصر في طبعه وتقاليدـه حفظ الجوار وجاء الدين الاسلامي فتم في العرب مكارم الاخلاق وأحسن ما في طباعهم انهم لا يعرفون التفرقة العنصرية الذي تقره عادات الامم الاخرى في جنوبـي افريقيـا أو اليـض مع زنوج

أمريكا ويكتفي العربي أن يكون أخاً المسلم اذا سمعه يقول لا إله إلا الله
محمد رسول الله .

اعتدى القرامطة على الكعبة واقتلعوا الحجر الاسود ظناً منهم انهم
يصرفون الناس عن بيت الله الحرام فخاب فألهم وظلت الكعبة قبلة العرب
والاسلام في مشارق الارض ومغاربها وسيظل القرآن يرن في ما ذكرها يسمع
العالم صوت الحرية والاخاء والمساواة والعدل وسيظل ايضاً مصدراً للتشريع
ونوراً يهتدي به الصالون في بداء الجهالة الجهلاء .

وكان آخر بناء للكعبة ما حدث أيام السلطان مراد عام ١٠١٩ من
الهجرة حيث تشقق الجدار الشامي ففك بعده واعادة بنائه فلم يوافق
العلماء على رأيه واقرteroوا ان تحزن الكعبة بحزام نحاسي قوي يشد
جدارها فوافق على رأيهم وغلف الحزام بالذهب الخالص وبلغت ثقافته
نحواً من ثمانين الف دينار وقد اراد هذا السلطان ان يعيد بناء الكعبة
بحجارة موشاة بالذهب فمنعه شيخ الاسلام وفي اليوم التاسع عشر من
شعبان من عام ١٠٣٩ من الهجرة امطرت السماء مطراً غزيراً فسالت
الوديان والبطاح وطفت على المسجد ففاض به وبلغ السيل باب الكعبة
فامتلأت فانهار جدارها الشامي والشرقي وتلتها الجدار الغربي فعقد أمير مكة
في اليوم الثاني والعشرين من الشهر مجلساً واستفتى علماء مكة فأفتوا بنائهما
من اموالها المحفوظة بعد هدم ما تقضيه الحاجة من بنائهما وان يكتب الى
ال الخليفة بطلب المساعدة وفي اليوم السادس عشر من ربيع الثاني من عام
١٠٤٠ من الهجرة حضر مندوب السلطان ليشرف على البناء ورسست سفينة
تحمل المواد والاخشاب وقطع الحجارون للكعبة احجاراً من جبل معروف
في الشيشكية سمي جبل الكعبة وقد قامت معارضه شديدة وطلبوها ان يكتفى
المهندسون بالترميم وقد تم هدم ما كان ضرورياً واستمر البناء الى نهاية
شعبان من عام ١٠٤٠ من الهجرة وفي غرة رمضان البسو الكعبة كسوتها
واحتفلوا بتمام البناء ووزعت الخلخ والهدايا وقد حدث اثناء عملهم فيما
يحيط بالحجر الاسود ان انفلق الى اربع قطع فهالهم ذلك فجمعوا القطع

وحاولوا ضمها بمعجون مركب ضمخوه بالعنبر فتماسك الى امد طويل
ثم تفكك وعالجه مرة آخرى بمعجون آخر فلم يلبث طويلا حتى تفكك
وعولج مرة اخرى بمعجون آخر فتماسك واستمر تماسكه . واستمر بناء
الکعبه قائما الى اليوم .

ما كانت الكعبه محتاجة الى زخرفة الخلفاء والسلطانين وما كانت
محتاجة ان يختلف في احجارها المختلفون ولا كانت الكعبه تأمل ان تدوس
خيل القرامطة فناعها وبهتك حرمها وتسفك الدماء على اقدامها . انها
محتاجة الى خلال الخلق الكريم الى الوفاء بالعهد الى الاحترام والاجلال
اما كانت تتمتع به في خلال عبدالمطلب بن هاشم والى التيه والاكار
الذين كانت تجدهما في رحاب محمد بن عبدالله (ص) انها اليوم حرم
آمن تتمتع بأمن واستقرار وحرمة واجلال من جميع العرب والمسلمين اللهم
ان هذا بيتك فاحفظه واحمه واجعله مكانا طيبا لنور الاسلام يشع فيه .

المسجدُ الحرام

سترتفع اركان المسجد عاليه وستنماوح المنائر وسوف يحيط بالمسجد
ميادين رحمة تمر بها شوارع واسعة وستنبت اشجار الزينة على حفافتها
وسيفرح المؤمنون بهذا المظهر الاسلامي الرائع ويسبدون شكر الله وحمدا
على آلامه ٠ انه مظهر عمراني جميل ومعبد المسلمين يعبدون فيه رب هذا
البيت ومع هذا المظهر الاسلامي الرائع يجتمع الخيال الى الحقب الماضية
فيمر باسوق مكة التي كانت تعج بالشعراء يتاشدون الاشعار ويعلقون
روائع قصائدهم في اركان الكعبة اعتزازا بها وايمانا بتفوق العقل ويعرج
على دار ندوة فريش التي وضع اركانها قصي سيد فريش وموئل مجدتها
في الجاهلية لتكون دار مشورتهم والفصل في احكامهم ويرى عناصر
حضارة ومدنية مظهرها هذه اللغة الجزلة ذات المعانى الواسعة التي جاءت
بالمعلقات والقصائد الطوال في اشعار الجاهلية ثم يسير الخيال معتزا حتى
 يصل الى مشرق النبوة الاسلامية ويسمع الى الوحي ينزل على بطاح مكة

وشعابها كسلسلة الجرس تحف به اجنحة الملائكة يقدمهم جبريل ويجمع
 هذا الوحي المنزل في قرآن عربي مبين فيه نور يهدى من ضل سوء السبيل
 وفيه حكمه تهذب العقل وتنظيم يكون المجتمع ويلم شمل الاسرة ويكون
 دولة تعرف الحدود والحقوق تحمى الحمى وتحفظ الاموال وتصون
 الانفس وفي حديث مبين على لسان نبي في خلق كريم كل ذلك كون
 مدرسة عالية تبني الشخصية وتصنع الرجلة تلك هي مدرسة محمد فيها
 تخرج فريق كبير في الفقه والحديث والادب والعقل الراجح الذي يضع
 المقدمات ويستطيع النتائج ويقرر الفصل في الاحكام ويفرق بين الرشد
 والغى وقد برزت عقلية هذه المدرسة بعد وفاة رسول الله (ص) وتكونت
 جامعة ليس لها جدران اربعة انما كان حرمها في حرم بيت الله وبطاح مكة
 وفضاء المدينة وأخذت هذه الجامعة تلم أطرافها وتعمل الرأي في شؤون
 الحياة حتى خرجت مكتملة تهدف الى وضع قواعد التشريع ونظام المجتمع
 الفاضل وكانت وسليتها في ذلك القرآن والحديث وتساج الصحابة من
 الرعيل الاول ولذلك عرفت بمدرسة الحديث او مذهب اهل الحجاز
 ويقولون عنهم انهم كانوا اعرف الناس بحديث رسول الله وخبرهم بفعله
 وتوضيحه لكتاب الله . وهكذا حمل الحجاز لواء الحديث وصار ملكرة والمدينة
 دالة على المسلمين في ارجاء العالم .

خرجت مكة من فقهاء الصحابة عمر بن الخطاب وعلى ابن ابي طالب
 وغيرهما وحسبك ان تجد التشريع الفقهي واضحا في رسالة عمر في القضايا
 واستمع اليه يقول فيها لابي موسى الاشعري : آس بين الناس في وجهك
 وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا يتأمن ضعيف من
 عدلك اليئنة على من ادعى واليمين على من انكر والصلح جائز بين المسلمين
 الا صلحًا أهل حراما او حرم حلالا ، لا يمنعك قضاة قضيته اليوم فراجعت
 فيه عقلك وهديت فيه لرشدك ان ترجع الى الحق فان الحق قديم ومراجعة
 الحق خير من التمادي في الباطل .

ثم استمع الى التشريع السياسي المكتمل في رسالة على بن ابي طالب

التي وجهها للاشتر النخعي لما وله مصر وهي أجمع الرسائل لضروب
السياسة التي تدبر الامة واوسعها في تحديد الصلات بين الراعي والرعية .
قال : ثم أعلم يا مالك اني قد وجهتك الى بلاد قد جرت عليها دول قبلك
من عدل وجور وان الناس ينظرون من أمرورك مثل ما كنت تنظر فيه من
أمور لولاة قبلك ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم ٠٠ ايها ومسامة الله في
عذمه والتشبه به في جبروته فان الله يذل كل جبار ويهين كل مختال
ول يكن أحـبـ الـأـمـوـرـ إـلـيـكـ أـوـسـطـهـاـ فـيـ الـحـقـ وـأـعـمـهـاـ فـيـ الـعـدـلـ وـأـجـمـعـهـاـ لـرـضاـ
الـرـعـيـةـ فـانـ سـخـطـ الـعـامـةـ يـجـفـ بـرـضاـ الـخـاصـةـ وـإـنـ سـخـطـ الـخـاصـةـ يـغـفـرـ
مع رضا العامة .

ان شر وزرائك من كان للاشرار قبلك وزيرا ومن شركهم في الآلام
فلا يكون لك بطاقة فانهم اعون الانمة واخوان الظلمة وانت واحد منهم
خير الخلف من له مثل آرائهم ونفاذهم وليس عليه مثل آثارهم وأوزارهم
من لم يعاون ظالما على ظلمه ولا آثما على ائمه ٠٠ ثم انظر في امور
عمالك فاستعملهم اختيارا ولا تولهم محاباة واثرة فانهم جماع من شعب
الجور والخيانة وتوجه منهم أهل التجربة والحياة من أهل البيوتات الصالحة
والقدم في الاسلام المتقدمة فانهم أكرم اخلاقا وأصبح اعراضا ول يكن نظرك
في اعمار الارض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج لأن ذلك لا يدرك
الا بالعمارة ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم
يستقم أمره الا قليلا ٠٠ واياك والاعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها
وحب الاطراء فان ذلك من اونق فرص الشيطان في نفسه ليتحقق ما يكون
من احسان المحسنين ٠٠ واياك والتجله بالامور قبل اوانها او التسقط فيها
عند امكانها او اللجاجة فيها اذا تذكرت او الوهن عنها اذا استوضحت فضع
كل امر موضعه وأوقع كل امر موقعه .

بهذه القواعد الاصيلة في سياسة الدولة وفي هذا الفقه السياسي
المكتمل وجـهـ عـلـيـ بـنـ اـبـيـ طـالـبـ وـلـاـ اـمـورـهـ فـيـ اـرـجـاءـ الـبـلـادـ ٠ـ لمـ يـتـرـجـ
عليـ فيـ جـامـعـةـ بلـ تـرـجـ فيـ مـسـجـدـ بـيـنـ يـدـيـ رـسـوـلـ اللهـ (صـ)ـ يـسـتـمـعـ إـلـيـ
وـحـيـ السـمـاءـ وـقـوـلـ النـبـيـ وـفـعـلـهـ فـاصـبـ نـفـحةـ تـفـيـضـ بـالـقـوـةـ وـالـرـوـحـ السـامـيةـ

والإيمان بالله والثقة بالنفس *

وخرجت مكة والمدينة رجلات التشريع والسياسة وقاده الحروب في
مستهل حياتها وشهدت عهدين عظيمين عهد قصي بن كلاب سيد قريش في
الجاهلية وعهد محمد بن عبد الله في الاسلام *

وها هي ذه مكة تشهد بيت الله الحرام ترتفع قواعده وتسع رحابه
ونعلو منائره في عصر تكتظ فيه معاهد العلم بالبحث والدرس ووضع قواعد
التشريع واكتشاف قوانين الطبيعة للتحكم في اسرارها *

فلم لا تكون مكة منبع التشريع الاسلامي ومصدر تاريخ العرب ؟
ولم لا تقام فيها اندية البحوث في الفلسفة والاجتماع واسواق الادب واسواق
البضائع في الاشهر الحرم ؟ ولم لا تعود مواطن المفاخرة والتکان والتنافس
لتعيد عهد عباءة العرب في الادب والتشريع والسياسة وال الحرب ؟ لقد
انجبت ابطال ميادين الحروب ورجال السياسة وأئمة التشريع وان في معدن
العنصر العربي في هذه الجزيرة الخالدة اصالة وفي هذه الاصالة استعداد
للنبوغ *

ان مكة تتضرر ان تكون بها جامعة ينحدر اليها العلماء من ارجاء العالم
الاسلامي لتكون مصدر القوة في تكوين المجتمع الاسلامي تقوده الى حيث
المجد المؤمل * انها مهبط الوحي ومهبط الالهام * ان جامعة ترسي قواعدها
بجانب قواعد البيت وتكون لها فروع في المدينة جديرة ان تأخذ بيد العالم
الاسلامي وتنقذه من وعدها الضعف التي ينوء بها كاهله *

ان على المسلمين في ارجاء العالم ان يقفوا على هذه الجامعة ان
تأسست من نروائهم ما يكفي أن يأتيها الاساندة من ارجاء الدنيا وان يشيدوا
المكتبات الضخمة التي تجمع تراث العرب والاسلام وتجمع الى ذلك تناظر الامم
وان تفتح مجال البحث العلمي على مصراعيه فان هذه الارض ارض
العمرية انتجت في حرها الشديد وبردها الهادي رجالا عرفوا كيف
يخزمون انف الدهر وكيف يعلمون الامم وكيف يضيفون الى حضارات
الامم قواعد العدل والحرية والاخاء *

لقد كانوا يعرفون الدين في غير ضعف والشدة في غير عنف ويعرفون
كيف يعلو الحق ويظهر وكيف يسفل الباطل ويزهق . لقد علموا الدنيا
الوفاء بالعهد والرجوع الى الوعد في حضارتهم الجاهلية في الاشهر الحرم
وفي عقودهم التي تعقدوها استثنى . وعلموا الدنيا في حضارتهم الاسلامية
وفاء العهد وصدق الوعود وحسبك بهذا دلالة على حضارتنا السامية .

ان جامعة تبني في مكة وتقوم قواعدها على قواعد تراثنا العربي
الاسلامي سوف يؤسس بنيانها على التقوى وسيرتفع عمود نورها الى الفضاء
لينير العالم الاسلامي والعربي وتحرسه من الافكار الواردة والمستوردة
وستتمد قوتها من جبل النور من غار حراء الذي اضاء العالم وان مختبرا
يؤسس او مكتبة تجمع مصادر العقل في مكة او المدينة سيكون شأنها غير
شأن المكتبات والمخابر انها ستكون شريعة ارتواه كثیر زمزم في مائه
قدسية طاهرة حفظتها يد الاله في الحقب الطوال .

غَيْلُ الْكُعبَةِ

وفي مساء اليوم السادس من شهر ذى الحجة لعام ١٣٨٣ عدت الى الفندق من صلاة المغرب في بيت الله الحرام فوجدت بطاقة مطبوعة بالجبر الاخضر تحمل شعار الدولة وتبين بالدعوة لحضور غسل الكعبة وتشير بالسماح لمن يحملها ان يشهد ويشارك في غسل الكعبة في الساعات الاولى من ضحوة اليوم السابع من الشهر فسررت بها لان فيها فرصة قلما تجود بها الايام ارى فيها الكعبة من داخلها واشترك مع غيري من حجاج بيت الله في غسلها وتوكلت على الله ومشيت مع جماعة من حجاج العراق فلما دخلنا المسجد الحرام لم اجد تغيرا في المظهر الا عددا من الجنود يقومون على النظام والحفاظ على بقعة صغيرة مستديرة مدتها سبعة فلخرة في ظلال بناء الحرم الجديد الشامخ وكان الوقت في ضحوة جميلة ونسيم الهواء العليل يسبغ على المشهد روعة البهاء والجلال فاصعدنا مقاعدنا وشرع كبار الحجاج من البلاد العربية والاسلامية يتواذدون ويتنظمون جلوسا يحيى

بعضهم بعضا والناس يطوفون افواجا وجماعات حول الكعبة منهم من يمشي
الهولينا ومنهم من يمشي الخب لا تسمع الا حمدا وثناء وصلوة وتسلیما
وترى حملة الكراسي يتراکضون ويتدافعون والعرق يتتصبب من وجوبهم
ومن اكتافهم العارية والعجزة المعدون والضعفاء صامتون وصامدون في
كراسيهم .

لم نكن محربين ولا مكشوفى الرؤوس وكان في اختلاف الملابس
والوانها دلالة على الام التي يمثلها الجالسون الذين اجتمعوا في هذه
الحلقة الصغيرة من امم مختلفة ومن القارات من وراء البحار والقافي
والفار قطعواها برا وجوا وبحرا ليشهدوا منافع لهم ويدركوا اسم الله في
أيام معلومات .

وكنت انوسم وجوه القوم واسأل عنهم واحدا بعد واحد فأجد فيهم
السفير والوزير وذا المقام والسلطة في قومه وذا التراث والعلم فأقول في
نفسى لقد جمع التوحيد هذه الاقوام المختلفة وجعل لهم وجهة واحدة
يولون وجوههم شطرها ولو اتفقا ووضعوا يدا يد لاملاوا على التاريخ
مكارم الاخلاق ومكارم الشرائع ولوهبا الدنيا مثل العليا ولكان كرامة
بني آدم في محل الارفع في مجتمع البشر ولم يضطر الاقوام الى هذا الصراع
العنيف ولكن لنا نحن ابناء محمد مكانة المعلم والمرشد .

لبثنا نتجاذب اطراف الحديث في شؤون الامم الاسلامية برها من
الزمن ثم نهض القوم ايذانا بقدوم نائب الملك ورأيت عن بعد سلما يقترب
من باب الكعبة الذى يعلو نحوا من مترين عن الارض وانفتح باب الكعبة
ودخل نائب الملك وتبعه حاشيته ثم تلا ذلك دخول المدعون وازدحم السلم
وتدافع القوم في موجات عنيفة وكدت ارجع لولا موجة قوية دفعتي الى
صعود السلم ورأيت نفسى بعد عناء في وسط الكعبة مع الناس وفضل
احدهم فناولنى مكنسة طويلة فاشتركت في هذا العمل الرمزي الجليل الذى
تواضع امامه النفوس فيشترك الامير والوزير والسفير والشرى والقفير في
خدمة بيت الله الذى تتجه اليه قلوب المسلمين في ارجاء الارض واستطاعت

ان ادفع قليلا من الماء الذى غمر قاعها ثم رأيت الناس يتدافعون حول شخص يغمس مناديلهم في ماء تفوح منه رائحة طيبة ويناولهم زجاجات منه ثم توجهت الى جدار الكعبة الشرقي فصليت شكر الله على نعماته وانتهت امام كل جدار من جدرانها ركعتين ونزلت من السلم ووقفت أمام الملتزم وهو مسافة قصيرة يحتضنها الحجاج ويدعون ربهم كما كان يفعل رسول الله (ص) فاحتضنته ثم تأخرت خطوة الى الوراء لافسح لغيري ان يفعل فسمعت شخصا يدعى بداعي يقرؤه من كتاب يحمله بيده استطاعت ان التقط منه كلمات هي : « اللهم اني اسألك ان ترفع ذكري وتضع وزري وتصلح امري وتطهر قلبي » .

فقلت في نفسي ان واحدة منها تكفي ان تأتي ثلاثة فإذا طهر الله قلب المرء فقد اهتدى ومن اهتدى وجد الطريق ومن وجد الطريق صلح أمره ووضع وزره وارتفع ذكره واني لا أريد أكثر من ذلك فقلت: اللهم اني اسألك ان تطهر قلبي . والتفت الى الحجر الاسود فوجدت فرصة مواينة الى لمسه فلمسته ولم استطع تقبيله ويندر من يستطيع لمسه في هذا الازدحام الشخص فكيف بتقبيله .

ما رأيت اروع من هذا المنظر في تدافع ذوى السلطان والجاه والرءاء في صعود السلم الى الكعبة فقد رأيتهم يتدافعون في عنف قد انبعث به كل فارقة من الفوارق بينهم تذكرت حين رأيتهم في هذا الزحام فكرة واحد فلاسفة الغرب حين يقول : (في كل رجل يكمن طفل) ويظهر هذا الطفل عند الحاجة اليه .

ولقد رأيت في هذا الموقف اطفالا تدفعون ونفوسا حريصة ان تكون كل نفس هي الغالية . لقد رأيت في هذا الموقف كيف تفعل الغرائز اذا استطاعت ان تتغلب على العقل ولو وقف هؤلاء المتفقون صفا واحدا كما علمهم محمد (ص) الوقوف في صفوف الصلاة لوصولوا الى الكعبة بكل هدوء واتظام ولادوا الواجب على احسن ما يرام ولو اتقنا الصبر الذي علمهم محمد في الصيام لصبروا قليلا ولو استعدوا للتضحية كما تعلموها

في بذل الزكاة والصدقات والنفوس في مرضاة الله لتأخر كل واحد عن صاحبه قيد خطوة ولمنشى الاننان في هدوء صعودا ونزولا ولو انقنا المناسك وعلموا انه لا رفت ولا فسوق ولا جدال في الحج لما قدر واحد منهم ان يؤذى أحدا .

ولكن طالت الآماد بين فجر الاسلام وهذا الليل الحالك الطويل الذي وفدت فيه تصوصية الافكار تسرب الى القلوب اسراب الجرذان المخربة في الحقل الزاهي .

واخذ طفل الجاهلية الاولى الكامن في جوانح الاقوام المختلفة يظهر غضبه ودلالة .

ان الفرق بين المتفق والجاهل والضعف والقوى وذى الجاه وحاملي الذكر يظهر في تصرف المرء في شؤون الحياة .

وحسن التصرف موهبة تهبها الطبيعة لبني آدم ولا تظهر الا في اشتداد الازمات وتعقد الامور . ان القوة قد تخون صاحبها اذا كان الاقدام تهورا والكرم ينقلب الى اسراف اذا كان في غير محله والحكم ينقلب جورا اذا تجاوز حدود العدل . وهكذا رأيتني انظر الى المجتمع الاسلامي والمسلم اطراف التاريخ واستعرض الحوادث فاقول في نفسي ما لهؤلاء القوم يشتد بهم الحرص في انانية مطلقة لا حدود لها . أما أمات فيهم محمد (ص) شهوة الائرة وابدلها بالايثار وصير المؤمنين أخوة في دين الله ؟ لقد لقد كانت الغاية المثلث من رسالة محمد - مكارم الاخلاق - اما بعثت لاتنم مكارم الاخلاق . ومكارم الاخلاق هي خرم انوف الغرائز الجامحة وتسليم زمامها بيد العقل ، ومتى تحكم العقل مشت امور المجتمع على صراط مستقيم فتبصر العين وتسمع الاذن ويعي القلب وتتنظم الامور وتعتدل الموازين ويعرف المرء مكانته في المجتمع ، وفي فكرة الطواف حول الكعبة في ثياب موحدة ورؤوس مكشوفة واتجاه واحد رجوع الى منشأ الانسان ليتبين نفسه ويعرف ربها ويعرف بحق اخيه ويحب لغيره ما يحب لنفسه . أوحت الى هذه المشاهد كلها فكرة الاسلام في الاخاء الانساني وفي معنى

الحرية التي تحترم حرية الغير في الحرية المطلقة التي تقييد صاحبها في احترام حرية أخيه ولكنني لم أشهد هذه المعانى انى شهدت رغبة صادقة في عين كل شخص في ان يتحقق ذلك ولكنه عاجز في نفسه عن الوصول اليها لأن الرباط مفقود ولو ترابع نفوس المسلمين في العروة الوثقى التي لا انفصام لها عروة الاسلام الذى يضلل مبادئه محمد (ص) لوجدت هذه المواكب تهادى وترنم بذكر الله فيردد صداتها المشرق والمغرب ويسمع صوتها في ارجاء العالم وألمت على التاريخ عظمة هذا الدين المبين ٠

كان الاحتفال بفضل الكعبة مشهداً رائعاً وكانت فيه موعلة للمتعظ لقد وقف المحتفلون في هذه الدار الجليلة المقدسة سواسية لا فرق بين أمير ووزير وناري وفقير وجاهل غافل وعالم محير اختفت في هذا الاخاء جميع الاقاب الا لقب « ائم المؤمنون اخوة » ٠ لقد وجدت كلمة لا اله الا الله بين هذه الشخصوص ورفعتهم الى مستوى الصداقة والاخوة ٠ وقد رأيت الانسانية العليا تتجه الى قوة وراء أفق التجارب لبني آدم رأيتها تتجه الى القوة الخالقة التي ابدعت هذا الكون الهائل هذا الكون الذي لم نكن فيه سوى جزء من ذرة لو وضع عالمنا مع العالم في كفة المقاييس وسرح لي الخيال الى القرون الخالية وتلاؤ سور القرآن الكريم في فؤادي فأخذت أثلو الآيات الكريمة في قوله جل جلاله : « إِذْ بُوأْتَ إِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ إِنْ لَا تَشْرِكَ بِي شَيْئاً وَطَهَرْ بَيْتِي لِلْطَّاغِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَرَكِعَ السَّجْدَةَ وَادْنَ في النَّاسِ يَاتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فِيْجٍ عَمِيقٍ لِيَشْهِدُوا مَنْافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامِ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَارِزَقِهِمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكَلُوا وَاطَّعْمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ » ٠

وتخيلت كيف طهر ابراهيم البيت واجتث الوثنية وتارت ثائرة المشركين عليه وارادوا به كيدا فلم يستطعوا ان ينالوا منه نيلاً ومشت القرون الخواли تتقلب في الوثنية والشرك حتى بزغ نور النبوة وجاءت رسالة محمد (ص) ورأى كيف تذلل كرامة الانسان بالتمرغ على اقدام الاحجار وهاله أن تكون في بلاد العرب وثنية لأن العربي مطبوع على الاباء والشتم وسمو النفس وخللت آيات الله تتوالى والايمان يزداد والشرك يتوارى حتى قويت شوكة

الاسلام وفتح الله على رسوله الفتح المبين ودخل خالد بن الوليد فناء الدار
يحطم أصنام الكعبة ويرغم انوفها بالتراب وظهر اليت للعاكفين والركع
السجود من وثنية مذلة وعبودية تألف من قبولها طبائع العرب .

وقفت انظر الى البيت واتخيل معنى وجوده تارة ثم انظر تارة اخرى
الى الجموع تلهج السنتها بالحمد والثناء وتطمئن قلوبها بذكر الله ثم ارفع
بصري انظر الى جبل التور واتخيل مهبط الوحي في غار حراء فتتمشى في
جوانح رعدة الجلال والهيبة واتذكر الزمن المتلائمه بنور النبوة الذي توارت
فيه غياب الوثنية ثم أعود الى نفسي والتفت حولي فأرى الوثنية تضطرب في
ظهور وخفاء وسط الجموع قد انحدرت الى بعضهم في اصلاح الزمن ارتأى
عن اجداد الاباء وهم يحاولون ان يعيدها جذعة . ثم أقول هل يصدق ما
جاء في الانر على ما أراه اليوم أو يتاخر فلقد جاء في الانر ان الاسلام بدأ
غريباً وسيعود كما بدأ سبحانه اللهم مقلب الاحوال والقلوب . لقد بدأ
الاسلام غريباً ولكنه بعد مدة اشتدت مرته فانحدر المسلمين الى ميادين
الحياة لقد جدعوا اف اليأس فاقتلت عليهم الحياة في باسم الامل المشرقة
فافاضوا على العالم بهجة الامن والاطمئنان وبعد ان طاف هذا الخيال في
مخيلتي وبعد ان مرت هذه المشاهد أمام ناظري صليت ركعتين وعدت الى
الفندق وتهيات لاجابة الدعوة الملكية في حفل المساء فلما أزف الوقتأخذت
بعضي مع جمع من الاصدقاء وامتطينا سيارتنا المخصصة لنا ووصلنا القصر
ودخلنا فناءه الرحب وصعدنا السلم حيث افضى بنا الى بهو جميلرأيت فيه
جمعاً طيباً من سراة العرب والمسلمين ورجال العبرات السياسية العربية
والاسلامية وبعد بريءه حضر سمو الامير فيصل نائب الملك وولي عهد المملكة
العربية السعودية فجاء الضيوف وحيوه والقى خطاباً مفصلاً أعجبني فيه انه
عرض رسالة الاسلام في جمع الكلمة على التوحيد وذكر ما أصاب هذه
الرسالة من الوهن وندد بالوثنية وقال ان الله سبحانه وتعالى لا يحتاج الى
واسطة وانه تعالى يقول « اذا سألك عبادي عنِّي فاني قريب أجيبي دعوة
الداع اذا دعاني » . وفي هذه الآية ایضاً لصلة العبد بربه وما يبعث عنها

من قوة ونفة لا انفصال لها تلک الثقة التي تستند الى هذه القوة الجبارية التي تدبر الكون من خلف افقنا ومعارفنا والتي لا يمكن ان تغيب عن ادراكنا هذه القوة هي التي طمست عيون الشرك في نفوسنا وهي التي حففت عنا أعباء الزمن واخرجت من خبابا نفوسنا نوازع الشر وقومت كل اعوجاج فيها وهياكلها لاستقبال رسالة الوجود . لقد بني الرعيل الاول لنا الجسور على نهر الحياة وعبدوا لنا طرق الفضائل لتلتقي في ميادين واسعة حيث يكون المجتمع الافضل ولكن كان بين العابريين على هذه الجسور وبين المارين على تلك الطرق من جاءوا متأخرین منحدرين من شعاف الجبال وبطون الوديان يحملون في جوانحهم غوغائية الجاهلية التي كانوا يعيشون فيها والوتنية التي يتمرغون على أقدامها فعبروا الجسر وساروا على الطريق الى مسافات بعيدة ثم ما لبوا قليلا حتى برزت النوازع وظهرت في نفوسهم قرون الوثنية فاجتازوا الطرق لانفسهم ووضعوا في دروبها العقبات وترعوا الاحجار وصار المار لا يمشي على طريق سوي ولا يصل الى نقطة ممهدة حتى ينحرف عنها .

هكذا عادت الوتنية جذعة وانقطعت صلة كبير من ابناء الاسلام بينهم وبين تلك القوة الجبارية التي كان الاسلام يستمد جبروته وعظمته منها . كانت رسالة الاسلام تنصب في عين واحدة لا ينبع منها الا ما يحفظ كرامة الانسان ولا يجري من شرائعها الا ما يتفوق به الانسان على سائر الكائنات . اجتى الاسلام من ابناءه شجرة اليأس وفتح في نفوسهم زهرة الامل . وما اندفعت امة في حياتها وعلى شفاه بناتها باسمة الامل الا وصلت الى الغاية واصابت الهدف . ان الامل مفتاح الفضائل اذا كان يحمل في اجنحته مدارج التفوق فإذا هيض جناحه انقلب الى يأس وفي اليأس تجتمع الرذائل .

هكذا كانت رسالة الاسلام لكرامة الانسان في ازدهار الامل في النفوس واجتثاث اليأس من القلوب . ان المسلمين الذين يستشهدون دفاعا عن قول احياء عند ربهم يرزقون . انهم مع الابرار والصديقين في أعلى

عليين • انهم في سجل الخلود وانهم افضل القوم في الوجود • هذا هو الامل باسم الذي كان يحدو الرعيل الاول من المسلمين ، تكوين مجتمع فاضل في الحياة الدنيا والعبور على جسر الحياة الى نهر الخلود في الاخرة •

ارتفع الاسلام في صدره الاول بالمؤمنين من درجة العامة من الناس الى درجة الانسان المتفوق في الاقدام والشجاعة والمرودة الى درجة الانسان الذي يحمل رسالة • وان حملة الرسالات لا يكونون الا من بين المتفوقين لقد هذبهم محمد (ص) تهذيب العلم الذي يريد ان يتتفوق تلامذته في الوجود فكون منهم جماعة بل اوجد جماعات كلهم يطلبون عظائم الامور وان الذى يطلب العظائم لا يسف في مشيته على الارض ولا يسلك السبيل الذى تتلوى دروبها بل يسلك الطريق السوى : « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المفضوب ولا الضالين » • ان الذى ينشد ربه ان يهديه الصراط المستقيم ويرجوه ان لا يكون من المفضوب عليهم ولا من الضالين في دروب الحياة انسان متفوق انسان له ضمير حي يوجهه لفعل الخير ويقيمه شرور الناس من ابناء العامة •

لقد بذل الرسول جهداً جهيداً في ان يرفع امة الاسلام من درجات العامة الى الدرجات الخاصة : « كتم خير امة اخرجت للناس » ففتح فيما ابتغاه من ربه فكان صحابته فقهاء و كانوا محدثين و كانوا الخطباء اللسان و كانوا الشجعان و كانوا الفرسان الحكم والقضاة العادلين و كانوا الولاة المديرين • لقد ربط محمد ضمائر أصحابه بالواحد الاحد فصارت تستضيء بنور الاله وتشهي على هداء • كل صحابي يعرف ربه و كان يجد في هذه المعرفة معنى وجوده في الكون ولكنه كان طموحاً كان يتسلق الذرى بسرعة لا تداريها سرعة لقد كانت الوثنية تربطه بالارض والرغام فجاءت الوحدانية فأطلقت عقاله وجعلته يفكر في ملكوت السموات والارض ويقول ربنا ما خلقت هذا باطلأ سبعاً ثقنا عذاب النار •

كانت نار جهنم تخيفه وكانت رياض الجنة تغريه وتجذبه اليها لقد حفت الجنة بالسکاره فما كان تلميذ محمد يبالي بهذه المكاره وحفت النار

بالشهوات فلم يلتفت تلميذ محمد الى تلك الشهوات • لقد كان الامل البنسم
على شفتيه وكان الاعتزاز بالنفس بين جوانحه وقوة الارادة تحيط بقواده •

ما قوي المسلمون الا حين حطموا الاوثان واتجهوا الى الواحد الديان
وما ضعفوا ولا استكانتوا الا حين عادت اليهم الوثنية الجاهلية •

الْحَجُّ وَمَقَاصِدُه

سارت الأيام سراعاً في يترب وانتقلنا نبغي مكة واحرمنا للعمره من ذى
الحلقة أو (ابار على) في رداء وازار ووصلنا البيت الحرام وطفنا حول
الكعبة سبعة اشواط وسعينا بين الصفا والمروة سبعاً وتحللت واخذت الأيام
تمر وحوادث التاريخ تهادى يأخذ ببعضها برقب بعض وتهيأ الحجاج
لاستقبال ساعات الحج الجليلة وأقبل يوم التروية وهو اليوم الثامن من ذى
الحج وسمى بهذا الاسم لأنهم كانوا يرتوون فيه الماء للمسافات البعيدة حين
لم تكن المياه تجري من العيون بين عرقه ومكة ولم تكن تجري في الانابيب
ولم يكن الماء يحمل على سيارات ضخمة بل كان القليل منه يحمل على
ظهور الأبل والبغال والحمير واحرمنا في مكة وصلينا صلاة الفجر في المسجد
الحرام ولبتنا نلبي ونسبح بحمد ربنا ونصلي على نبينا حتى طلعت الشمس
وسارت بنا السيارات الى - منى - على بعد خمسة أميال من مكة هذه البقعة
التي أحدث اسمها من وقائع الشعائر فيها حيث تمنى دماء الصحايا فيها أي

تراق .. ومنى مجموعة من بيوت جميلة وحوائط ومنازل في بطن الوادي المحدود من جهة مكة بجمرة العقبة ومن جهة المزدلفة بوادي محسر وزنلنا في فندق جميل ذي طباق عالية موفور المياه والضياء قد زودت اجنبته بالماء وأسلاك الكهرباء وفرشت حجراته بالطنافس وجهزت بالسرير ..

وتشرف توافد هذا الفندق على هذا الوادي المنسط المتند تحت سفوح الجبال المعزاء فإذا نظرت إلى بطن الوادي أخذك جلال المنظر في مضارب الخيام الرابضة فيه وبهرك جمال المشهد عند غروب الشمس حين تلملم ذكاء اطراف اذاليها منحدرة إلى الفروب وتنشر ذوايئها الذهيبة على شعاف الجبال فتكتسبي الصخرة المعزاء لونا ذهيبا من صفترتها وتلتمع الحجرة السوداء باشعة الضياء وبين هذه الصخور وهذا العلو الشاهق تلمح ابناء آدم يستظلون صخرة أو يقيمون خلا وكثير منهم يلبون ربهم ويدعونه سراً وعلانية .. وفي - مني - مسجد الخيف وهو مسجد مسور فيه قبة ومئذنة وفيه المحراب الذي صلى فيه النبي والمنبر الذي خطب عليه وفيها مسجد الكوتور الذي صلى فيه محمد (ص) فقرأ الفاتحة وسورة الكوتور التي هي أصغر سور القرآن ..

وفي هذه القرية المباركة الجمرات الثلاث وهي : جمرة العقبة والجملة الوسطى ثم الجمرة الصغرى .. والجملة لا تختلف في وصفها عن عمود صغير مبني بالطابوق ومطلي بالجص لا يتجاوز ارتفاعه ثلاثة أمتار يحيط به حوض يسقط فيه الحصى التي يرميها الحجاج .. ويقال ان من الآثار التي تذكر في منى منحر الكبش وهو المكان الذي ذبح فيه ابراهيم كيشا فداء لولده اسماعيل .. وبالقرب من مني - وادي محسر - وهو واد ضيق تذكر الروايات ان اصحاب الفيل نزلوا به بقيادة ابرهه يبغون هدم الكعبة فارسل الله عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل اهلتهم وجعلتهم كعصف مأكول ..

واذا وصل الحجاج المشاة والراكبون اسرعوا في الخروج منه اقتداء بما كان يفعله الرسول (ص) ولا يزال الذين يسعون مشياً أو ركضاً يفعلون

ذلك أما السيارات فلا تلتفت اليه وتمر به مرا خاططا
 ملأت هذه الآثار والذكريات والروايات مخيالي وانتقلت بي الذاكرة
 الى القرآن الكريم وأخذت اتلوي بيبي وبين نفسي قوله جل جلاله :
 فلما بلغ معه السعي قال يا بني اني أرى في المنام أني اذبحك فافظر
 ماذا ترى قال يا أبا انت افعل ما تؤمر ستتجداني ان شاء الله من الصابرين . فلما
 اسلما وتله للجبن ، وناديناه ان يا ابراهيم قد صدق الرؤيا . انا كذلك
 نجزي المحسنين ان هذا لهم البلاء المبين وقد نادينا بذلك
 نذبح عظيم » .

ووقفت وقفة المتأمل وكلما امعنت النظر في دراسة هذا الاتر وفهم
 هذه الآيات بدا لي أن الله جل شأنه يعلم علم اليقين ان اسماعيل سوف يطیع
 أباه عندما يقص عليه رؤیاه ويحبه الى أمر الله وان ابراهيم سوف يتل ولده
 ويطرحه أرضا ويحاول اجابة أمر ربه في ذبح ولده ويعلم الله جل شأنه
 ان ابراهيم لن يذبح ولده لانه سیوحى اليه ان يفديه بكبش عظيم كل ذلك
 يعلمه الله وايقنت ان نزول هذه الآيات لم يكن غير درس قاس اراد الله به
 ان يعلم الناس طاعة الوالد وانتصار العقيدة على الاية ويعلمهم الفداء وهو
 آخر الدواء لحل المشكلات . ان اعظم المذمات في الحياة طاعة في الحق
 وعقيدة صافية تختفي أمام وجهها الانانية الحقرة . انك لا تجد « أنا »
 في قصة ابراهيم مع ولده فقد اختفى هذا « الانا » من وجود الولد . ووقفت
 العقيدة متصرة تقول « نحن » انها تنظر للمجموع ولا تلتفت الى الفرد
 وما صارت عقيدة الى - نحن - الا كان الصدر مكانها بين العقائد .

ان العقيدة الاسلامية ايثار وتضحيه ونظرة الى المجتمع مع احترام
 الفرد لأن هذا الفرد هو الذي يتكون منه الجمع . لقد علم الاسلام ابناءه
 حقيقة الخير والشر ودفعهم الى الوجود يبنون المجتمع الافضل ولكنهم
 ما لبשו ان تراجعوا شأنهم شأن كل امة تخلى عن أصول عقيدتها وتمسك
 بالاوراق الزاهية التي لا تقف على هزات نسائم الخريف فتساقط ذاوية
 وتعود هشيمها تذروها الرياح .

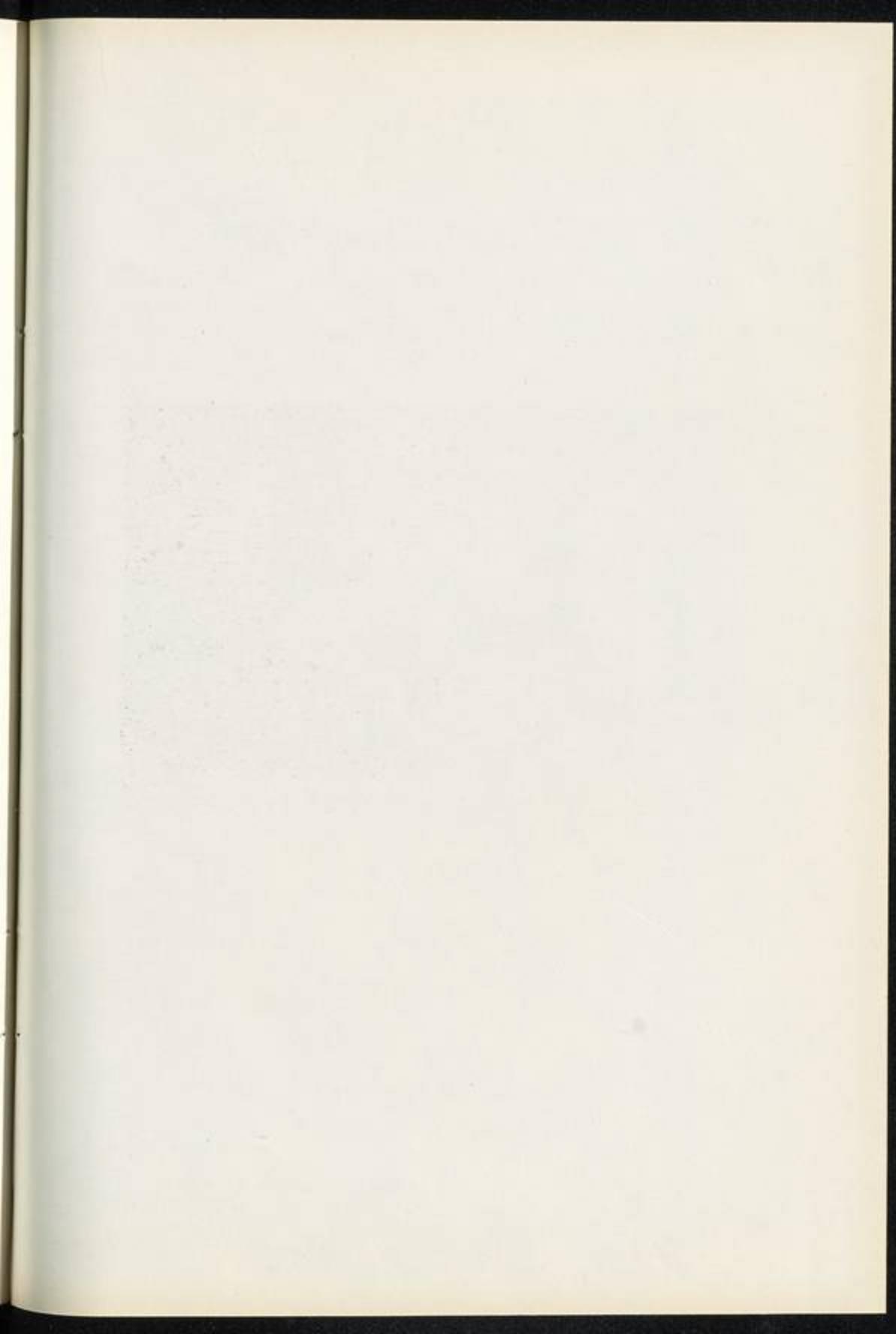
ان رجوع العزة ومكانة الصدارة في تكوين المجتمع العربي الاسلامي



محمد الدبللي
الصحابي العظيم في سمالخاوي يصرخ انا من دين محمد

يبرئكم

المدحية المورقة



منوطان بالتمسك بالاصول العريقة واحتفاء كلمة «انا» من الوجود العربي وحلول كلمة «نحن» محلها وبعبارة اوضح احتفاء الانارة وظهور الايثار والتضييق .

وعدت بمحالي الى وادي محسن اتذكر نزول جيوش الاحباش بقيادة قائدتهم ابرهه يستعدون للنزال مع العرب وكان عبداللطيف في ذلك الحين سيد قريش وكبير العرب في مكة وكان للحجاز المكانة الرفيعة في الجزيرة العربية وكان لها انثرها في الثقافة والادب والتجارة ولقد هال ابرهه ان يكون له منافس وان تبقى الكعبة قبلة آمال العرب فزحف على اليمن واستولى عليها وطبع ان ينشئ كعبة فخمة تصرف اليها العرب بدلا من كعبتهم في الحجاز فلم يجد بدا من الزحف الى بيت الله الحرام فجاءه بجيشه لجب وفيه الاوحد يعني من وراء ذلك ان يغلب العرب ويغيبهم وفي صباح مشرق هاديء هالت قريش أصوات الغزاوة المدلين بقوتهم وفيهم ونادي عبداللطيف يا عشر قريش احجزوا ابلكم واحموها واتركوا البيت «فأن للبيت رباً يحميه» وكاد الاحباش يصلون الى الكعبة لولا رعاية الله وحمایته ليته فقد اهللتهم جائحة من السماء اذ أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل جعلتهم كعصف ماكول فهلكوا ولم ينج منهم أحد وظللت الكعبة منارة للهدایة وموطنا للامن والاستقرار تستظل بها العرب في أرجاء الجزيرة بل كانت مصباً لثقافة العرب ومواردها لها تجتمع حولها وفود الشعراء والخطباء ووفود التجارة واصحاب الاموال وكانت بمثابة جامعة تهذب العقول وتنمي الثروات في أشهر حرم معدودات وظللال أمن شامل ترتاح فيه النفوس الى العمل والانتاج والنفس اذا أطمأن تهيات العقول للابداع . وظللت الكعبة ايضاً موضع حسد من أعداء العرب يريدون ازالتها من الوجود مع انها ركن من اركان توطيد الحياة الاجتماعية وانها مصدر اشعاع للفضائل فحسدها ابرهه وارد بها كيدا فلم يفلح وحسدها القراءمة واجمعوا كيدهم وغزوها ودخلوا فناء المسجد وقتلوا الحجاج واستباحوا الحرم واقتلعوا الحجر الاسود من ركن الكعبة وظل

بأيديهم أكثر من عشرين عاما وظنوا انهم استطاعوا ان يصرفوا المسلمين عن الكعبة وان يطفئوا نور الله ويمحو رسالة العرب من الوجود فباءوا بغضب من الله ومحيت اثارهم وعاد الحجر الاسود الى مكانه كما كان . ولا تزال امم تنظر اليها شزرا وتريد بها شرا ولكن للبيت ربا يحميه وستظل الكعبة كما هي وأكثر ستظل توحى للعرب والمسلمين وحدة الفكر ووحدة الصف وتوحى اليهم ان يبلغوا رسالة الانسانية في المساواة والاخاء والعدالة وسيظل عمود النور الذى نشأ بين الكعبة وغار حراء قائما يضيء العالم بالهدایة ويدعو الى الخير والسلام والوثام ونبذ الشرك وعبادة الاصنام ستظل كعبة الاسلام علما تجتذب اليها المسلمين من مشارق الارض ومغاربها ليذكروا اسم الله ويشهدوا منافع لهم في أيام معلومات .

إِلَى وَادِي عَرَفة

واشرقت شمس اليوم التاسع ونحن في منى ، وفي هذه الفحورة
المباركة كانت السماء صافية والهواء سجسجاً والنفوس مرحمة والقلوب
مضيئة بنور الایمان والالسن رطبة بذكر الله والارجل ت يريد أن تتنقل قبل ان
تنقل والاجسام ت يريد ان تندفع لتتفق بجوار جبل الرحمة حيث تناجي
الارواح مبدع الوجود . في هذه اللحظة المباركة انطلقت بنا السيارة على
طريق مفروش بالاسفلت بين سيارات وقوافل ابل وجموع زاحفة تسير
مشيا على الاقدام . ولم يكن طريقنا هذا وحيدا بل كانت طرق أخرى
تسيل بالركب بمئات الالوف سيراً أتقته يد الطاعة طاعة الله في حجه وصاته
يد التنظيم واقتلت هذه الالوف المؤلفة تسير في ركابها المختلفة ت يريد وادي
عرفة وهو واد يكاد يكون مربع الشكل متراامي الااطراف يقع على بعد
اثنين وعشرين كيلومترا من مكة وافيناه بعد قليل وسط هذه الجموع الزاحفة
ما مسنا في قطع الطريق نصب ولا شعرنا بعطلش ولا سغب وقالوا لنا هذه

حدود الوادي ، هذا هو وادي عرفه وإنما سمي بهذا الاسم المشرق في جرين التاريخ لأن آدم وحواء تعارفاً فيه لأول مرة وهي رواية ترويها الأساطير أو بدعة ابتدعها عقول الرواة ٠

وقفت أمام هذه الرواية أتأمل أقوال الرواة فيها تارة و أخرى انظر إلى هذه الآلوف المؤلفة من إبناء آدم وحواء فوق ظهور الإبل وفي اقفال السيارات وعلى قارعة الطريق في رداء وازار مكتشوف في الرعوس يزحفون أجابة لامر الله يبغون الخلاص من الخطايا والذنوب ، ثم أقول في نفسي ليت آدم لم يعرف حواء وليته لم يغض ربها ، ليته بقي على الفطرة كما فطره الله وليته لم يعرف الشيطان فيوسوس في صدره ليأكل من شجرة الخلد ٠ لقد طمئن آدم في ملك لا يبلى فأبلى نفسه واتبعنا ولقد كان هادئاً في نعيم مقيم سجدت له الملائكة الجلالا وأكباراً بأمر ربها وجعله الله خليفة على الأرض يصلح شأنها ويعمرها ويعيش في أمن وسلام واستقرار في أخاء لا يعرف طمعاً ولا أثانية فوسوس إليه الشيطان فاخرجه عن طاعة ربها وأصبح آدم مستقلأ في رأيه يدب امر نفسه لقد كان مكسوا بالنور الألهي بالجلال والعزة والرقة في اكمال الخلقة فلما دنت نفسه وطماع فؤاده أن ينال فوق ما يريد بدت له سوءته فركبته الهموم وغشيه الطمع والحرس والاستعلاء والانزهة لقد بدأ بالخطيئة حين ذاق طعم شجرة الخلد التي أغراه بها الشيطان وتنى بالمعصية عندما أراق قابيل دم أخيه هابيل في سهل بنت حواء واستمر ابناوه في خططيتهم يتقاولون على التمير والقطمير وترافق دمائهم من جراء شبر من الأرض او حفنة من الماء او بشر من النفط رضخ بعضهم رءوس بعض بالحجارة عندما لم يكن الحديد يครع الحديد وقطع بعضهم اوصال بعض بالسيوف وتفقوا صدورهم بالرصاص وهدموا اطامهم وقلاعهم بالقناابل ودمروا مئات الآلوف واذاقوها من العذاب بالذرة وهاهم اولاد يهددون العالم بالفناء في بضم دقائق ٠

ليت آدم ما عرف حواء وليته بقي على الفطرة ولته بقي في جلاله ووقاره تسجد له الملائكة وي الخضر له الكون ٠

لولا معرفة آدم بحواء ماعرف الناس وادي عرفة ولا قطعوا الفيافي

والقفار وركبوا من السماء ولحج البحر ليكروا عن ذنوبهم خلق الله آدم فاجله واكرمه ونعمه : « اذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابى قلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرج حنكم من الجنة فتشقى ان لك الا تجوع فيها ولا تمرى وانك لا تظمأ فيها ولا تضحي فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكلها منها فبدت لها سوءاتها وخلفها يخصفان عليهمَا من ورق الجنة وعصى آدم ربه فقوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى قال اهبطا منها جميعا بعضكم بعض عدو فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا يضل ولا يشقي »

كان آدم ملتفا في نعيم مرافق وهدوه مكتمل سليم الفطرة قويم الوجهة بعيدا عن مزعجات الكون حتى مد يده الى ما ليس له اجاية للشهوة وركضا مع خيال اللذة فتبه ما كان نائما في نفسه فثار النزاع بين بنيه وعظم الخلاف ونزل البلاء ثم تاب اليه رشده فأجتباه ربه وهداه واعطاه الاستقلال الذاتي في تصرفه فاصبح في اصطراع عنيف مع عدوه الشيطان الذي يosoس في صدره تارة يغلبه ابليس فيركض الانسان وراء العاطفة وآخرى يتغلب الانسان فيسمو بعقله ويحل مشكلاته فيهدا باله وينعم فؤاده .
لقد بدأ الانسان حياته على الفطرة حرا تسجد له الملائكة لانه كان مزينا بالفضيلة ومدبرا بمجاد العزة رفعته قوى الخير الى محل الارفع وحسدته قوى الشر ، وبين هذا الحسد وتلك الرفعة اخذت مكانة الانسان تأرجح تأرجح الريشة في مهب الرياح .

لو ادرك الانسان معنى وجوده في الكون لذهب من نفسه شهوة العظلمة لأن التمازن من شأن المجانين ، فإذا كانت الخمرة أم الجنائز فان التمازن أبو الشرور ولو علم التمازن ان ما يناظر به لا يبعد الهواء الذي يكون في منفأة الحداد لصغرت نفسه في عينه ولاسرع ركضا ينشد فضيلة التواضع وعلم ان الانسان الذي يراه بجانبه ائمـا هو اخوه عليه ان يتراضاه دون ان يريق دمه كما اراق قabil دم أخيه هابيل ولعاش الانسان في جنة الهدوء والاطمئنان لا يحتاج ان يخصف على جسده ورق الجنة كيلا تبدو سوءاته .

الْوُقُوفُ فِي وَادِي عَرَفَةَ

هذا هو وادى عرفة الذى عرف به آدم حواء والذى صار من بعد ذلك موطنًا مقدسا يتعارف على بساطه الشعوب والقبائل فى اليوم التاسع من ذى الحجة ، هذا هو الوادى المقدس المقصود الذى تأوى إليه الجموع من كل فج عميق ليؤدوا فريضة الحج هذا هو الوادى الذى من وقف فيه محربا في نية في أي وقت من ظهر اليوم التاسع من ذى الحجة كتبت له فريضة الحج اتباعا لقول رسول الله (ص) الحج عرفة . وفي شارع منبسط مفروش بالاسفلت يخترق مصارب الخيم اخذت السيارة تتهادى بما حتى وصلت الى مضرب خيامنا فمالت بنا وسط الرمال ووقفت امام خيمة كبيرة واسعة الارجلاء فالقينا فيها عصا الترحال وفتحنا نافذتين فيها فطفق الهواء يلعب ببارجاتها وارتقت اصواتنا بالتلبية والتكبير والحمد . ما اروعها ساعات ينبع فيها الادب الاسلامي باجلى مظاهره لا رفت ولا جدال ولا فسوق . تتحمي فيها الانارة من النقوس ويأخذ الايثار مكانه من القلوب

ما اروعها لحظات تمر مرا وئدا تنظر فيها الى هذه النفوس المختلفة في
أعماقها الموحدة في مظهرها المتوجهة الى الله ترجو غفران الذنوب ومحو
الخطايا تنادي بصوت واحد (لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد
والنعمه لك والملك لا شريك لك) •

كانت الشمس تذرع كبد السماء وكان الهواء عيلا يحمل في اجنته
حرارة من نفس ذكاء ويضطرب في ارجاء الخيم وفي افائها واصوات
الحجيج ترتفع بالليلة من كل مكان وكان الوعاظ يعظون الناس وكنا نريد
أن يطول هذا اليوم وان تبطئ الشمس في مسيرها ولكنها تحطت الامنيات
ومشت كما ارادت وكما رسمت هي الفلك في السماء حتى وصلت كبدتها
نم زالت فقمنا وتوضأنا وصلينا الظهر مع العصر جمع تقديم باذان واحد
واقامتين • وذهبنا الى جبل الرحمة لنقف مع جموع المسلمين وسرنا في
طريق لاحب وعينا علامات للعودة الى خيمتنا وتشعبت بنا الطريق ومشيناها
خطاً كتب لنا ووصلنا جبل الرحمة والفيينا جموع المسلمين وقوفا يناجون
رب الرحمة يطلبون منه أن يرحمهم ولقد رأيت حال المسلمين عند هذا
الجبل المقدس فاشفقت عليهم لقد رأيت امما مختلفة ووجوها متباعدة ولهجات
متغيرة ، واجساما ضعيفة هزيلة وأخرى بدينة سمينة وقلوبا لا احالها عامرة
بالإيمان ولو أنها كانت عامرة لوقفت أمام الله واضحة الجبين لا تعرف
الذلة ولا تعرف الفرقة التي شتت شمل الاسلام وفتحت بين المسلمين
نفرات واسعة انحدرت منها اليه آراء وافدة ومستوردة ، فاضعفت كيانه
وهدت قواه •

لقد اتجهت بكل قوای بجانب جبل الرحمة ودعوت الله من اعمق
الفؤاد ان يأخذ بيد هذه الامم ويهديها الصراط المستقيم صراط الذين ائم
الله عليهم بالعقل الواضح المكتمل ففهموا حقيقة حالهم وعرفوا مسالك
دروبهم •

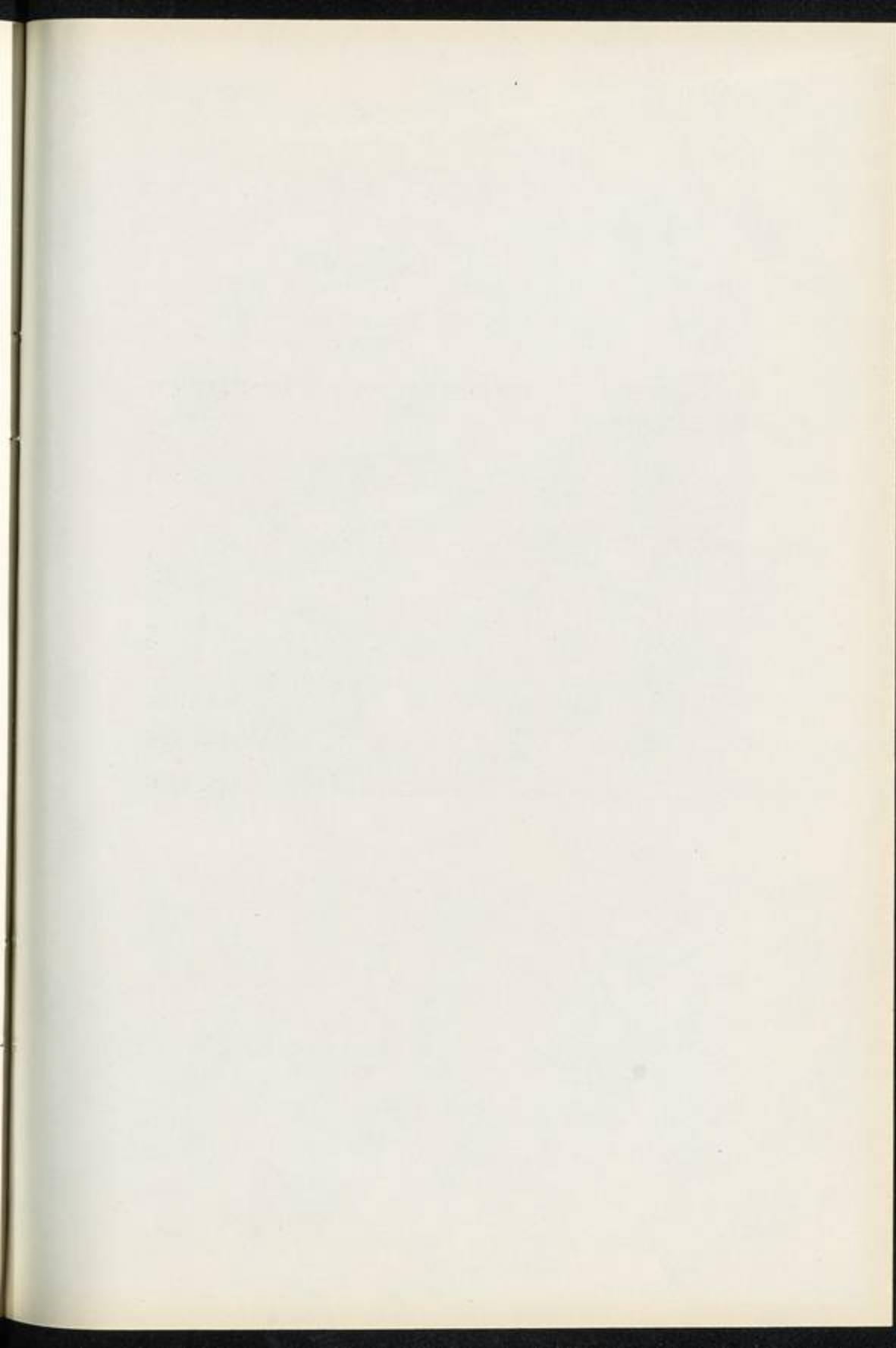
ويل للامة الصالة من الامم العارفة دروبها ان مثل الاثنين مثل الذئب
والحمل مثل القوة الباطشة والضعة الخاضعة ان الذئب لا يرحم الحمل

وان القوة لا تعرف بالضعف . لقد كان الاسلام منيع مكارم الاخلاق بكل معانيها وكان العرب مثال الامم في الاخلاق فجاءهم الاسلام ليتم مكارم الاخلاق لقد هذب محمد هذه الامة في الصدق والوفاء في الشجاعة والشجاعة والصبر والثابرة فكانت في تصرفها بين الامم المثل الاعلى . ولا ادرى ما بالها اليوم ؟

لقد تغير وادي عرفة في سهوله ورماته ، لقد فرشت فيه الشوارع الواسعة والشوارع الفرعية بالاسفلت ونصبت فيه المظلات الضخمة ونصبت حنفيات يستقبل منها الحجاج ما يحتاجون اليه من الماء وضربت في ارجائه خيام فرق الكشافة يرشدون التائبين عن مضاربهم وصرت لا تمشي في واد رملي انك تسير في مدينة واسعة الارجاء قصورها وحوائطها الخيام تصطف على جوانبها العربات المقللة بزجاجات المياه الفازية المتلألئة وهنا وهناك خيام تشوى اللحم وتطبخ الطعام وبين هذه الخيام عربات مقللة بالفواكه ومن هذه العربات تتبع اصوات تنادي (الباهي يا حاج) لقد مشيت من جانب الجبل الى حدود الوادي من جهة مكة اشهد الحجاج مشاة يستقلون من وهيج الشمس بظلائهم يقطعون الدروب جيئة وذهوبا يحيى بعضهم بعضا ويقفون افواجا افواجا حول حنفيات الماء وقد أتعجبنى موقف رجل عليه آثار النعمة وفي لهجته لكنه هندية في جانب وعاء ضخم من المعدن مملوء بالماء المتلألئ لا يترك مارا الا الحج عليه ودعاه لشرب ماء بارد وذكرت في هذه اللحظة المباركة القائد العربي محمد بن القاسم الثقفي الذي حمل مشعل الاسلام من العراق الى ربوع الهند فجعل من ابنائها افتدة تهوى الى هذا الوادي .

وقف امام جبل الرحمة اتأمل الحاضر واستوحى الماضي وجئن بي الخيال فتخيلت رسول الله (ص) واقفا عند الصخرات الكبار بين مئة الف من المسلمين من كبار الصحابة وشباب الاسلام في حجة الوداع او كما يسميها بعض المسلمين حجة البلاغ حيث اتم رسول الله فيها تبلغ الدين الاسلامي الى المسلمين والى العالم اجمع تخيلت رسول الله يهدى بخطابه





الضخم والمسلمون واقفون بين يديه يلقى اليهم قواعد الاسلام وبين حدود
الحلال والحرام . وتخيلت ربيعة بن امية بن خلف واقفا بجانبه يصرخ
بالتاس يقول رسول الله : قل ايها الناس ان رسول الله يقول : اتدرون اى
شهر هذا ؟ فيقولون الشهر الحرام ! فيقول : قل لهم : ان الله قد حرم
عليكم دماءكم واموالكم الى ان تلقوا ربكم كحرمة شهركم هذا ويعيد
الرسول القول وربيعة يصرخ بأعلى صوته ليسمع اول القوم وآخرهم .

لقد بدأ رسول الله خطبة حجة الوداع بجملة مؤثرة اتجهت اليها
افندة المسلمين واصفت اليها اسماعهم بدأها بيقوله : « ايها الناس اسمعوا
قولي فاني لا ادرى لعلى لا اقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف ابدا » .
ثم اخذ يرشدهم ويدعوهم الى الاستمساك بكتاب الله وسنة رسول الله
وان يحافظوا على اموال الناس واعراضهم وانفسهم وان يردوا الامانات الى
اصحابها ويبعدوا عن اكل الربا وقتل النفس وان يعلموا ان المسلم اخوه
المسلم وان المسلمين اخوة فلا يحل لامرئ من اخيه الا ما اعطاه عن طيب
نفس فلا تظلموا أنفسكم . ونادى بالمساواة بين الناس . وقال ايها الناس
ان ربكم واحد ، وان اباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ان اكرمكم
عند الله اتقاكم ، لا فضل لعربي على أعمجي الا بالقوى ايها الناس ان
الشيطان قد يئس ان يعبد بارضكم هذه ابدا ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى
ذلك مما تحقرن من أعمالكم فاحذروه على دينكم . ولما أتم خطبته توجه الى
ال القوم وقال : اللهم هل بلغت ؟ فأجاب القوم من كل ناحية نعم يا رسول الله !
قال الرسول : اللهم اشهد . ونزل من موقفه وصلى الظهر والعصر ثم
قرأ آية القرآن الكريم : « اليوم أكملت لكم دينكم واتسعت عليكم نعمتي
ورضيت لكم الاسلام دينا » بكى المسلمين عند سماعهم هذه الآية واغبطرت
قلوبهم . بكى المسلمين حيث شعروا بفارق رسول الله ، واحسوا بفراغ
عظيم لا يملؤه احد غيره واغبطرت قلوبهم بنعمة الاسلام واكمال الدين .

تذكرت هذا الماضي المشرق بنور النبوة وقوة الاسلام وثبات العقيدة
وتخيلت المسلمين يندفعون من جبل الرحمة اندفاع السهم من القوس

الشديدة وتخيلتهم في خيالاتهم وعزتهم يتحادنون بهذه القواعد السامية
والوحى المجيد يمشون فوق منبسط عرفة فوق رمالها الذهيبة لا تظلمهم
مقلة ولا تقيموا واقية من حر الشمس او زمهرير الشتاء ولا توجد بينهم
على بعد اذرع وخطوات حنفيات الماء تصب في الاخواض تخيلت هذه النقوس
العامرة بالايمان نم عدت الى نفسي واقفا بين مجموع الحاضر اشهد ذلة
وانكسارا ، ارى الاكف مرسومة بالادعية تطلب الفران لکواهل مقلة
بالاوزار وامام كل جمع قارىء يقرأ وهم يرددون ما يقرأ وما يقرؤون
الا ادعية مألوفة في كتاب مرقوم جمعت فيه ادعية لكل شعيرة من شعائر
الحج اذا عاين الحاج بيوت مكة فله دعاء اذا بدأ الشوط الاول من
الطواف فله دعاء وفي الشوط الثاني دعاء حتى الشوط السابع اذا استطاع
ان يختضن الملزم فله دعاء وعند مقام ابراهيم له دعاء + اما دعاء عرفة فهو
دعاء طويل يقوله الحجاج بعد زوال الشمس في كبد السماء وبعد ان يجتمعوا
بين صلاة الظهر والمسحر جمع تقديم ويقفوا عند جبل الرحمة او عند
الخيم او على بساط الرمل او الشوارع المفروشة بالاسفلت فان عرفة كلها
موقع + ويقول الداعي في هذا الدعاء « اللهم انك وفقتني وحملتني على
ما سخرت لي حتى بلغتني بحسانتك الى زيارة بيتك والوقوف عند هذا
المشعر العظيم اقتداء بسنة خليلك واقفقاء باثار خيرتك من خلقك سيدنا
محمد (ص) وان لكل ضيف قري ولكل وفد جائزة ولكل زائر كرامة
ولكل سائل عطية ولكل ملتسم لما عندك جزاء ولكل راغب اليك زلفي
ولكل متوجه اليك احسانا وقد وقفتنا بهذا المشعر العظيم رجاء لما عندك فلا
تخيب إلينا رجاءنا فيك يا سيدنا يا مولانا يا من خضعت كل الاشياء لعزته
وعنت الوجوه لعظمته اللهم اليك خرجنا وبفناك انتخنا واياك أملنا وما عندك
طلينا ولا حساناك تعرضا ولرحمتك رجونا ومن عذابك اشفقنا ولبيتك الحرام
حجبنا + يا من يملك حواجز المسلمين ويعلم ضمائير الصامتين + يامن
ليس معه رب يدعى ولا آله يرجى ولا فوقه خالق يخشى ولا وزير يؤتى
ولا حاجب يرشى يا من لا يزداد على السؤال الا كرم ما وجودا وعلى كثرة
الحواجز الا تفضل واحسانا + يا من ضجت بين يديه الاصوات بلغات

مختلفة يسألونك عن الحاجات وسكت الدموع بالعبارات والزفرات ملحنين
بالدعوات فحاجتي إليك يا رب مفترتك ورضاه منك علي لا سخط بعده ٠٠

ويمضي الدعاء في صفحاته وجمله الرائعة بمجموعة من المطالب لو
عمل الذي يدعو بها كما يلفظها لاتجت مجتمعا من ارقى المجتمعات ٠ قرأنا
هذا الدعاء الطويل من اوله الى آخره مع جمع غفير من اخوتى المؤمنين
نم خلوت الى نفسي وذهبت أجول بين الخiam وفوق منبسط الرمال وانا اتذكر
حمل هذا الدعاء الرائعة وارددتها واريد ان اجملها بجملة او جملتين
واخرج بها من الاثرة الى الايثار واسير مسيرة السلف الصالح المؤمن
القوى فوجدتني لا اخرج عن جملتين اثنين توجهت بهما الى الواحد الاصد
الذى لا شريك له في ملکه وقلت : « اللهم امنح ابناء هذه الامة قيسا من
نورك كيلا يضلوا واعطهم جزء من قوتك كيلا يذلوا » ٠

لقد وجدت في هاتين الجملتين ما يعني عن طول الدعاء وكثرة الطلب
وأنانية المطلب فان نور الاله كاف ان ينير دروب العباد واستمداد القوة من
الجبار القادر فيه الكفاية لغزة امة والامة التي ترى دروبها وتعيش مرفوعة
الكرامة تستطيع ان تقدم للإنسانية ما يرفع شأنها وكذلك كان امر المسلمين
في الماضي هداية رشيدة وقوة عزيزة قدروا بما ان يضيفوا للحضارة
البشرية ما جعلهم في سجل الخالدين ٠

عدت ادراجى الى خيمتي اذكر عهد الاسلام في وقفة محمد (ص)
في حجة الوداع واتخيل الصحابة وقوفا ينتظرون آية من وحي الاله أو
حديثا من فم الرسول وتخيلتهم قد انطلقوا من الجبل انطلاق السهم يريدون
ان ينشروا فضائل الاسلام في ارجاء العالم ليمنحوا المظلومين حرية الحياة
والمستذلين نعمة الاخاء والمساواة وينفروا طوائف ليتفقهوا في الدين
ولينذرموا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلمهم يحذرون ثم انظر الى هذه الجموع
الفقيرة ترفل بالنعمة بماله الوفير والزاد الكثير والظلل الظليل فأقسو في
نفسى : لماذا اجتمع هؤلاء القوم وعلى ماذا سيترافقون وماذا فعلوا ؟

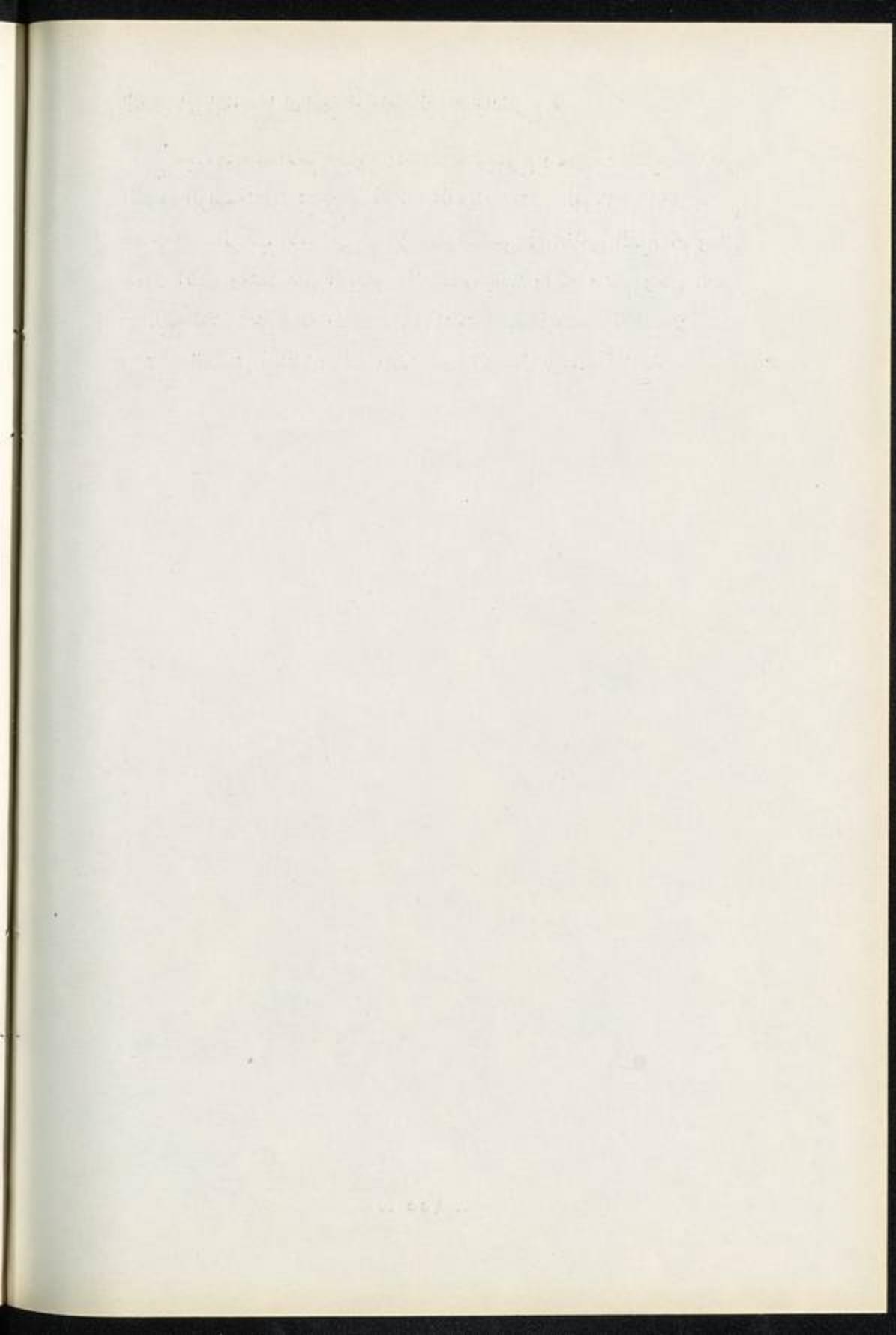
لقد جاءوا محملين بالاوزار وسيعودون الى ديارهم والله اعلم بذلك
الصدور .

وارحمته لل المسلمين . لقد كنت اظن انهم انما جاءوا الى البيت العتيق
ليذكروا الله ويشهدوا منافع لهم في ايام معلومات . ولكنني رأيتهم سيعودون
مثلاً انوا ثم اعود فأتخيل ربعة يصرخ باعلى صوته يبلغ القوم بخطاب
الرسول فيسمع اولهم وآخرهم وأقول في نفسي اما آن لل المسلمين ان يذكروا
هذا المشهد ويفعلوا لانفسهم موقفاً مثل هذا الموقف فلو فتحوا لهم صندوقاً
في مدخل عرفات ووضع كل حاج في هذا الصندوق ديناراً او ريلاً فأنهم
في مدى خمسة اعوام يستطيعون ان يجمعوا مالاً وفيراً يعد بالملايين ولاستطاعوا
ان يأتوا بابرع مهندسي العالم فيبتوا خلطة ضخمة فوق جبل الرحمة تقىهم
الحر والبرد ويبنوا مدرجاً يسع نصف مليون من المسلمين ويضعوا في أرجائه
مكبرات الصوت ويتبارى علماء المسلمين الاجلاء او علماء مكة من الفضلاء
في شرح حقيقة الاسلام في عدة لغات ولكان للإسلام مظهر القوة ومظاهر
الاخاء ولعاد ابناء المسلمين هداة مرشدين يقون بladهم شرور الالحاد
وشرور الفساد ويمدوها بفضائل الاسلام من الصدق والوفاء والعدل والاخاء
هكذا كانت تمر في ذاكرتي الفكرة تلو الفكرة وقلبي عامر بالإيمان ولسانى
رطب بذكر الله اذهب واجيء حتى مالت ذكاء الى الغيب تكفكف اذبالها
وتنتشر على رمال الوادى مطارفها الذهيبة لسودع الحجيج بعد ان ملأوا
الوادى بالتلية والضجيج وطلب المفرة . ونظرت الى الخيم فرأيتها تهياوى
والى الحبال والاوتداد تلف وتجمع لقد همد ما كان قائماً وطوى ما كان
منشوراً وعجل الناس في لم امتعتهم وحزموا سطحهم وشدت الرحال واخذت
رئات السيارات تتنفس بالشرر .

لقد بدأت النفرة ونفر الحجيج فلا تسمع ضجيجاً ولا كلاماً مزعجاً
انما تشعر بالغبطة والفرح تشعر انك اديت واجباً ضخماً وانت مت فريضة
ركبت لها من الهواء أو نجح البحر أو قطعت القيفي والوديان تشعر بالعودة
والعيد تشعر كأنك بدأت حياة جديدة . انك مقبل على يوم تقدم في ضحوته

الهدي الى ابناء هذا الوادي غير ذي الزرع والضرع *

تجمعت هذه الامم المتباينة واصطفت الجموع وتحركت السيارات على
الطرق الواسعة الممتدة من عرفة الى المزدلفة تمشي الهوينا في اتزان منظم
لقد زحف الركب الاسلامي او الزحف المقدس في افواص السيارات وعلى
ظهور الابل ومشيا على الاقدام كان السير بطيئا ولكنه منتظم وكان القمر
في الليلة العاشرة من ايامه وليلاته يرسل اشعه الضعيفة ويعين الركب الزاحف
في تبيان الطريق فبلغنا المزدلفة والقينا عصا الترحال في سدفة المساء *



المُزَدَّلَة

افضنا من عرفة حين انحدرت ذكاء الى المغيب وتوارت وراء الافق
المخضب بالحناء ، وزحف مليون من المسلمين في حدود الفن منهم مثثان
وستون ألف نسمة في حدود اليقين في سجل مرقوم وجواز جازوا به
الحدود من ارجاء العالم ، وآخرون لحقوا بهم من اعلى اليمن وهضبات
نجد وحيرة اليت الحرام وكان هذا الزحف الرائع يبعث في النفس غبطة
ويثير فيها الماء ، يبعث الغبطة لهذه الشوكة العظيمة التي اندفع بها المسلمين
في المشرق والمغرب ويثير الالم لهذا المظهر الذى يظهر به المسلمين اليوم
في التخلف وراء ركب العالم .

لقد كان للمسلمين ارادة في مشرق الاسلام فاستطاعوا ان يحطموا
الزمن ويغلبوا على امره ويقدموا الانسانية الى مكان رفيع في ربع قرن لم
نصل اليه في قرن لو تركت تمشى وحدها الهونينا .

كان المسلمون قلة قليلة فغلبوا بقوه ارادتهم فئات كثيرة باذن الله ولو

كانت هذه الجحافل المحببة التي ماجت بها دروب عرفات وشعب المزدلفة تفعل مثل ما فعلته جموع المسلمين على قلتها مع الرسول في حجة الوداع في نشر العقيدة وتفسيرها والعمل بها لفتح التاريخ للإسلام صفحة ناصعة الجبين ٠

سرنا من عرفة نقصد المشعر الحرام ونذكر آيات القرآن الكريم :

« ليس عليكم جناح ان تبتفوا فضلا من ربكم فاذا افضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وان كتم من قبله من الصالين ، ثم افيضوا من حيث افض الناس واستغفروا الله ان الله غفور رحيم ، فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذلككم آباءكم او اشد ذكرا ، فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » ٠

والمشعر الحرام هذا هو جبل المزدلفة يقف عليه الامام ويسمى قرب (بضم وفتح) وسمى مشعرا لانه معلم للعبادة وهو واد فسيح يبدأ من مازمى عرفة وينتهي بوادي محرس (بكسر السين المهملة المشددة) تجتمع فيه جحافل الحجاج بعد الافاضة من عرفة يجتمعون منه حصى الجمار على ما يقول رواة الاحاديث والاخبار ٠ ولقد ذهب المفسرون في تبيان مقاصد الآيات الكريمة مذاهب شتى ، فقالوا انها نزلت بحق قريش حيث كانت في جاهليتها تتعالى على الناس فتقف في المزدلفة ويقف الحجاج في عرفة ، ولم يرض الله سبحانه ان تميز قريش دون الناس بهذه المنزلة فامرهم ان يفيضوا من حيث افض الناس ، وعندى ان الآيات واضحة عامة لا تختص باحد دون احد وهي خطاب للمؤمنين ولم يخاطب الله جل جلاله المشركين وانما يقول للمؤمنين « فاذا افضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ذكرها يليق بالخلالدين الذين يؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ولا يكتفون بذكر آبائهم في حفلوظ الدنيا الثالثة بل عليهم ان يقفوا وقفه المتأمل الفاحص فيما تركوا وراءهم في عرفة في هذا المشهد العظيم والحمل الجامع الذي يعد اكبر مؤتمر ديني يأتمر به اهل هذه العقيدة السماوية

التي يمكن ان ينعم في ظلالها ابناء البشر في امن وسکينة لو اتبعوا قواعدها
وساروا على هداها .

ما كانت المزدلفة بعيدة عن عرفة ولا بعيدة عن مني ولكن الذى يرى
هذه الجحافل يدرك حكمة الوقوف بها وجمع الحصى والبقاء ولو لجزء
من الليل على رواية او كل الليل على روايات اخرى كى يستطيع المسلمين
ان يفيضوا الى منى الى المنحر والى مكة لطوف الافاضة فرقه بعد فرقه كيلا
تزدحم الجموع ويحدث الضرب .

والاهم من هذا وذاك ان يقف المؤمنون بهذا الوادى ليرتاحوا بعد
افاضتهم من عرفة ساعة النفرة وليجتمعوا شملهم ويعيدوا النظر فيما فانهم
والتأمل في اوضاعهم مرة ثانية ويهيئوا انفسهم للجلى من الامور وان يجعلوا
الله امام اعينهم ويحمدوه ويكرروه على ما انعم عليهم ويدافعوا عن شريعته
وقرآنها وان يمحوا الائنة من نفوسهم فان الذين يأتون الى هذا الموقف
يجب ان يكون لهم من النضج والكمال ما يترفعون به عن حظوظ الدنيا
الزائلة ويركتوا الى حظوظ الخالدين الذين يمنحون الانسانية نعمة الحياة
ذلكم هي الغاية من الاسلام .

ف عند المشعر الحرام وقف النبي وصلى وارشد وعلم وذكر الله وجمع
بين العشائين باذان واحد واقامتين ووضح لل المسلمين ما يعملون به في
مستقبلهم ولكنهم لم يفعلوا من ذلك شيئا غير جمع الحصى والجمع بين
العشائين .

كان القمر في عنفوانه ينير لنا الطريق وكانت السيارات تتهادى في
سيرها بنا وكانت الابل تمشي وتبدا وكان المترجلون يمشون على الحافة
متقلين باحملهم حتى اذا وصلنا هذا المشعر الحرام ارتفعت اصواتنا بالتهليل
والتكبير وذكرنا الواحد احد الذى لا شريك له في ملكه والقينا عصى
الترحال وصلينا المغرب والعشاء وجمعنا بينهما باذان واقامتين جمع تأثير
وشرعنا نجمع الحصى على ضوء القمر نتمس اصابعنا في الرمال نبحث عن
أحجار صغار بقدر الحمصة أو تكبرها بقليل وطالما غمسنا الاصابع الى عمق

يزيد على طولها فتخرج ايدينا مملوءة بالرمل والحصى فترك الرمل يخرج من فروج الاصابع ونستبقى حصوة او حصوتين ثم نعيد اليد تارة اخرى وكان كل همنا ان نجمع من الحصى ما يعيتنا على رجم الشيطان وما يمكن وضعه في كيس صغير تحمله معنا . وبينما كنت منهمكا في عد ما وصلت اليه جاء رجل يعصر اصبعه يسأل عن طبيب يداويه فقد لسعه العقرب وهو يجمع حصاء ثم جاء اخر يشكو مثل شكوى صاحبه فكفت عن الجمع حتىة ان يصيبني مثل ما أصاب القوم وعددت حصائي فاذا به يزيد عما أريد .

كانت الليلة صافية الاديم والقمر مشرقا وضاح الجبين كان يذرع كبد السماء مسرعا ي يريد أن يتوارى وراء الافق وكانت نسمات الهواء تحمل في اجنبتها بربا لاذعا اخذ يشتد رويدا رويدا حتى صار لا يقيه ازار الاحرام ورداؤه وأخذ الظلام يزحف وراء القمر ولم يتركه حتى توارى وراء الافق ولف القلام هذه الجحافل الزاحفة وأخذ الناس يلوذون بطلال سياراتهم أو يدخلونها ومن كانت له سيارة خاصة به دخلها وأقبل نوافذها وبين افال النوافذ وفتحها فرق عظيم فاذا أفلتها على نفسك تصب العرق من جبينك واذا فتحت نافذة واحدة هجم عليك برد لاذع لا تلبث معه قليلا حتى تشف خاشم النفس .

لقد صبرت على هذه الحال حتى ذهب المزيج الاول من الليل ثم شرعت أتذكر أقوال الفقهاء فأخذت بأولها وذلك ان أمعك في المزدلفة جزءا من الليل ثم افيض منها من حيث يفيض الناس وأن أسير الى منى لارمي جمرة العقبة بسبع حصيات ثم أقصر وانحر وادهب أطوف طواف الافاضة وتذكرت قول بعض الفقهاء ان أول طواف الافاضة يكون بعد منتصف الليل وان كان يفضل بعضهم هذا الطواف في ضحىوة النهار من يوم النحر وتردلت في اخدي الاسهل من أقوال الفقهاء أو التلبث حتى أصلى الفجر .

وغلبني الرأي في أن الدين يسر فلا يجب الایغال فيه وما دامت هذه الجحافل تقط في نومها وما دامت لا ت يريد ان تشهد منافعها عند المشعر الحرام

ولا تنظر في أمر المسلمين ولا تلتفت الى هذا المؤتمر العظيم وما دامت هذه
الجحافل ايقنت ان الحج عرفة وان بقية المناسب ما هي الا متممات ووقفت
عند هذا الحد من أداء الفريضة فلا تتعادها الى سواها ولا تريد ان تفهم
غايتها واهدافها فان علي اذن أن أسلك أي طريق شئت في اتمام ما فرض
الله وان آخذ بأي رأي من آراء فقهاء المسلمين الذين ثبتوا أصول الشريعة
الاسلامية وأنسوا فروعها ٠

وقفت عند هذا الحد من التفكير في أمري نم التفت الى هذه الجموع
الهاجمة التي بردت مفاصلها فاستسلمت للكرى وقلت وارحمته للإسلام
لقد أبدع محمد بن عبدالله للمقيدة الاسلامية عقلا جبارا يتصرف في قواعدها
فيجعلها صالحة لكل زمان وكل مكان ٠ فما بال هذا العقل توارى وراء
الحجب ؟ لقد سعدت هذه العقيدة عندما كان العقل يفهم أنه لن يستطيع أن
يسعد الا في التضحية ولن يستطيع ان يصل القمة الا اذا تخطى الصخور
النائمة ولن يستطيع أن يشير باصبعه فيطاع الا اذا نبت قدماء على الذروة ٠

ان العقل الذي يريد أن يصل الى الذروة يحتاج الى المفاصل المتحركة
التي تفتح الشر لا الى المفاصل الباردة المتجمدة التي لا تطبق حراكا وان
ينابيع العقل لا تنبط بالحكم والفكرات الناضجة الا اذا استيقظت الحواس
وتحركت الاطراف ان النائمين أموات وهل تخلق الرم الballية أمة تتبع
عروقها بالحياة أن للإسلام عقلا جبارا وعلى المسلمين أن يركعوا اليه ٠

إِلَى مُنْفَى لِرَمَى الْحَمْرَةِ الْأَوْلَى

جَمْرَةُ الْعَقْبَةِ

وفي غلس الليل البهيم وعلى هدى الشريعة الاسلامية وأقوال فقهاء المسلمين والحجاج نiam طلبت من السائق الحاج المحرم ان يستيقظ وينهض حتى ترك المشعر الحرام ونذهب الى منى فاجاب وتوكلنا على الله وارتفعت أصواتنا بالتلبية والدعاة ونبضت رثات السيارة بالتنفس واخذت تهادى في مسیرها وابعث شعاع نورها يضيء جوانب المبيت بين سيارات رابضة واجسام ممدة حتى اذا وصلنا الطريق العام اخذتنا سمتنا الى منى وفتحت قدر اصبعين من نافذة السيارة وخلفنا وراءنا المزدلفة تبعي رمي الجمرة الاولى جمرة العقبة والجمرات هنا مجتمع الحصى من جمره بمعنى جمعه وكل جمرة ترمي بسبع حصيات صغيرة كل يوم من الايام الثلاثة او الاثنين وتمتاز جمرة العقبة منها انها ترمي قبل ذلك في يوم النحر ٠

ورمي الجمار من ذكريات النسخ المأثوره عن ابراهيم الخليل وعامة اعمال الحج ذكريات لنشأة الاسلام الاولى وهنالك اقوال أخرى يرويها

رواة الاخبار منها ان الرمي تقليد لما فعله ابراهيم الخليل عندما وسوس اليه الشيطان بمعصية ربه وعدم ذبح ابنه اسماعيل وتقليد لما فعله اسماعيل عندما وسوس اليه الشيطان بمعصية أبيه ولكنني عندما عدت الى مدارسة الآيات الكريمة في القرآن المبين لم أجده معنى تحتمله الآية بمثل هذا المعنى فقد قال ابراهيم لابنه : « يابني ابني ارى في المنام اني اذبحك فانظر ماذا ترى ؟ » فقال اسماعيل : « يا ابا افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين فلما هم ابراهيم أن يفعل سمع هاتقا انا كذلك نجزي المحسنين وان هذا لهو البلاء المبين وقد ينادي بذبح عظيم » فما دخل الشيطان ولا وسوس ولا تحرك ولا تنفس وكانت القصة طاعة للرب من الاب وادباً من الولد للوالد انتهت بتقدير عظيم وامتحان ناجح ظلت نتائجه سارية المفعول تنتقل في اسلوب الاجيال جيلاً بعد جيل وسوف تستمر الى يوم يبعثون .

وصلنا مني واحتبت بنا السيارة مكاناً خالياً ورکد فؤادها فترجلنا وسرنا نبعي جمرة العقبة بقلوب عامرة لم تنفذ اليها وسوسه الشيطان واردنا أن نستقبله بالحصى والتکير والتهليل قبل ان يخسن ويدخل القلب ويتحول بيننا وبين عبادة الرب ولم نزل نلبي حتى وصلنا مكانه الاول فإذا به عمود مرتفع يحيط به حوض يتساقط فيه الحصى واذا بعد يتجاوز بعض مثاث سبقونا اليه تولوه بالرمي بحصى صغار ادركت فيها حكمه الشارع فان بعض السواعد الشديدة تتجاوز في رميها هامة العمود فتنعم على هامات الحجيج وعلى وجوههم (ونظاراتهم) فرميت أول حصاة واردت ان اقطع التلية معها كما هو المأثور غير اني أخذت بال الحديث الشريف ان النبي (ص) كان يرمي الجمرة ويكبر مع كل حصاة فلما انتهينا من ذلك التفت الى السائق الحاج وسألته ان يدلنا على المذبح وسارت بنا السيارة في طريق لاحب بين خiam مஸروبة تتضرر المفيضين من المزدلفة وبين سيارات كبيرة رابضة على جانبي الطريق حتى وصلنا الى مكان لم تستطع السيارة ان تنفذ منه فترجلنا وسرنا وسط رمال وحصى وحجارة في ظلام لا نتبين فيه وقع اقدامنا ثم دخلنا مكاناً فسيحاً افضى بنا الى فضاء واسع تربض عليه الاغنام جيء بها لتقاد طائعة

على ذمة الفداء والفناء واتماما للمناسك واجابة للدعاء وفي هذه الهدأة من
الهزيج الاخير من الليل أقبلنا على هذه القطعان تخير منها الفداء وتلتفت حولي
فلم أجد غير حاج واحد علمت انه أخذ بما أخذت به من يسر في الشريعة
فضحى ومشى وتوكل على الله وقدم هديه الى أهل هذا الوادي وجاءني نفر من
الرعاة أو الباعة يعرضون علي خرافهم فوقعت عيني على رجل يقود خروفين
اثنين سمينين وعرض ثمنهما فما جادله وما ساومته لاني وجدت في كل واحد
منهما مصدق الآية وووجدت في كل واحد منهم فداء وذبحا عظيمما وطلبت ان
ينحرهما بيده ويتصرف بهما كيفما يشاء ويختار فانهما هدي وكفى • وعدنا
الى السيارة وأخذنا سمتنا الى الكعبة الى البيت العتيق واخذت السيارة في
هذه المرة تنهب صدر الارض وسمات الهواء الباردة تداعينا ونداعها كلما
اشتد علينا حر السيارة وضاق النفس والليل في آخريات ساعاته وشفاته
السوداوان اخذتا تنفر جان رويدا عن تنفر الفجر الباسم تنفر يوم عيد
الاضحى والقلوب رطبة بذكر الله والايام يضيء جواب الجوانح كما تضيء
النجوم المتلائمة صفة السماء والنفس طائرة مجنة ت يريد أن تسابق
السيارة في وصولها الى البيت العتيق غير انها مقيدة بالتوافد والمقاعد • وما هي
الدقائق معدودات حتى وصلنا الى الكعبة الى بيت الله الحرام ولما أردنا
ان نقف بالقرب من باب الصفا وترجل رجعت سيارة أخرى علينا فدمعت
سيارتنا دعما بسيطا ومهمما كان الامر بسيطا فانه يؤثر في سيارة مطهمة فحمة
جديدة مثل سيارتنا وقد وجدت في خلق السائقين الحاجين ما يمثل التأدب
بآداب الحج فقد وقف كل منها ينظر الى صاحبه كأنه يلومه فقال صاحب
السيارة الداعمة انتي مستعد ان أزيل الضرر قبل سائق سيارتنا الحاج
واشتربط ان يكون ذلك أمام مسؤول من الشرطة ولا أعرف لماذا؟ وجاء في
الحال ضابط المرور فأخذهما الى المركز وتركاهم وذهبنا نطوف بالبيت
طوف الافاضة وكان المفيضون من المزدلفة قلة يسهل معهم الطواف والوضوء
بماء زرم ورأيت منهم من لا يكفي بالوضوء بل يصعب على رأسه وجسده
الماء فتوضاً وطفنا وسعينا وقصرنا وتوجهت الى البيت ودعوت ربى بدعائي

الذى اخترته لنفسى وقلت : « اللهم أعطى المسلمين جزءاً من نورك حتى لا يضلوا وامنحهم جزءاً من قوتك حتى لا يذلوا » ولما تركت الصفا والمروة أخذت جموع الحاج تموج في أرجاء اليت وادعية ترتفع الى عنان السماء والمطوفون يسرون أمام كل رعيل من الحجاج والحجاج منهم من يرمل ومنهم من يمشي الهوانا ومنهم من يحمل على كرسى واشتد الزحام وصار صعباً على المرأة ان يخترق هذه الجدران البشرية المتراسفة المتدافعه فحمدت الله على اني اديت نسكى حيث اريد دون ان يزحمني زاحم او يدفعني دافع ووصلنا السيارة فلم نجد سائقنا ولبتنا ننتظره حتى عاد من مركز الشرطة وقال : ان السيارة لم تكون ملكي وان عليَّ أن أصلح العطب وما دام العطب وقع من غيري فاني أردت أن ابت ذلك بمحضر أمام جهة مسؤولة يكون مصداقاً لقولي وادعائي وطلب منا ان ننتظره لكي يطوف ويسمى فعلنا وعاد اليانا وقد أكتملت حجته . هذا هو الحج قد أكتمل بوقوفنا بعرفة وانتهينا من مناسكه فاقمنا بمزدلفة الى ما بعد منتصف الليل ثم هلتنا وكبرنا ولينا ودعونا عند المشعر الحرام ورمينا الجمرة الاولى بسبعين حصيات خسيء بها الشيطان وجنه وأخرستنا وساوسه ثم نحرنا وطفنا وسعينا وارتينا من ماه زمز وها نحن اولاء نعود الى مني ننتظر شروق الشمس عن صباح يوم عيد الاضحى هذا العيد الذي نطلق عليه العيد الكبير في عرف الطفل الصغير والرجل الكبير ولستني ما رأيته كبيراً في عيون المسلمين الذين ينظرون الى حاضر العالم الاسلامي وماضيه لقد رأيته صغيراً في عيون هؤلاء الذين يحيى بعضهم بعضاً ويتسامون ويجاملون ويدعون ان يعود على العرب والاسلام بالخير والسعادة والرفاه وهم يعلمون جد العلم ان السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ولا تبني مصانع تحطم الذرة وتلين الحديد وتسبك الصلب وتتصنع الآلة وتغزو أجواء الفضاء ان الدعاء مطية الجناء والرجاء من رب البداء وان الدماغ واليد هما الذي يصنعان نتائج الاعمال وان اللسان لا يأتي الا بالاقوال .

لقد طر جين الفجر الصادق ولمع ضياؤه في الافق الصافي واخذت ذكاء تطرز مطارات ثوب النهار بحمرة الحناء ووقفت وراء نافذة الغرفة انظر الى

هذا المشهد الجميل والصبح المشرق وأجول بناظري في هذه الخiam الرايضة
اللهادئه التي لا تنبض فيها الحياة وأعلم انها خالية فان الحجاج لم يعودوا
اليها بعد نم انكس رأسي فوق صدري واطلق لخيالي ان يجنيح في الفضاء
فاتخيل يوما من الايام ارى فيه او ترى اجيالنا المقبلة فيه علماء الذرة وعلماء
الفضاء وعلماء الشريعة وفطاحل الشعراه والادباء والخطباء يغشون مجتمعهم
في مني بعد ان عرضوا فيما بينهم بحوثهم ومختراعاتهم وتبادلوا الآراء واستعنوا
بعضهم البعض في ظلال جبل الرحمة تخيلهم يتتصافحون وبهمني بعضهم بعضا
وينشرون بيانهم السنوي على العالم الاسلامي بما فعلوه وما وصلوا اليه .
هكذا كنت اتخيل هذا اليوم اشهد فيه جموع علماء المسلمين واشهد عزة
الاسلام وعقرية العرب فاتعزى به عن مثل هذا اليوم الذى لم يتكتشف الا
عن تضرع وخيبة ولم تنفرج فيه ملة الليل الا عن شمس ضاحية محرقة لا
تجد فيها غير هذه الجموع المزدحمة الرايضة في الخiam .

لقد وضح امام ناظري كل شيء وايقنت ان سر تأخر المسلمين يرجع
الى انهم لم يأخذوا بمبادئ الاسلام لقد كان المسلمون يعرفون قيمة الزمان
وكانوا يعرفون ثمن العمل ويعرفون الحق ويتواصون بالصبر ويعملون
الصالحات فما لانت لهم قناة ولا تراجعوا لقد زحفوا على العالم بيدهم القرآن
فأناروا أرجاءه وزحفوا على الظلم فاطلقوا نيران الشرك وأحمدوا أوارها
علموا الناس الحق ففهموا معنى العدل وعلموا الناس المساواة فاختفى الظلم
وعلموا الناس الجد في العمل فاتجوها حضارة عربية اسلامية لا تزل تشرق
من عليها بين حضارات الامم .

يَوْمُ الْعِيد

أشرق يوم عيد النحر وتفتحت ابتسامة الشمس المصيّة فوق ذرى
الجبال وبسطت سرورها على الوهاد والشعاب والبطاح وتهلل وجهو الناس
بالبشر وبدأ تبادل التحيات الطيبات المباركات بين القوم وفرح الرجال والنساء
منلما فرح الاولاد والبنات وتلوّنت الثياب بعد ان كانت لونا واحداً كانت
ياضنا ناصعاً وشكلاً موحداً ، كانت ازارة ورداء لا فرق بين رجل ورجل في هذا
النوع من الکساء وعادت مختلفة الالوان والاشكال عادت اينقة مماعة فضفاضة
کاسية وضيقه مقرطه وصرت ترى الوان الام في وجوهها ونيابها وتبصر
علامات النراة والجاه على وجوه القوم وفي ملابسهم وسلوکهم ومکاناتهم
في مسالك الحياة ومضائقها ٠

وكان حقاً ان تنهل الوجوه بالبشر فقد تطهرت القلوب من الحقد
والحسد وتلاقي في الايام الفائنة الاعداء والاصدقاء والاقارب والابعدون
وسألوا الله جل جلاله المغفرة وحسن الخاتم لقد أدى المدين دينه وقضى

فريضة كانت مكتوبة عليه واحتفت الاوزار التي كانت تنقل الكواهل وحفت
الاجسام والارواح اذا خف الحساب وقضى المدين دينه وفرغ من واجب
مفروض عليه مرتاح نفسه والنفوس المرحة أقدر على الاخاء وأكثر اجابة
للعدل والمساواة وغفران الزلات واطمئن في الادعاء للحق ، وقد علمتنا
التجارب أن الجرائم والآثام بنات اليأس والكآبة ولأمر ما جاء في الأسر
يكاد الفقر أن يكون كفرا فان الفقر من دواعي اليأس والكآبة والفنى سواء
أكان غنى النفس بالقناعة أو غناها بالمال من دواعي الانبساط والتفتح للحياة
ولأمر ما دعا ابراهيم ربه – ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع
عند بيت المحرم ربنا ليعمروا الصلاة فاجعل افتدة من الناس تهوى اليهم
وارزقهم من الثمرات لعلمهم يشكرون – *

لقد كان واديا غير ذي زرع ولا ضرع وكان الهدي من أول وجائب
الحج ليزيل الفقر ويدخل السرور فترمح النفوس وتطمئن القلوب فتقيم
الصلاه وتشكر رب *

ولقد رأيت في هذا اليوم وجوها طافحة بالبشر في قسمات الفقير
وقسمات الفنی لقد امتلأت عين الفقير من أشلاء الهدي المبعثرة المتاثرة في
جميع الارجاء ومن سخاء أهل البر والتقوى الذين يجدون في الحج
المقدرة والاستطاعة وطفحت قسمات الشري لانه أجاب داعي الله وأيقن في
نفسه ان في ثراه الاستطاعة التي تريدها الشريعة *

لقد أدينا الفريضة وقمنا بالشعائر والمناسك ولتكنا هل بلغنا المقاصد
العظمى من الحج ان للحج في جوانحه مثلا علينا والمثل العليا صعبه المنال
انها أعز من بيض الانواع فلقد تباعد ما بين شرق الاسلام وماضيه
وحاضره اليوم لقد كنت اوثر الا ينتهي الحج بهدي يترك في العراء ليفرح
به فقير يستهويه قatar الشواء او تجذبه رائحة القدر او يجد في جلد شاة
يسلخها دريهمات معدودات يستعين بها على شؤون الحياة *

لقد كنت اوثر ان تكون مقاصد الحج أعلى من هذا وذاك كنت آمل
أن يكون الحج مؤتمرا وان يكون لهذا المؤتمر من العزة مثل ما كان ل الاسلام

في حجة الوداع وان يكون له من الهدایة والارشاد مثل ما كان ينبعث من
النور والهدایة من غار حراء .

تركت هذا الخيال المجنح يطوي جناحيه ونزلت الى عتبة الدار حيث
كانت السيارة تتضرع نا ثم تحرك فؤادها ومشت بنا تنهادى بين هذه الجموع
الراخمة المرحة وشققت طريقها الى القصر الملكي وهناك وجدنا جموعا
من سراة المسلمين الوافدين من ارجاء العالم فيهم السياسي الوزير والموظف
الكبير والفقير والعالم والتااجر وكثير من الناس ودخل القوم ودخلنا
وفقاً ترتيب منظوم لتحية رئيس موكب الحج في عام ١٣٨٣ الامير فيصل
ولي العهد ونائب الملك تحية العيد وهي عادة مألوفة للحجاج في هذا اليوم
من أيام عيد النحر .

وعادت بنا السيارة واخذت سمتها الى مضرب خيام سفارة الجمهورية
العراقية حيث وجدنا حجاج العراق يحيى بعضهم بعضاً
في وجوه ضاحكة مستبشرة ثم زرنا مخيمات حجاج العراق واحدة بعد
الاخري وكانت على كثرتها قد جمعت ابناء العراق من جميع ارجائه
وتركتا هذه المخيمات والسيارة تمشي بنا الهوينا بين جموع زاخرة
وأشلاء الهدي المتناثرة وقارب الشواء الذي تملأ رائحته جوانب الفضاء
والقدور التي تغلي باطياط اللحوم والاطراف والفضلات المطروحة حول
المواقد هنا وهناك وبين الخيام وعلى أبوابها كانت الارجل والرؤوس مبعثرة
وفضلات الفرث متاثرة وفي جيئه وذهوب ترى رجالاً يحملون بآيديهم
قطعاً من اللحوم المختلفة ترى رجالاً يحملون فخذ الهدي وآخر يحمل نصفاً
منه وثالثاً قد اعجله عمله فقطع فخذين مما دون ان يسلخ الجلد عنهما ورابعاً
يسوق حماراً محملاً بالذباائح المسلوحة جلودها وقد سألت عن هذا الذى
يحمل على حماره اربع ذباائح سمان مرة واحدة فقالوا انه رجل من البادية
انه يأخذ هذه الذباائح فيقدها ويملحها ويتركها لحرارة الشمس حتى
تجف وتكون له ذخيرة طوال أيام الشتاء أو طوال أيام السنة يخرج منها
ما يكفيه لوجبة الطعام وقد تكون هذه المجموعة كافية له أو يعود فيأخذ
مجموعة ثانية .

ان النفوس اذا جاءت تقضم العظم وتمضغ الجلد واذا امعنت بالتشبع
عافت اطابيب الاكل واسرفت وبدرت وليس كل النفوس تفعل هذا فان
النفوس الحية المهدبة لا تقبل مثل هذا التبذير ان المبذرين اخوان
الشياطين . ليت كل من في الباية من القراء يفعلون فعل صاحب الحمار
فيقددون لحوم الاضاحي ويختزنونها ويخلصون السنة الناس من القول
فيها وادمغتهم من التفكير في شأنها .

كانت هذه الاشلاء المبعثرة والذباائح المتثاررة حديثة الذبح والتقطيع
لا تبعث منها رائحة ولا ترى عليها ذبابا فان فتيانا أشداء يحملون أدوات
التبيخ يطلقونها في الفينة بعد الفينة في الشوارع والمنعطفات فييد دخانها
صغر الحشرات ويخلصون الناس من شر مستطير يقطعون دابرها ولا
يتركونه ينقل الجرائم بين اجنحته وارجله .

كان هذا الاسراف والتبذير في لحوم الاضاحي موضع تفكير العتala.
من أصحاب الحل والعقد فان هذه التروءة الهائلة فيها غذاء هائل لقراء هذا
الوادي غير ان عادة هؤلاء القراء ظلت تنتقل معهم في أصلاب الزمن جيلا
بعد جيل لم تتغير يمشون بها على سهل واحد كما تمشي النملة في سيلها
يأخذون اطابيب بعض الهدى ويتركونباقي ليد الحدثان تفعل به ما تشاء
ان هذا بطر في النعمة واسراف في الثمرات التي رفع ابراهيم يديه الى
السماء يدعوه ربها من أجلها فاجابه ففاض الوادي بالخيرات والثمرات وما
رأيت يوما من الايام امتلأت به عين الفقر شيئا وريا مثل هذا اليوم ولكن
هذه العيون لا تنظر الى الآفاق البعيدة .

كانت الشمس تذرع السماء وكانت حرارتها هادئة وكانت الغلال
حول الجدران لطيفة السائمة وكان كثير من الحجاج يستقللون بظلها
ويستروحون بها من وهج الشمس وكانت الاسواق مفتوحة ومتربعة دكاكينها
بالبغائع التي تواردت الى مني من اقاصي العمورة بل اجتمع بعض باعة
المدينة المنورة وباعة مكة المكرمة في هذه السوق الجديدة وشرع الحجاج

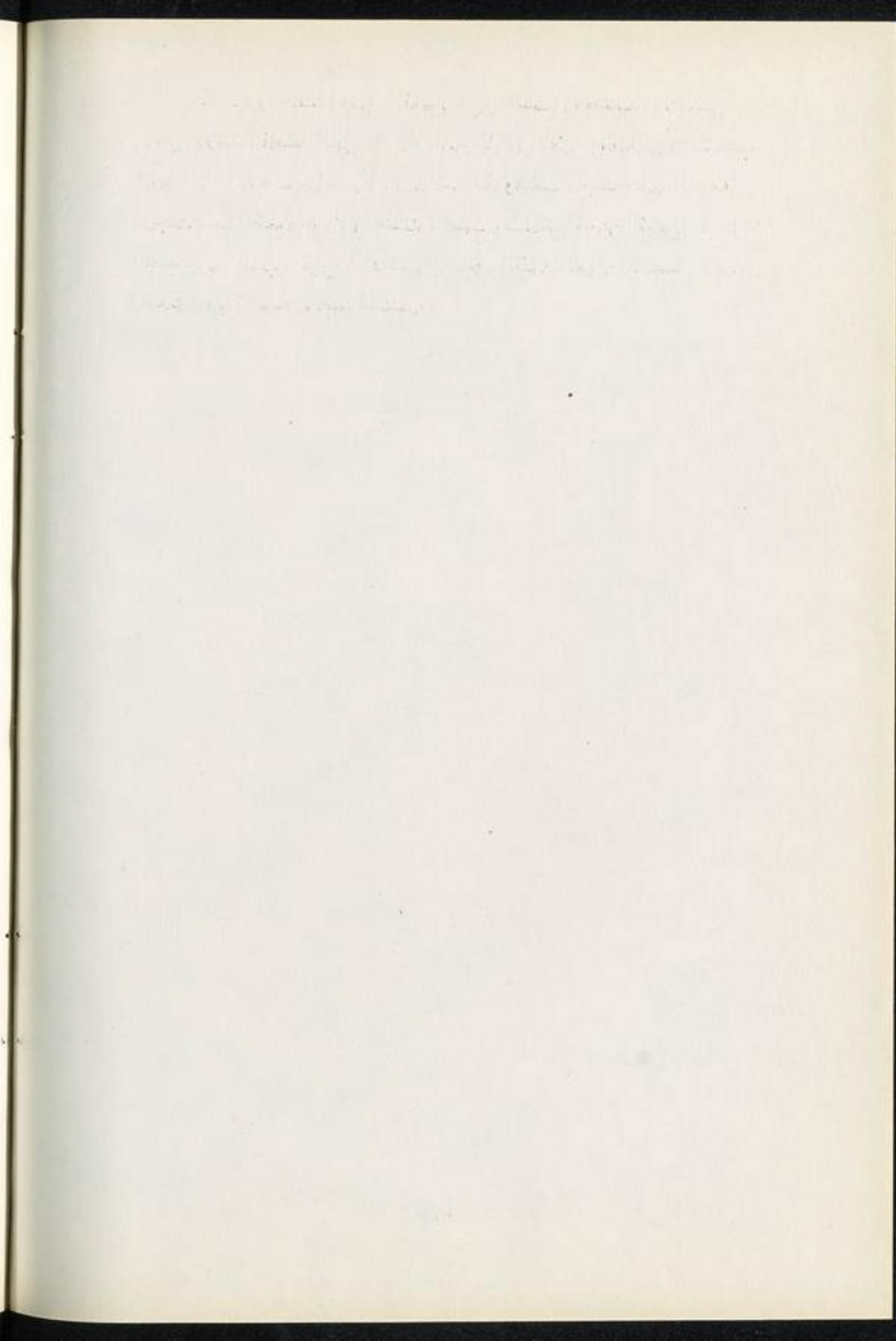
يتزودون بالهدايا المباركة من الارض المقدسة الى ذوي القربي والاصدقاء
ويتأهبون للعودة ولكن ما زالت الجموع الزاخرة تتدفق على مني ففي
ضحوة يوم العيد وتسير افواجا الى جمرة العقبة لرمي الجمار وكان الزحام
على اشدّه غير ان البشر كان يطفح على وجوه القوم . لقد اختفى الغضب
في هذا اليوم وتوارى عن الوجوه في أسواق مني وحول الجمرة الاولى ولقد
أحيت ان يدوم هذا الاختفاء ليتوارى وجه الغضب عن العالم الى الابد وان
يأخذ الانسان بيد أخيه الانسان .

ما اروع تعاليم محمد (ص) في تهذيب النفوس . لقد أغدق على نفوس
الامة الاسلامية هباته التي أكرمه بها السماء فتبعدت ظلمة النفوس واشرت
القلوب بنور ربها وتعالى الانسان الى صفو الملائكة في صفاء الروح والايثار
وصار الشيطان خاسا يكتس في مكاسب الريب وصار التعوذ بالله منه شعيرة
من شعائر الایمان .

أيكون اذن هذا العمود المرتفع وسط حوض صغير يتسلط فيه
الحصى رمزا للروح المثقلة بالأوزار روح الشيطان الممتلئة بالحقد والحسد
والشر والغضب وتكون هذه الاحجار السبعة رمزا للأوزار التي تنقل كاهل
الانسان وتكون تلك التكبيرات التي ترافقتها في كل رمية نعماء هادئا يذكر
الانسان بعظمته الخالق ويسر في اذنه بان آدم كائن صغير في هذا الوجود
العریض الضخم الذي لا تعرف حدوده ، فاذا قال الحاج مع كل حصاة
الله أكبر ادرك انه كائن أصغر فيدرك نفسه ويتواضع ولا يخال في الارض
مراحا ولا يبلغ الجبال طولا .

لقد خزم محمد بتهدئته كبراء النفس وغرورها وبسط لها في الهداية
صراطا مستقيما فمشت نفوس المسلمين في شرق الاسلام تشيء وتبدع
لان النفس المغروبة تجللها البلادة وينظر انفها في الفضاء كمثل السبلة
الفارغة تظل واقفة حتى تجف وتصبح هشيمها تذروه الرياح ، والنفس
المتواضعة يميل بها تواضعها فبتصر الارض وتفحص ما تحت قدميها لتشعر
كمثل السبلة المملوءة يميل بها الحب الى الارض يبحث عن مكان الانمار
والانماء .

لقد حرر محمد (ص) النفوس من الغضب والحسد والكبرياء
وربى الارادة الفاضلة التي لا ترى لذتها الا في الايثار والعدل ولا تستطيب
النوم الا اذا فتحت بابا من أبواب المعرفة ووضعت رجلها على درجة من
درجات سلم الطموح ان في اجتناث الغضب والكبرياء من النفوس وانتزاع
الحقد من القلوب وتربيه الارادة بين يدي العقل تكونين شخصية الانسان
وهكذا ربى محمد شخصية المسلم .



الْأَضْجَانُ

بدأ تشرع الفداء وبدأت معه الاضحية ونجم من وراء ذلك عيد
الاضحى لكثره ما يضحي فيه وبدأت مشكلة كبيرة هي مشكلة الاضحى
وتعقدت حين بدأت افئدة الناس تهوي الى هذا الوادي ويتكاثر عددها وظلت
هذه المشكلة تستقل في أصلاب الزمن باسم ما خصصت له وهي ان الهدي لله
تساوله ايدي فقراءه الذين يعيشون حول البيت العتيق ويستظلون بظلاته
فلا تمتد اليه الا يد فقير محتاج فاذا اكتفى هذا الفقير وشبع بطنه فقد تم
كل شيء وتركت هذه الضحايا قلت او كثرت في العراء للتفسخ والاندثار
وتفریط في ثروة ما بعده تفريط .

لقد تقارب رحاب العالم حتى أصبح للمسافر اضيق من كفة انحصار
وصار المسلم في الصين والهند وسيريا الذي كان يقطع الطريق في أشهر
معلومات يقطعه اليوم في أيام معدودات وتكتثر حاجاج بيت الله الحرام
وازدهر الوادي واترى أهله وقل فقراءه وكثير الفداء حتى بلغ هذا العام

ما يقرب من نصف مليون رأس في حدود الغلن من الضأن والمعز والبقر والابل وفتحت عيون الناس على هذا العدد الضخم وصار التفكير في شأن هذه الحيوانات المتأثرة في العراء موضع اهتمام العالم الاسلامي وأولى انحل والعقد في هذه البلاد وأخذ كثيرون منهم يتربدون في ابداء آرائهم ، أترك هذه السكينات الكبيرة والثروة العظيمة مطروحة في الارض تأخذ منها أيدي الفقراء او شالا وتطرحباقي لآفات الطبيعة نفسها وتجعل منها خطرًا على الصحة ثم تعدها ترابا تذروه الرياح لا شيء الا ان الشريعة خصتها بالفقراء وليس لاحد ان يتدخل في شأنها أم يتخذ بشأنها ما هو الاصح فيكر نفعها حتى يغمر العام كله ؟

وصار تنفيذ خطة عملية يتدرج بين الاحجام والاقدام وكان الاحجام متأثرا بالرأي العام الاسلامي الذي لا يستند الى أصل الشريعة وإنما يستند الى أن هذا الهدي ملك للفرد الذي أهداه وخرج من يده الى يد آخر يتعلق بها حق الغير وهو رأي ضعيف لا يقف أمام المنطق لأن الشريعة الاسلامية اسمى من ان تقف بجنب التبذير والتفرط واسمى من ان تقف موقف الجمود وهي الصالحة لكل زمان والتي يمكن تطبيقها في كل مكان وهي التي تجعل اتخاذ التعليل بالصلحة دليلا من أدتها وبعبارة اوضح هي التي تراعي المصلحة العامة عند النظر في الاحكام والبت بها اذا كانت المصلحة العامة ترتكز على المنطق وتفق مع روح الشريعة والعدل ولا تعارض دليلا من أدتها وان تكون من الضروريات المقتضية للمحافظة على الدين والنفس والعقل والنسل والمال وما تتطلب الحاجة لصلاح العيشة .
أليس التفكير في شأن هذه اللحوم وتوابعها التي ستولاها ايدي البلي من مقتضيات المحافظة على المال ومقتضيات الحاجة لصلاح معيشة الفقراء ؟

لقد وضع الشريعة الاسلامية قاعدة أصولية سامية نافعة تلك هي المصالح المرسلة والمصالح المرسلة يعرف تطبيقها ولادة الامر والسلطة التي تنفذ أحكام الشريعة وتوجه العمل وجهته الصالحة ومن ذلك جواز الاستفادة بلحوم الاضاحي . ولقد صدرت فتوى بهذا الشأن من علماء الدين في المملكة

العربية السعودية وعلى أثر صدور الفتوى أصبح التفكير جدياً في شأن الهدى وتألفت اللجان وتقدم الخبراء بتقاريرهم واشترطوا فيما اشترطوه الاحصاء الدقيق الواجب اتخاذه في هذه الامر لمعرفة مقدار ما يضحي به في كل عام فان عدد الضحايا منوط بوفرة عدد الحجاج الذى يختلف بين عام وعام وانه غير احصاء دقيق ومعدل معلوم لا يمكن الاقدام على مشروع ضخم مثل هذا المشروع الذي يكلف القائمين به مالاً وفيراً دون مقابل فانه مادام لله وللصدقات فانه سيفى لله وللقراء في خلال الحرم ٠

انه يحتاج الى خبرة ولا بد لهذه الخبرة من الاختصاصيين في صناعة اللحوم أو المخلفات والاستفادة منها ولا بد لكل ذلك من مصانع تساعد ودوائر تؤسس ولا بد لحجاج المسلمين ان يقبلوا بالرأي النافع في هذا الشأن فان واقع الامر شهدناه بأعيننا ورأينا كيف تبدد نرورة تبديدها ليس من الخلق الكريم وتبذيرها لا تعرف به شريعة من الشرائع ورأينا كيف يمكن أن تكون هذه الاشلاء المتاثرة خطراً على صحة أهل البلاد وصحة الحجاج لو لا تلك التدابير الصحية المتخذة التي تحول دون وقوع الخطير ٠ ان كثيراً من الحجاج لا يكتفون بفداء واحد بل يغذى أكثر من ذلك وقد يختص لنفسه ولا صدقة وذويه بوحدة ويتركباقي للقراء وعلى الفقير أن يعلم أن الله لا يحب المسرفين فإذا تناول وشلاً أو ذبيحة من المجزرة التي ستعد لهذا الامر أو تناول أكثر من ذلك بحيث يكفيه أيام التشريق ثلاثة في مني فليكتف بذلك فانه اجدى عليه وعلى قراء المؤمنين من بعده ٠ لقد رأيت كثرين يحملون أربع ذباائح فعلمتم انهم يجحفونها ويخرنونها للعام كل أو بعضه وانني لا اجد حرجاً على هؤلاء فان التجحيف طريقة من طرق الاقتصاد التي تعين على الاستفادة من المشروع وهذه نعمة ساقها الله الى رب عائل اسرة هي في حاجة اليها ٠

لقد كان العرب يسوقون الهدى الى بيت الله الحرام ويضحون ويأكلون ويتركون ما بقى للقراء أو يتولون أمورهم بأيديهم ويجحفون اللحوم وينتفعون بالجلود واصوات الفتن وشعر الماعز ووبر الابل ويحدد فقاراً لهم

اللحوم ويسمون ذلك قديداً • والقديد من أطيب المدخلات في بلاد الغرب •

ان الاقدام على مشروع الاستفادة من لحوم الاضاحي اقدام سام وسيجد بعض العقبات ولكن تهيئة الرأى الاسلامي العام في صحته من وجهة الشريعة والمصلحة العامة والنفع الكبير الذى يعود على الفقراء ستحتفظ كل صعوبة وتزيل كل عقبة وسينظر العالم أجمع الى المسلمين نظرة فيها الاجلال والاحترام فيما اذا نجح هذا المشروع في جواربirt الله الحرام •

انا في زمن عرفت فيه قيم الاشياء وانه لا يوجد شيء في الوجود الا وتكمن فيه اشياء تعين على انجاز فوائد أخرى منه وان في شريعتنا ما يعين على ذلك وافضل ما في صفات المسلم ارادة الخير ولقد ربي محمد (ص) اراده المسلمين على الاقدام في انجاز العمل الصالح وانتظار الثمرة التي لا تراها العين بعده وكل أعمالنا الصالحة يهدف اقدامنا عليها الى رضا الرب واستغلالنا في ظل الرحمة ودخول الجنة وهي ثمرة تصدق عقولنا بوجودها ولا تراها اعيننا • هكذا رببت ارادة المسلم وقد علقت الارادة بالقدر خيره وشره فالقدر مكتوب والمقدر صائر لامحالة واذ آمن المسلم بالقدر أقدم دون تردد لانه واثق من النجاح فيما اذا كان النجاح مقدراً واذا كان الفشل مكتوباً فلا يهم بوقوعه لانه مقدر ولكن عليه ان يقدم في كلتا الحالتين وعلى هذا التأسيس اندفع المسلمون في مشارق الارض يبدعون وينشئون فان الابداع لا يأتي الا بالارادة الصامدة والعزم الاكيد ان الانانية تموت اذا كان الشخص يحمل بين جنبيه ارادة قوية واذا اراد المسلمون ان يعطوا الفداء اسمه الكامل وهو التضحية فليمحوا اذن من صدورهم الانانية المطلقة ويعينوا على انجاز هذا المشروع وليعلموا ان في الضحايا تضحية •

ان على المسلمين ان يشقوا حجب الدهور التي غطت عيونهم وينظروا بعد ذلك فضائل الرعيل الاول من العرب المسلمين كيف صعدوا ذرى المجد وكيف علموا الناس مكارم الاخلاق وكيف أخمدوا نيران الشرك وأخمدوا أنفاس الظلم وفتحوا لابتي باب الحرية لقد علموا الناس الكرم والوفاء وعلموا الناس صدق الحكم ومعرفة مصائر الامور •

ان افضل شيء في فعال المرء هو أن يدخل السعادة في قلوب الفقراء
وابدع شيء في الحياة ان يرى صاحب المعروف عين من احسن اليه تلمع
بالشکر والتباء ان الهدى هبة من الغنى الى الفقر وخير ما في الهبة حسن
تقديمها • وعلى المسلم ان لا يقدم هديته جيفة تلقى في العراء •

ان الهدى فداء لاذار احتملتها الكواهل التي كانت تنوء بحملها
فلماذا لا يكون الهدى ساماً في لفظه ومعناه ولماذا لا يقعد أو يجف أو يحمد
ويوزع على الايتام في المعاهد وعلى الفقراء في بطون الوديان وعلى شعاف
الجبال لماذا لا تباع جلود الهدى واخلافه وعظامه فتحول الى دراهم وتنفق
في سيل الخير والبر وانشاء الملاجئ للايتام والعجزة وابناء السبيل كل ذلك
ممكن وكل ذلك في مقدور المسلمين ان يتعاونوا جميعاً على تحقيقه انه
منوط بقوه الارادة التي تفعل الخير ومنوط بالعزم وصدق النية وسيأتي
اليوم الذي يفرح به المؤمنون ويحتفل العالم الاسلامي بمصانع الهدى التي
تقام بجوار بيت الله الحرام وسيأتي اليوم الذي يفهم فيه الحاج مقاصد حجه
ويقدم هدياً صالحـاً في واد ذي زرع •

يَامُ النَّشْرِ قِيلَاتَه

مضى يوم النحر يوم عيد الأضحى وتلتله أيام التشريق وهي الأيام الثلاثة التي يمكن فيها الحجاج في منى لرمي الجمرات الثلاث وكانت الأيام مشرقة والجو لطيفاً هادئاً النسمات والناس يسرون في الشوارع جيئة وذهوباً يتظرون أن تزول الشمس عن كبد السماء كي يشرعوا في رمي الجمرات الثلاث بادئين من الجمرة التي تلي مسجد الخيف فيرمي الحاج كل جمرة بسبع حصيات ويكبر مع كل حصاة ويقف عند كل جمرة يدعو ما يشاء ولا يقف عند جمرة العقبة . وهكذا هو ترتيب هذه الشعيرة من شعائر الله قرب المسجد الحرام ولكن كيف تستطيع الوقوف أو كيف تستطيع أن ترمي الحصيات بهدوء وسلام بين هذه الآلوف المؤلفة والأمواج البشرية المتابعة والحماسة البالغة بعض الذين يجهلون مناسك الحج ومقاصده والذين يظنون أن الشيطان كامن في هذا العمود المرتفع المطلبي بالمحض وإن الشر كل الشر في هذه الكومة التي يحيط بها حوض تجتمع

فيه حصيات الحجاج حتى بلغ الامر بهؤلاء أن يقذفوه بكل ما يرونوه تحت أرجلهم ظناً منهم أنهم غلبوه على أمره وفهروه فلا يوسوس في صدورهم بعد ولا يحيد بهم عن الطريق المستقيم . ولم يعلموا أن النفوس التي تعودت على الشر هي مكمن الشيطان وهي التي يجب أن ترجم وترجمها لا يكون بهذه الحصيات وإنما بتهدئتها وفطامها عن فعل رذائل الأمور .

وفي وسط هذا الازدحام على المرء ان يسرع ولا يبطئ حتى يصل الجمرة الثانية فيفعل مثلما فعل بالجمرة الأولى ولكن انى له الاسراع والتدافع يحيط به فيفقد المرء صاحبه الذي كان يسير معه أو يمسكه بثوبه أو يده كي لا يفلت منه فإذا انفلت فلا يستطيع اللحاق به الا عند الجمرة الثانية حيث يلقى مالقيه في الجمرة الأولى . إنها مشقة وإنها متعة أن ترى الناس يتسابقون إلى قذف الشيطان بمحضيات سبع فتدرك ان هؤلاء إنما يريدون أن يقتلوا الشيطان الكامن في نفوسهم . وكلما رأيت رجالا بالغا في الحماسة في قذفه حصياته علمت أن وزره أثقل من رأس هذا العمود الذي يكمن تحته ابن شيخ الابالسة . مسكنين وليس سبب له آدم المعصية فطرده الله من الجنة فصار (فوضويا) متطرقاً مثله كمثل أولئك الفاشلين في الحياة الدنيا اذا فسلوا في أعمالهم رکعوا الى الفوضى واستقبال الآراء الواقدة المتطرفة ولا يطيب لهم العمل الا بالهدم .

لقد تركنا الجمرات الثلاث وطاب لنا ان نسير في الاسواق وفي هذه الفلال الجميلة التي تخاللها نسمات عذاب من نسمات الصحراء الباردة وبين الباعة والحجاج المشترين الذين لا يشعرون من جمع الهدايا الصغيرة والكبيرة التي يستافق إليها المستقبلون عند عودتهم إلى بلادهم فلقد بلغ الهدى محله فلا بد من هدي آخر يبلغ محله آخر .

لقد انقلبت مني إلى سوق تجارة كما كان العرب يفعلون قبل الاسلام يأتون إليها ويقيمون أسواقهم للتجارة والشعر والتكتائر والتفاخر أما اليوم فقد أقمت سوقاً للتجارة فحسب وقدت سوق القريض والنقد والتفاخر والتكتائر وقدت شيئاً كنت أتمناه ولا أزال أرجوه ولعله يتحقق لقد

كنت أرجو أن يعود المسلمين من عرفة بعد تقرير أهم ما يدور في خلد علمائهم ويجلسوا في لجان متفرعة يتدارسون أحدث ما يحتاج اليه المجتمع الإسلامي في تكوينه وتقاربه وتحابيه ويضعون الحلول للمعطلات الاجتماعية التي تتطلبها الحضارة ويتداولون الرأي في أشد الأمور تعقيدا في الحياة الاقتصادية والسياسية التي تواجه الامم الإسلامية ٠

وطاب لي أن اتجول بين الخيام وأرى مضارب الحجاج فانه مشهد رائع قل أن تظفر به الانفس الا في مثل هذه الايام الحرم الآمنة ، انك تشهد الامم الاسلامية بلغاتها وأجناسها ونظمها وطبعها وعاداتها لقد تهيأت لاداء الفريضة ومنها من شدت حيازتها فنظمت أمرها وجعلت للحج أميرا على رأس بعثة تقوم على تنظيم شؤون الحجاج الذين يعودون اليها وأخذت ترعاهم كما ترعى الام البرة أولادها فلا يفقدون شيئا ولا يغبنون في معاملتهم مع شركات النقل ولا تحدث لهم مشاكل في الطواف والسكن فهم آمنون مطمئنون مستندون الى اマارة والى نظام الدولة في البلاد يرثاحون الى حجهم ولا يجدون فيما ينفقون حرجا ٠

إِمَارَةُ الْحَجَّ

لقد بلغ حجاج العراق في هذا العام بعدهم ما ينفع على أربعة عشر ألفاً كان من الممكن أن تكون قافلة سياراتهم منتظمة مريحة مثل قوافل بعض الأمم الإسلامية فإن إمارة حج للعراق وللجنة خاصة تشرف على شؤون الحج تؤلف في كل عام مما يضاعف عدد الحجاج العراقيين ويرغبهم في زيارة بيت الله الحرام ويحفظ لهم من وقوع مشاكل لا قبل لهم بها تقدّهم من تعسف شركات النقل وخروجهما على الانظمة وقوانين الدولة وتخلاصهم من (الحملدارية والعカامة) والدلالين الذين يتزرون أموالهم ولا يقومون بخدمة ترضيهم وتحفظ كثيراً منهم من الضلال وفقدان الأوراق وضياع الأموال وتكون مع الإماراة بعثة طيبة وبذلك تتعاون هذه البعثة مع الإماراة والسفارة على تذليل الصعاب والنظر في شؤون كثير فيؤدي الحاج مناسكه مثل ما يؤديها أخوانه المسلمين من رعايا الأمم الأخرى *

وان إمارة الحج ليست بدعة فقد انشئت في مشرق الإسلام ففي السنة

الناسعة من الهجرة وفد الى مكة حجاج المدينة من المهاجرين والانصار
 والقبائل تحت امارة ابي بكر (رض) فكان أول أمير للحج في الاسلام وانتهى
 أبو بكر الى مكة وفيها المشركون يؤدون مناسكهم على ماورئوه من تقاليد
 آبائهم وال المسلمين على ما أبان لهم أبو بكر وانهم كذلك اذ وافاهم علي بن
 ابي طالب (رض) مندوبا من المدينة ليعلن للناس نزول الوحي بسورة براءة
 فيها : ألا يحج بعد عامهم هذا مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وألا عهد
 لمشرك ولا ذمة الا أحدا كان له عند رسول الله عهد وعهده الى مدهه وان
 الله أمر بجهاد الشرك من نقض من أهل العهد الخاص ومن كان لا عهد
 له فأجله أربعة أشهر يرجع فيها كل قوم الى مأنهم ثم لا عهد لمشرك بعدها .
 وما يروى عن مواكب الحج وامارته أن الركب العراقي استأنف
 حججه سنة ثمانية وست عشرة واصطحب محملاه المعتمد وهداياه الى اشرف
 مكة وصدقاته الى فقراها وقد دعى له بالبقاء والعز على قبة زرم في ليلة
 الجمعة من اليوم السادس عشر وكان لحكومة العراق ترتيب خاص في
 مسجد مكة يجتمع فيه بعض القراء المرتين فيقرأ القارئ منهم جزءا خاصا
 من المصحف ويقرأ آخر غيره وغيره كذلك وبذلك يختخون القرآن ثم
 توزع العطايا المرتبة على أصحابها سنويا وقد احتفل بهذا المجلس في تلك
 السنة بعد أن قطع عدة سنوات وهو دليل على أن موكب العراق كان مستمرا
 حتى حدثت حوادث قطعه عن الاستمرار فلما زالت عاد كما بدأ واستأنف
 هداياه وصدقاته واعطياته .

وهذا نوع من الصلة الوثقى بين أهل مكة واطراف المالك الاسلامية
 فيها تقارب وتحاب ولكنها من طراز آخر كان يتضيئ مجتمع ذلك الوقت
 وفي هذا العصر الذي تغيرت فيه تقاليد المجتمع في كل مكان واقتضت
 الضرورات والمصالح نوعا آخر من التعارف والتآلف والتعاون والبحث
 والدرس والخروج من كل ذلك بنتائج في المادة والمعنى تعود على المسلمين
 في اقطارهم المختلفة أصبح اقتضاء امارات الحج واتخاذها سبلا غير تلك السبل
 من ألزم الامور لاداء فريضة الحج ومن ذلك أن يكون الامير من سرة

ال القوم ومن علمائهم وفي موكبه جلة من العلماء يتأبطون بحوثهم ودراساتهم
ومناهج حلقات دراسية في كل شأن من شؤون البلاد يتداولون وجهات النظر
ويعرضون نتائج أعمالهم وبحوثهم في مؤتمر عام في موضوعات مدرستة
ذات نفع عام وتؤلف الكتب وتنشر النشرات وتوزع على الحجاج في
لغات متعددة وآراء ناضجة واضحة ويعود القوم متقلين بالفوائد الكثيرة ٠

ولا يأس أن تحمل هذه المراكب من الهدايا ما يقدم لعلماء مكة
وسراتها ومن الاموال والصدقات ما يوزع على الفقراء فيجمع القوم بين
تالد عزهم وطريق مجدهم ويصبح للحج رونق مشرق تظهر فيه عزة
الاسلام وقوته ٠

لو فعل المسلمون هذه الفعاليات الفاضلة لما ظهرت بدعة في الاسلام ولا
نبطت نحلة تحرف معانيه عن مقاصدها ولا ضعف الاسلام هذا الضعف
الذى لم يره وليس من طبيعته ولكن لم يلاده قوة لا تقف أمامها أية مبادئ
وأفداء غريبة عنه ولتحتاج الشباب المسلم بالعزيمة الصادقة والفكر الوقاد
المبدع ٠

الطواف والمطوفون

الطواف والسعى ركنان من أركان الحجج بل هما من أهم ما يعني به
المسلمون ويتأهبون له . والطواف أربعة أنواع طواف القدوم ويسمى
طواف التحية وطواف الدخول وكيفية أدائه ان الحاج اذا وصل الى مكة
ترك امتعته في مكان امين ودخل من باب السلام - باب بنى شيبة - ثم
يدعو الله بدعاء مكتوب في الكتب الكثيرة المتوفرة حول الحرم التي تبرع
بكتابتها الادباء والفقهاء ثم يقصد الحجر الاسود فيقبله ان استطاع فان
لم يستطع استلمه فان عجز عن ذلك اشار اليه بيده ومن امام الحجر
الاسود يشرع في الطواف حول الكعبة فاذا اتم سبعة اشواط صلى ركعتين
عند مقام ابراهيم .

ومثل طواف القدوم طواف الافاضة ووقته نصف الليل من ليلة النحر
بعد النزول من غرفة وافضل اوقات أدائه ضحوة النهار من يوم النحر
ويتمد وقته الى آخر شهر ذي الحجة فان اخره عن ذلك لزمه فدية

وطواف الوداع وسمى بهذا الاسم لانه توديع البيت العتيق ٠ وطواف الطوع وهو مستحب لكل حاج اذا دخل المسجد الحرام ان يغتنم الفرصة فيطوف حول الكعبة اما السعي فهو سبعة اشواط ايضا يبدأ بالصفا ويختتم بالمروة وذلك ان يقطع الحاج المسافة بين الصفا والمروة سبع مرات سيرا على الاقدام الا اذا كان غير قادر فيسعى محمولا ويدعوه الله ما يشاء في سعيه ٠ هذا كل ما يخص الطواف والسعي في اداء فريضة الحج ولو وقف الامر عند هذا الحد لكفى ولكنها مرتبطة باللطوف الذى يقود الجماعة ويرفع اكتفه بالدعاء فتردد اقواله فهو القائد وهو الدليل وموجد المأوى والطعام والمعين على السفر والاقامة والمساعد في المرض والصحة ٠ وما كانت مهنة المطوف موجودة في الجاهلية ولا في صدر الاسلام فان الحاج يؤدى شعائره بنفسه ويدعو لنفسه دون قيادة او دلالة واخال ان الازدحام لم يكن قبله ولا بلغت كثرة الحجاج في صدر الاسلام مثل هذا العدد للهم الا في حجة الوداع فقد ذكر التاريخ انها بلغت مائة الف مسلم وهو عدد اهتزت له ارجاء الجزيرة ومهمها بلغ العدد كثرته فلا حاجة لمطوف ٠

ويقول رواة التاريخ ان مهنة المطوف شأت في عهد الشراكسة بمصر وذكروا ان السلطان قايتباي من ملوك الشراكسة حج في عام ٨٨٤هـ وان القاضي ابراهيم بن ظهيره تقدم لتطويفه وتلقنه الادعية ومن هنا شأت هذه البدعة وصار المطوفون يلقنونها العرب والاجماع الذين لا يحسنون العربية ٠ والحقيقة التي لا مرية فيها ان كثيرا من المسلمين لا يحفظون مناسك الحج مع بساطتها وتذهبهم هذه المشاهد الرائعة فيعصمون بمطوف يقودهم فمنهم من يردد دعاءه ومنهم من يتذكره يقول ما يشاء وينتهي متى ما يشاء وقد رأيت كثيرا من المطوفين يقودون عددا كبيرا متماسك الابيدي كيلا يفلت منهم احد وسط هذا الزحام وهم يتبعونه وتبقى هذه الصفة ملزمة لهم في طوافهم وخروجهم مشيا على الاقدام في منى او سيرا اليها من مكة في مستهل الحج وكثر من المطوفين يمشون تحت ظلال راية ذات

لون خاص مكتوب عليها اسم المطوف لكي تكون هداية لمن يضل من هذا الجمجم الترابط . وقد اخبرني بعض الرواة ان المطوف اصبح لقبا يرثه الابناء عن الاباء او يكتسبه الشخص بعد ان يمضي عليه في هذه المهنة خمسة عشر عاما وبعد ان يدفع مبلغا معينا ضريبة المهنة للحكومة .

والمطوفون حول البيت الحرام ينقسمون كما اخبرني بعض الرواة الى ثلاثة اقسام . منهم قسم يختص بحجاج العرب وحجاج جنوبي افريقيا وايران وقسم آخر يختص بحجاج الهند وباكستان والقسم الثالث يختص بحجاج جاوا واندونيسيا والفلبين والملايو . وقرأت في صحيفة البلاد التي تصدر في البلاد المقدسة انهم ستة طوائف لقد كانت مهنة المطوف طوافا حول الكعبة وسعيا بين الصفا والمروة والوقوف على عرفات ثم رمي الجمرات وتقديم الفداء ولم تعد هذه الشعائر غير انها تعدتها الى أكثر من ذلك فنشأت عن ذلك مشكلات لا زال اصحاب الحل والعقد يفكرون في حلها . فقد استغل اسم المطوف دلالون في البلاد التي يفد منها الحجاج يوهمون انهم سيجدون لهم مطوفا ويذكرون اسماء وينالون من الحاج الذي لا يعرف أحدا غير الله والذى جمع مالا ليستطيع اداء الفرض الذى أوجبه عليه العقيدة فيسلم ماله الى دلال يظن به ظن الخير وهؤلاء الدلالون يعملون عند بعض شركات النقل في العراق مثلا ويرافقون الحاج الى بيت الله الحرام متخلين صفة - الحمدارية - ويأخذون من هذا الطائع لله مبلغا معلوما لقاء خدمة يعده بها ولكنه لا يبالي ان ينقض عهده مادام ملأ جيده ويقع كثير من الحجاج المغلوبين على أمرهم في شركة هؤلاء وأمثالهم .

فإذا كانت هذه مشكلة لحجاج العراق فانها ايضا معضلة بجوار بيت الله الحرام فالفت لجنة وقدم مشروع وبحث الامر بشأن المطوفين ورفع مستواهم حتى يستطيعون ان يؤدوا أعمالهم على أكمل وجه وكان المشروع المقدم عين الحد الاعلى من الحجاج بالنسبة لكل مطوف في الطوائف الستة الموجودة الان أما المطوفون فانهم يشكرون أمرهم من الدلالين مثلما يشكون الحجاج من الدلالين والمطوفين وفي كلتا الحالتين يحتاج الامر الى علاج فان

مقاصد الحجج نيلة يجب ان لا تشوّبها شوائب وان تعين لجنة تقوم على
شؤون الحجاج كل عام في العراق أمر فيه فائدة ومنافع كثيرة للناس .

لقد كان المطوف حين نشأت هذه المهنة في جوار البيت العتيق القاضي
ابراهيم وكان الرجل الذي طاف به القاضي السلطان قايتباي واستمرت هذه
البدعة تنتقل في أصلاب الزمن حتى أصبحت مهنة يعيش عليها كثيرون
وتتغیرها اسر في البلاد التي يسير منها الحجاج والتي يقدون عليها وكان
المأمول ان يضيق الدلال والمطوف الى اجر الدنيا اجر الآخرة وان يأخذوا
اجر الحاج حلالا طيبا .

ان الحاج لا يخسر فهو قد اعد هذا المال لينفقه في سبيل الله ولكنه
يعز عليه ان يغبن . انك اذا اوليت الحاج يدا فقد اعنته على فريضة الله
وانها لكرامة ينعم الله بها على المؤمنين الصادقين من عباده انها كرامة لا تباع
لا تشتري بالذهب ان التعامل بها لا يكوز الا بين نفس طيبة وقلب طاهر .
ان فضيلة الاسلام تكمن في تربية النفوس وتربية الارادة الصادقة التي
تغلب على الصعب ان كل ما يتصل بهذه الفريضة يجب ان يكون صافيا
ومعينا على أدائها . ان المرء باصغريه قلبه ولسانه فإذا منح الله الانسان قلبا
قويا صافيا ولسانا طيبا فقد وطأ له أكناf الدين وأقل عليه الحفظ يحيط به
من كل جانب ولهمجت الاسن بذكره وطابت النفوس الى التقرب منه والتعامل
معه . القلب الطاهر هو الحسب النبيل الذي يتسمى اليه المرء وان المحبين
الذى لا حسب له في الدنيا هو الذى يغبن الناس ويتلون في الحياة . ان كل
شيء في الحياة باطل الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق
وتواصوا بالصبر لقد اتجهت تعاليم الاسلام الى الصدق وجعلت الدين المعاملة
وسلوك المرء مع اخوانه منبني آدم وجعلت الارادة الصادقة قائدا يقود المؤمن
إلى فعل الفضائل فان الارادة القوية هي شخصية المسلم ولذلك لم يتبع
المؤمنون في حياتهم في صدر الاسلام لان الارادة كانت قوية وكانت شخصية
المسلم متفوقة فكان مجتمعا فاضلا مستريحا واما ضعفت الارادة بدأ التعب
على المجتمع لان الذي تسيره اراده الغير يصل متعبا في حياته .

اذا اختلت المعاملة بين افراد المجتمع انحط المجتمع عن مستوى الذى
ارادته له الحياة وتسبت كل اراده في تسيره وارجاعه الى صوابه ولذلك
اتجهت تعاليم الاسلام الى نقطة واحدة هي الاعتزاز بالشخصية • وجاء القرآن
ال الكريم بالعزه والكرامة في قوله « ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون » وظل
المسلمون في علوهم وسموهم حتى ضعفت ارادتهم وشخصيتهم •

ارکان الحج و شعائره و مقاصد

كل ما في الحج شعائر معدودات في أشهر معلومات واركانه اربعة
الاحرام والطواف والسعي والوقوف بعرفة أما الاحرام فيكون من الميقات
وهو مكة لاهل مكة وذو الحليفة لاهل المدينة وذات عرق لأهل العراق
ولمن يمر بهذا المكان ورایخ لأهل مصر ولبنان وفلسطين والمغرب وقرن
المنازل لأهل نجد ويعلم لأهل اليمن ولمن يمر بهذا المكان وعند الاحرام
يلبس المرء ثوب الاحرام وهو الازار والرداء ومن المستحسن ان يكوننا
نظيفين ایضـن وان يلبـس نـعلـا غـير مـخـيط فـاذا احرـم الحاج صـلـى رـكـعتـين بنـية
الاحرام ويلـبـي يـقول لـيك اللـهـم لـيك لا شـرـيك لـكـ لـيك انـ الحـمـدـ والنـعـمةـ
لـكـ وـالـمـلـكـ لـاـ شـرـيكـ لـكـ

والطواف هو أن يطوف المحرم حول الكعبة سبعة اشواط يبتدىء
بالشوط الاول من الحجر الاسود جاعلا بناء الكعبة على يساره ويدعو الله
ما يشاء أو يقرأ من القرآن ما يحفظ

أما السعي فإنه يأتي بعد الطواف وذلك أن يسعى الحاج بين ربوة الصفا وربوة المروءة سبع مرات أي سبعة أشواط مبتدئاً من الصفا يهلال ويكبر ويدعو الله ما يشاء ٠

والركن الرابع هو الوقوف بعرفة وهو الركن الأساسي في الحج لقول النبي (ص) «الحج عرفة» ويرى جمهور العلماء أن وقت الوقوف يبتدئ من زوال اليوم التاسع إلى طلوع فجر اليوم العاشر من ذي الحجة في أي مكان من عرفة ومن الأفضل أن يكون عند الصخرات الكبار المنبسطة في أسفل جبل الرحمة وهو المكان الذي وقف فيه النبي في حجة الوداع ٠

هذه هي أركان الحج في أبسط أشكالها ويبدأ الحج من يوم التروية وهو اليوم الثامن ويسيّر الناس في اليوم التاسع إلى عرفة من منى ثم ينفرون في المساء إلى مزدلفة ويقيمون فيها جزءاً من الليل أو يبيتون فيها يذكرون الله عند المشعر الحرام ثم يفيضون إلى منى لرمي حجرة العقبة بسبع حصيات صغار ٠ ويقطع الحاج التليلية مع أول حصة ثم يذبح ما شاء من النعم ويتحلل ويحلق ثم يطوف بالبيت دون رمل ولا سعي ويسمى هذا الطواف طواف الأفاضة وأول وقه نصف الليل من ليلة التحر بعد النزول من عرفة وأفضل وقت يؤدّيه في ضحى النهار ويستحب فعله في أي يوم من أيام التحر وتعجيله أفضل وإذا زالت الشمس من اليوم الثاني يرمي الجمار الثلاث بادئاً بالجمرة التي تلي مسجد الحيف فيرمي كل واحدة بسبع حصيات يكبر مع كل حصة ويقف عند كل جمرة داعياً ما شاء ولا يقف عند جمرة العقبة ٠

فإذا كان اليوم الثالث رمي الجمار بعد الزوال وفعل ما فعله في اليوم السابق وإذا أراد أن يتّجه إلى مكة قبل الغروب وأن طلع الفجر وهو يعني لزمه الرمي وجاز قبل الزوال ٠

فهل هذا كل ما في الحج؟؟ انتقال وطواف وسعي ووقف واقوال وافعال وزيارة إلى الكعبة والآماكن المجاورة لها ٠ وهل هذا كل ما يقصده الشارع من الحج ٠ لقد ضعف الإسلام وضعف المسلمين وقصرت مداركه عن مقاصد الحج فصار الحج في نظرهم آخر فريضة تؤدي بعد أن استمروا

على أداء فريضتين اثنتين فقط فريضة الصلاة وفريضة الصيام وتناسوا فريضة الزكاة دون مبرر وصار لا يحج من المسلمين الا شيخ أو شاب جاء بوالديه أو باحدهما برا بهما أو لعجز أو كبر ٠

ان مقاصد الحج كثيرة واعظم مما يتصوره الضعفاء العاجزون انها مظاهر من مظاهر قوة الاسلام قبل كل شيء وحسبك ان ترى ذلك فيما وقع في السنة السادسة للهجرة عندما اراد النبي (ص) زيارة مكة فاخبر المسلمين انه يريد العمرة واستقر الاعراب حول المدينة ليكونوا معه خوفا من ان تردهم قريش عن عمرتهم فابتدا الاعراب وتخلعوا وقالوا : « شغلتنا اموانا وأهلتنا فاستغفر لنا » فخرج النبي بمن معه من المهاجرين فلما علمت قريش بمقدمه ثارت ثائرتها واجمعت رأيها على ان يصدوا المسلمين عن مكة وتجهزوا للحرب وادعوا خالد بن الوليد في مشى فارس طليعة لهم ليصدوا المسلمين عن التقدم ولكن النبي أصر الا ان يزور الحرم رغم كل مقاومة وأمر اصحابه بالنزول اقصى الحديبية فجاءت رسول قريش تستطلع عن سبب مجيء المسلمين فاخبرهم النبي باننا لم نقدم لقتال أحد ولكننا جئنا معتمرين وان قريشا قد نهكتهم الحرب فان شاءوا مادتهم مدة ترك الحرب فيها ويخلون بيدي وبين الناس ورجع اليهم عروة بن مسعود سيد ثقيف وكان أحد سفراهم فقال لهم : « والله ما رأيت ملكاً قط يعظمه اصحابه مثلما يعظم أصحاب محمد مهدا ، اذا أمرهم ابتدروا أمره واذا توضاً كادوا يقتلون على وضوئه واذا تكلم خضعوا اصواتهم اجلالاً وتوقدوا ٠ ويحددون النظر اليه تعظيميا له وانه قد عرض عليكم خطبة رشد فاقبلوها ولقد رأيت معه قوماً لا يسلمون لشيء ابداً فانظروا رأيك » ٠

ولكن قريشا أصرت على رأيها ولم ينفعها النصح ٠ وما رأى النبي اخفاقي سفراه قريش ارسل سفراه وكان من ارسلهم عثمان بن عفان فحبسته قريش ثلاثة أيام وشاع في القوم خبر قتلها مع العشرة الذين كانوا معه فوق النبي خطيبا بين قومه وقال : « ان كان حقا ما سمعنا فلن نبرح الارض حتى نتاجز القوم البيعة ٠ البيعة ايها الناس !! » ٠

فتوافت الناس يبايعون الرسول ونزل قوله تعالى : « ان الذين يبايعونك
 انما يبايعون الله يد الله فوق ايديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن اوفى
 بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرًا عظيما » . فلما علمت قريش بهذه البيعة
 وبثبات النبي على عزمه اطلقت سراح عثمان ومن معه وارسلت رسلاها لعقد
 معايدة مع النبي فاستبشر النبي (ص) بذلك . وكان حدبه لسفراء قريش لم
 لا تتمكنونا من البيت نطوف به ؟ فاجابه احدهم « والله لا يتحدث العرب اتنا
 أخذنا ضغطة » . ولكن لك ما تريده في العام القابل ثم تم الامر على الصلح
 لترك القتال وان توضع الحرب عشر سنين وان يؤمن بعضهم بعضا وان يرجع
 المصطفى عنهم عامهم هذا ويأتي في العام القابل ويخلوا له مكة ثلاثة أيام
 والا يدخلوا الا بالسيوف في قرابها وعلى انه لا يأتيه رجل وان كان على دين
 الاسلام الا رده اليهم والا يردوا اليه من جاءهم من عنده ومن اراد ان يدخل
 في عهد محمد من غير قريش دخل . ومن اراد الدخول في عهد قريش دخل
 فيه ولما تم الامر ولم يبق الا كتابة المعايدة وتب عمر بن الخطاب فجاء
 الى ابي بكر وقال له : « الياس هو برسول الله ؟ قال : بلى ! قال : او لستا
 ب المسلمين ؟ قال بلى ! قال فعلام نعطي الدنيا في ديننا ؟ فقال أبو بكر يا عمر
 انه رسول الله وليس يعصي ربها وهو ناصره فاستمسك بفرزه حتى تموت
 فلما اشهد انه رسول الله . وهذا مثل رائع من أمثلة مقاصد الحجج اراد النبي
 بالعمره اظهار قوه الاسلام وجمع المسلمين في مؤتمر عام في اقدس بقعة ليري
 قريشا قوه الاسلام وعزه و يجعل من ذلك فرصة الانضمام اكبر عدد من
 قريش مكة والعرب حولها . ووقفت قريش تدافع عن كيانها وتوافق
 الفريقيان وانتهى الخلاف باعتراف قريش بقوة الاسلام وعقدت معايدة بين
 الطرفين وادرك المسلمون بعد نظر النبي في هذه العمره .

لقد قصد الشارع بالحج ان يكون ملتقى المسلمين من سائر اقطار
 العالم الاسلامي في مؤتمر عام يتباخرون به في شؤونهم ويقوم خطباؤهم
 وشعراؤهم وادباؤهم بعرض آرائهم في الادب والسياسة والاجتماع ويطلع
 بعضهم بعضا على احوال الامم الشاسعة البعيدة ويبينون ما عليه هذه الامم من

العادات والأخلاق ويتجاوزون هذا الى ابعد من ذلك فان العصر عصر العلم والطب والفلك والاختراعات والاكتشافات عصر المبادئ المختلفة والمحاجة قواها لمحاربة الاسلام انه عصر انفضاء والذرة وعصر القضاء على الاستعمار انه عصر الشعوب وحق تقرير المصير والشأن كل الشأن للسياسة المتيفظة والدعائية القوية التي تؤثر في الاسماع وتصل الى القلوب فتكتسب الاصدقاء والأسواق التجارية وتغزو المناطق الاقتصادية ان الاجتماع والتشاور في الامور العامة والخاصة للمسلمين المتقصد الاول من الحج .

ان على المسلمين ان يعلموا ان الحج ليس هو الفريضة الاخيرة التي يتغطرون أداؤها عند اقترابهم من حفافات القبور انها من أول الفرائض لوضع خطوط المستقبل ولتكوين الكيان الاجتماعي والسياسي فهي ان فرضت على المسلمين فانها لم تفرض الا على ذوى الاستطاعة والمقدرة وان الاستطاعة لا تقدر بمال فقط . ان الاستطاعة هي القوة والفتواه والشباب ان الاستطاعة بالعلم والفكر هي المقصود من الحج ولو علم المسلمون مناسكه ما هي الا وسائل للاجتماع لما تأخرت بهم الحال الى هذا الوضع ولو تداول المسلمون أمرهم لما باع جهال فلسطين أرضهم لليهود وما قدر الاستعمار ان يساعد الصهيونية العالمية فثبتت أقدامها في أرضنا المقدسة وما بقى مليون عربي سبعة عشر عاما في العراء يفتث بهم الجوع وتناوب عليهم قساوة الحر والبرد فتفيض اعينهم من الدمع حزنا على ملك مضاع لم يحافظوا مثل الرجال عليه .

نظام الحكم في عهد الباشا

كان عهد النبوة عهد الوحي الالهي وكان نظام الحكم ساريا وفق ما تراه
السماء في تكوين مجتمع فاضل يستطيع حمل الرسالة على وجهها الاكميل
وكان البت في الامور يستند الى القرآن الذى كان الفيصل الاول في القضايا
باجمعها ومصدق ذلك ما جاء في الآية الكريمة - وان احکم بينهم بما انزل
الله ولا تتبع اهواءهم واحذرهم ان يفتونك عن بعض ما انزل الله اليك فان
تولوا فاعلم انما يريد الله ان يصيّبهم بعض ذنبهم وان كثيرا من الناس
لفسقون •

وجاء في آية أخرى - ان الله يأمر بالعدل والاحسان - وفي أخرى ولا
يجر منكم شنآن قوم على الا تعدلوا - •
وفي آية أخرى - يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله
 ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين - •
ومع هذا كله فلقد كان المبدأ الاول في نظام الحكم كرامة الانسان
واعلان حقوقه فيما جاءت به هذه الآية - ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في

البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلا - ٠

ومن هذه المبادئ التي تؤمن بالعدل وكرامة الانسان ابنت شريعة عادلة حفظت حقوق الناس في الحرية والمساواة والعدل والاخاء وانعدام الطبقات وحررت شعوبنا من الوثنية وابتنت حضارة يحفها الامن والاطمئنان على الانفس والاموال والثمرات وحالت دون استغلال الفرد لأخيه واستغاث مجتمعا شعاره - الكل للفرد والفرد للكل - المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه ببعض - وانطلقت طاقات الابداع في الامة العربية في مجالات العلم والادب والفن والصناعات وطفقت المجتمعات البشرية في كل وحدة من وحداتها تتشد مثل هذه الكرامة التي استهل بها الاسلام عهده وكانت الشورى ابرز مظاهر نظام الحكم في هذا العهد - وشاورهم في الامر - فكان محمد - ص - مجلس شورى وكان أعضاء هذا المجلس يدعون النقباء منهم أبو بكر وعمر وعلي وحمزة وجعفر وابن مسعود وحذيفة بن اليمان وأبو ذر والمقداد وكان أبو بكر يسمى وزيرا وهو أول لقب في الاسلام ظهر في نظام الحكم وكان ليت المال موكلون يكتبون وارده فكان كعب بن عمر صاحب المغانم وكان حذيفة بن اليمان يخرص التخل وكان العلاء بن عتبة يكتب بين الناس في مياههم ودورهم وكان له ديوان يشبه ديوان الخارجية وكان عبدالله بن الارقم صاحب هذا الديوان يتلقى رسائل الملوك ويجيب عنها وكان له ديوان أشبه بديوان العدل ويقوم بهذا العمل المفيرة بن شعبة والحسين بن نمير يكتبان المدائح والمعاملات وديوان يشبه ديوان الاعلام والارشاد يقوم بالدفاع عن الدعوة وكان يقوم بذلك شاعره حسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة وكعب بن مالك يستقبلون الوفود ويحيطون بهم عن التناقر والتفاخر والتکافر وكان للنبي ديوان اشبه بديوان الترجمة ويقوم بذلك زيد ابن ثابت يترجم عن الفارسية والرومية والقبطية والجحبية والعبرية وقد عين الرسول الولاية وعين لهم الاجر وكان أجر والي مكة في زمن النبي ثلاثة درهما في الشهر وكان النبي يختار الولاية ويرسلهم الى أرجاء الجزيرة ولا يقع اختياره الا على الرجل القوى الامين الذي يتحمل المسؤولية ويت في

الامور على وجهها الصحيح ولا يخشى في الله لومة لائم ٠ أرسل معاذ بن جبل واليا على اليمن فقال له : - بم تقضي يا معاذ ان عرض لك قضاة ؟ قال اقضى بما في كتاب الله ٠ قال فان لم يكن في كتاب الله قال اقضى بما قضى به الرسول ، قال فان لم يكن فيما قضى به الرسول قال اجتهد رأي ولا آلو ٠ قال معاذ فضرب صدرى وقال : الحمد لله الذى وفق الرسول لما يرضى الله ورسوله - ٠

وجاءه أبو ذر يبغى وظيفة يقوم بها ٠ فقال : يا رسول الله الا تستعملني ؟ فضرب بيده على منكبي ثم قال : يا أبو ذر انك ضعيف وانها امانة ويوم القيمة خزي وندامة الا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها - ٠

وهكذا تجد أن الرسول لا يرى في الولاية غير تكليف كبير لا يمكن ان يحمله الا على من كان أهلا له ، فان الكفاية هي حسب المرء ونسبة وكان يقول اللهم من ولی من أمر امتي شيئا فشق عليهم فاشقق عليه ومن ولی من أمر امتي شيئا فرق بهم فارفق به ٠ وفي صحيح مسلم ما من عبد يسترعى الله رعيته يوم يموت وهو غاش رعيته الا حرم الله عليه الجنة ، وفي هذا الحذر الشديد والاختيار الدقيق كان النبي (ص) يتوكى ان تكون صلة الوالى مع رعيته صلة الاب بالابناء يرعاهم ويحدب عليهم ويقوم بشؤونهم على وجه اتم وعدل أشمل ولم يكن في عهد النبوة بيت للمال تجمع به الاموال والغنايم فاذا اصاب القوم مغنمها فهو مقسم بين ابناء الامة ينال منه الجميع على تفاوت اقدارهم في خدمة الامة : للفارس نصيبان وللراجل نصيب وللابن الارملة نصيب والمقدم والعاجز لا يغادر منهم صغيرا ولا كبيرا الا اعطاه حقه ولم يكن للمال مشكلة بينهم بل كانت القاعدة الاصولية هي التي تحل المشكلة وهي - ويرثرون على انفسهم ولو كان لهم خصاصة ٠

واما الجيش فكان النبي (ص) يقسم الالوية لمن يشاء وكان له لواء اسود وفيه هلال ابيض وقد دون الرجال في ديوان خاص فاذا نادى للزحف تبعه المقاتلة ومن تخلف منهم كان ينظر في أمره فان كان تخلفه عن عذر لامه النبي وان كان تخلفه عن عدم قاطعه الجماعة واجتبوه ولا يكلمه أحد

وكان الشريعة تنزل على محمد (ص) بطريقة الوحي فإذا أراد تقرير أمر اجتماعي أو سياسي اتظر نزول الوحي حتى اذا نزل أمر كتابه أن يضيفوه الى القرآن وقد يكون تقرير الامر عن طريق الحديث النبوى أو الفعل الذى يقوم به ويكون كل ذلك شريعة ومنهاجا وأول ماتوجهت اليه عناية الرسول هو توحيد صفوف الامة داخل الجزيرة فاتخذ سياسة حكيمه باستقبال الوفود من أرجاء البلاد وادخل في روعهم انه بشر مثلهم - انما أنا بشر مثلكم - فل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ماشاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مبني السوء - ٠

وانه قد أعد نفسه لاستقبالهم واجابة مطالعهم وشرح الشريعة الاسلامية بما يشرح صدورهم فاقتلت عليه وفود القبائل من كندة ونجران وقضاءة والبحرين وكان يحادتهم ويتبسط في القول ويسمع آراءهم ويصفي الى ما يسطونه من القول في عقائدهم وما انصرف عنه وفد الا والايام يملأ قلوبهم بان عهدا جديدا يتضرر الجزيرة العربية ويعم العالم أجمع ٠ ومن هذه الوفود - وفد تجيب - وهي قبيلة من كندة وكان عددهم ثلاثة عشر رجلا ساقوا معهم صدقات اموالهم التي فرض الله عليهم ففرح رسول الله بهم واترم مثواهم وقالوا يا رسول الله انا سقنا اليك حق الله فقال لهم ردوها فأقسموها على فرائكم : قالوا ما قدمنا عليك الا بما فضل من فرائنا ٠ فقال أبو بكر : يا رسول الله ما قدم علينا وفد من العرب مثل هذا الوفد فقال الرسول : ان الهدى بيد الله عزوجل فمن أراد الله به خيرا شرح صدره للدين ٠

وأخذ الوفد يسألونه عن القرآن والسنة ففرح بهم وبقوه ايمانهم ٠ ولما أرادوا الرجوع الى أهلיהם جاءوا اليه فوعدهم ثم ارسل اليهم بلال الجشي وأجازهم بارفع ما كان يجيز به الوفود ثم قال الرسول هل بقي منكم أحد ؟ فقالوا غلام خلقناه على رحالنا وهو احدتنا ٠ فقال : ارسلوهلينا فاقبل الغلام وقال : يا رسول اني من الرهط الذين أتوك آنفا فقضيت حواناتهم فاقض حاجتي ٠٠٠ فقال الرسول ما هي حاجتك فقال والله ما أخرجي الا ان تسأل الله ان يغفر لي ويرحمني ويجعل غنائي في قلبي

قال الرسول : اللهم اغفر له وارحمه واجعل عناه في قلبه نم امر له بمثل
ما امر لكل رجل من أصحابه .

هذا وقد جاء ليهتدي وجاء بالهدى يا باسم الصدقات للقراء والمساكين
فرح النبي بهم وبهدايهم ولكنه طلب منهم ان يعودوها الى فرائضهم فأكدوا
للنبي (ص) انها مما فضل عن القراء وانهم تركوه لم يحتاجوا هذا
العام . فانظر الى هذا المجتمع الفاضل الذى كان النبي يريد ان يكونه وقد
فعل وأيده الله فقد كانت النظرة الاولى فيه لكرامة الانسان وللقراء من
بني آدم وابعاد التحاب بين الاغنياء والقراء كي لا يكون هناك حقد
وحسد ولكن تثبت عقيدة الاسلام التي جاءت بالمساواة والاخاء والمحبة وقد
زودهم النبي (ص) بالجوائز كما تفعل الملوك حين تقد اليها الوفود ليتألف
قلوبهم ويجمعهم على الكلمة الواحدة كلمة التوحيد ليجعل من الجزيرة
العربية قوة متماسكة تستطيع أن تحمل رسالتة الاسلام الى العالم واضحة
صرىحة وتستطيع ان تدافع عنها .

القرآن

القرآن هو دستور الاسلام ونظام الحكم في عهد النبوة وصدر
الاسلام ومنبع التشريعية الاسلامية فيما بعد أُنزل على محمد (ص) وجاء
به الروح الامين جبريل من عند الله سبحانه وتعالى في مئة واربع عشرة
سورة تحتوي على ستة آلاف ومئتين وثلاثين آية تشمل على سبع وسبعين
ألفاً وتسعين ألفاً واربع وثلاثين كلمة مكونة هذه الكلمات من ثلاثة ألف
ونثلاثة وعشرين ألفاً وستمائة وواحد وعشرين حرفاً . أحكمت آياته ثم
فصلت من لدن حكيم خير معجزة النبوة في الفصاحة والبيان والمثل الاعلى
في سمو الاسلوب وسبك الآيات وتوافق جرس الكلمات سورة التي نزلت
بمكة جاءت قصيرة موجزة جامعة باسلوب بديع مسجع داعية ووجهة الى
وحданية الله وصفاته ، محددة ومنذرة الغرض الاول منها دعوة المشركين
الى الايمان وتبصرة المسلمين في انفسهم وفي خلق السموات والارض
وحيثهم على الالتفاف حول الرسول والايام بالله ورسوله والبشرى بالجنة

والتخويف من النار والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وضمان المستقبل في الدنيا والآخرة . وقد نزل القرآن منجماً في ثلاث وعشرين سنة منها ثلاث عشرة سنة في مكة نزل اثناءها نحو من ثلاث وتسعين سورة . وعشرون سنة في المدينة نزلت فيها السور الباقية وكانت آيات القرآن تنزل متفرقة حسب مقتضيات الاحوال وما يتطلبه تكوين المجتمع الاسلامي وسميت هذه الاحوال بأسباب النزول واذا كانت الآيات المكية اتخذت سيلها في الدلالة على وحدانية الله وصفاته فان الآيات المدنية كانت طوالاً وكان أسلوبها متسلسلاً ليس فيه من السبج مثل ما تجده في الآية المكية وبين العهدين اختلاف كبير فالعهد المكي كان يستند الى المحاجة ونشر الدعوة وضرب الأمثال والتذيد بالاوتنان والابتعاد عن عبادة الاصنام أما العهد المدني فكان عهداً استقراراً قوياً فيه شوكة الاسلام واتجه الى التشريع وتبنيت نظام المجتمع فتحددت بذلك أركان الصلاة ووضحت مناسك الحجج وشرعت حقوق الاسرة في الميراث والزواج والطلاق واعناق العبيد ووضعت قواعد المعاملات المدنية وشرعت الحدود الجنائية في السرقة والقتل والزنبي والخروج على النظام العام وحرم شرب الخمر وأكل لحم الخنزير ولعب القمار وتعاطي الربا ووضعت الاحكام المتعلقة في الغزوات والحروب وتنظيم المغانم وقسمتها وفرض الزكاة وتبع ذلك معاملة العبد واليتم وابن السبيل في رفق ولين .

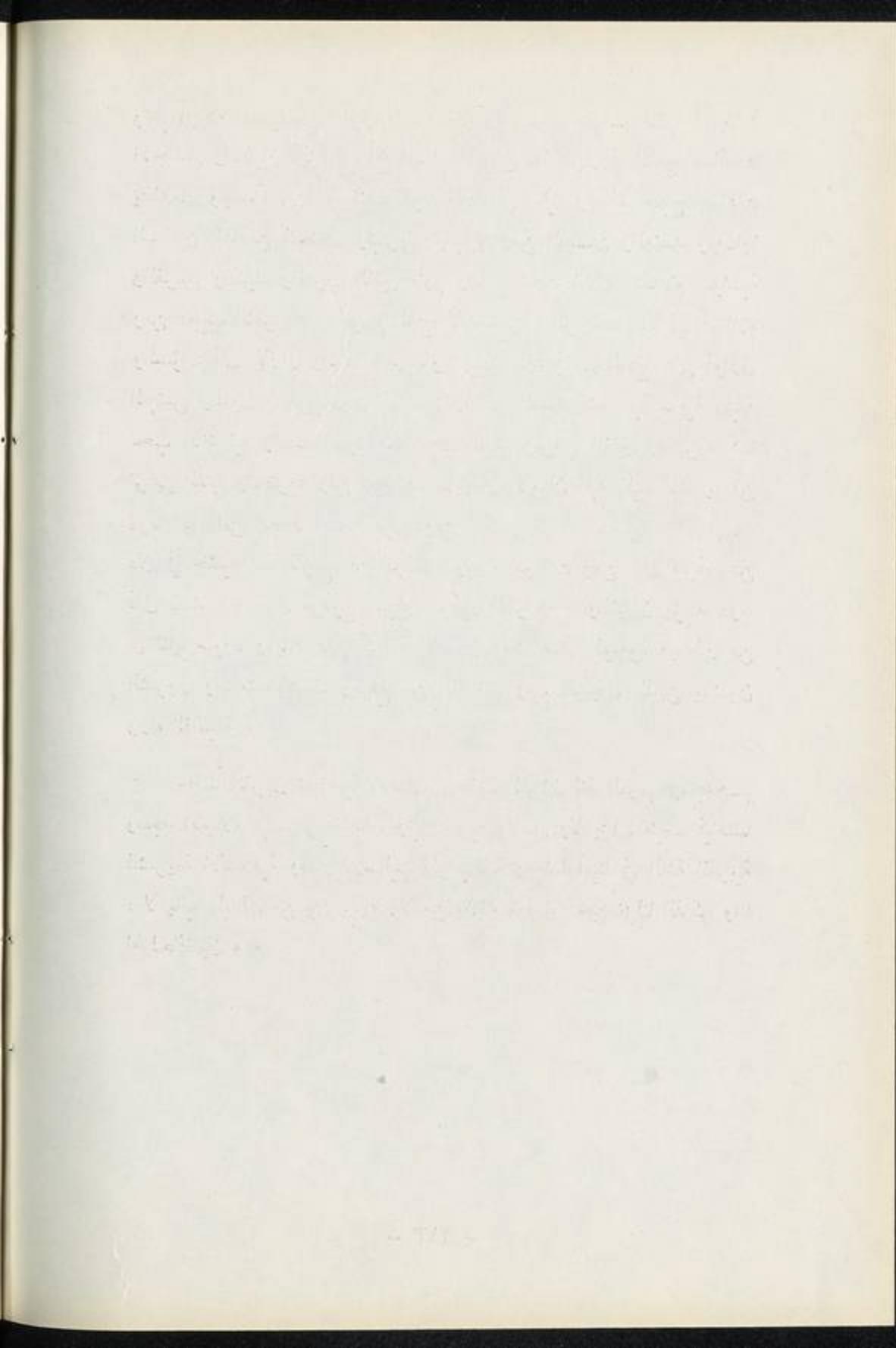
وكان صحابة رسول الله يحفظون القرآن عن ظهر قلب كما كان الكتاب يكتبون لرسول الله بعد الفراغ من الوحي ويثبتونه على عسب التخل والحجارة البيضاء وقد أُعلن خاتمه في السنة العاشرة من الهجرة وقبل وفاة النبي ثلاثة أشهر وتم جمعه وتدوينه انْزَلَ غزوة اليمامة حيث قتل من قرائمه سبعون حافظاً ففرغ المسلمون واصفقوه ان يذهب القرآن بذهاب حفظه فجاء عمر الى ابي بكر وطلب منه ان يجمعه قبل ان تذهب به حوادث الايام فتردد ابو بكر وقال : « كيف افعل أمراً لم يفعله رسول الله ولم يعهد اليها فيه عهداً » وتم الرأي بعد ذلك على جمعه وعهد بالامر الى زيد بن ثابت وكان أحد كتاب الوحي فجمعه من المكتوب في العسب

والحجارة وصدور الحفاظ وجعله صحفاً أودع عند أبي بكر ثم عند عمر من بعده ثم كانت هذه الصحف عند حفصة بنت عمر زوج النبي (ص) وفي سنة ثلاثين من الهجرة الموافقة لعام ستمئة وخمسين ميلادية أمر الخليفة عثمان بن عفان أن يكتب بلغة قريش حيث نزل بها في سبع نسخ وبعث إلى كل أفق بوحدة منها أرسل إلى مكة والشام والكوفة والبصرة والبحرين ووضع نسخة في المدينة وهي مصحف المسى بالامام • وكان ذلك مصادفاً لقوله تعالى : «انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »

وكان لأسلوب القرآن السامي أثر بلين في تهذيب لغة العرب وهو على ما هو عليه من سلاسة اللفظ وتوافق نم العبارات ودقة الاداء ونرورة المعاني وقوه المنطق يعتبر معجزة العجزات في اللغة ويتعزز الكتاب المجيدون في ان ينلهموا درة من درره في اساليبهم وكتاباتهم فاذا وفقو الى ذلك كانت فاصلة من فوائل الحكم والجمل في العبارة • واذا رتل ترتيلاً بمخارج حروفه وتلاحق الفاظه وتجويد آياته أثر في النفس تأثيراً عميقاً فتسمو الانفس بمعانيه وتلطف بمواضعه وارشاده وتنصاع لاحكامه والقرآن على رفعة مكانته بين قلوب المسلمين يعتبر ثروة أدبية كبرى حفظت لغة العرب من الضياع رغم الحوادث التي مرت على الامم الاسلامية ففرقها أيدي سبا ومزقت وحدتها الفكرية بل لا يزال هو الحارس الامين على التفاصيم بين الامم العربية التي تفصل بينها البحار والجبال والحواجز التي احدثتها فسائل الامم الغازية والطامعة ولو لا القرآن لاصبحت لغة العرب لهجات ظلت تتبع حتى صارت لغات مستقلة بعضها عن بعض فاذا صعب اليوم على العراقي ان يفهم لهجة أخيه المراكشي والجزائري في الكلام والحديث فانه لا يصعب عليه أن يفهم لغة الكتابة التي يكتبهن بها لأنها لغة القرآن والقرآن بعد ذلك كله صار فيما بعد منها عذباً واسعاً للتشريع الاسلامي اذ ان أحكام الشريعة الاسلامية مهما تعددت فيها الآراء وتشعب الاجتهاد في فروعها فان أصولها ثابتة في تنايا آياته وسوره • ولقد بلغ القرآن الذروة في غياته ومقاصده في تشريع الحج فهياً للدعوة الاسلامية أن تقوى وتنشر

وتعم أرجاء المعمورة بما اوجده من اخاء ومساواة ومحبو للفوارق بين
 الانس والانسان فالزنجي أخ المسلم الايض اذا تقابل في الحج تصافحت
 يداهما ووجد كل واحد منهمما عونا صادقا في أخيه وهكذا أصبح جماعات
 المسلمين تند من السنغال وليريا وزيريا ومن الصين والهند وجروا
 والفرس والترك والعرب الفقير منهم والغني تحت خلال الاسلام سواسية
 ومن عجيب الامر انه في موسم الحج لا تعرف الرجل الا في الكلام
 والسؤال فان الازار والرداء قد ساوية بينهما لقد قضى الحج على فوارق
 الجنس واللون والقومية بين المسلمين واعطى للمسلم شخصية سامية رفيعة
 تحب الانسانية وتحب القوة كما تحب السلم وترعى الفقير وتحترمه كما
 ترعى الغني وتحترمه ولن تجد مسلما يملا الايمان قلبه ذليلا لانه يركن
 دوما الى العزة حيث ايمانه قوي ومن يخش الله لا يخش عابده أبدا
 فان في خشية الله الترفع عن الرذائل وايتاء الموبقات ومن كان متربعا عن
 فعل ذلك كله يظل مرفوع الجبين موفور الكرامة + القرآن يؤكذ دوما
 في ثنايا سورة وآياته على كرامة الانسان ومكانته في الوجه ويحذر من
 الشرور واسادة الاعمال ويرفع من الفضائل وقيم الرجال الذين يمشون
 وراء الفضيلة +

حفظ القرآن شخصية الاسلام وحفظ القرآن لغة العرب ومجدهم
 ومجد الاسلام في سمو مقاصده ونبيل معانيه وظل ولا يزال منبعا فياضا
 للشريعة الاسلامية ومثلا لالسائل الراقية ومعلما أمينا في اللغة العربية
 « لا يأنبه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » « انا نحن نزلنا الذكر وانا
 له لحافظون » +



القرآن يربّي شخصية المسلم

سلوك القرآن في بناء شخصية الفرد سبلاً واضحاً مستنداً إلى قاعدة اساسية في النظام الاجتماعي الاسلامي وهي توحيد الآله الذي يعبده المؤمن بأنه واحد لا رب سواه ولم يكن له ابن أو بنت وليس له أب أو أم وهو المقصود الاول في الحياة الدنيا والآخرة بل ليس له مثيل في عالم الامكان «قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد» . ومن لوازם هذه القاعدة الاساسية الایمان برسوله محمد الذي أرسله الى الناس كافة ليبلغ ما أنزل اليه من هذه الآيات الكريمة التي تتضمن شريعة تهدف الى اسعاد مجتمع . ولذلك تثبت هذه العقيدة اتخاذ القرآن وسيلة الترهيب والترغيب وضرب الأمثال وحكاية القصص عن الغابرين في صدر الدعوة الاسلامية فكانت السور المكية تتجه الى وعيد المشركين الذين يعادون النبي ويسعون في الفساد بين الناس والذين لا يطعمون القراء ولا يحثون الناس على اطعامهم ويضمرون الشر وينعنون المنافع ولا يقيمون الصلاة

في جد واهتمام وبعبارة أخرى لم يتمكن الإيمان من قلوبهم والذين لا يصدقون بيوم الدين والذين يطعنون في أعراض الناس ويمشون بالنسمة ويعتزون بأموالهم ويتفاخرون ويتکاثرون بها وبأولادهم والذين اذا أكلوا على الناس يستوفون و اذا اعطوهن نقصوا الكيل والميزان هؤلاء ومن يقتدي بهم لن يتكون منهم مجتمع فاضل ان هؤلاء لهم كتاب مرقوم ولن يستطيعوا أن يكذبوا هذا الكتاب لانه ثابت وموجود في اليوم الآخر وسوف يقدم لهم ويقال لهم هذا الذى كتمن به تكذبون *

شدد القرآن في بناء الشخصية على الت Kirst بهذه الصفات الفاسدة ليعد عنها المؤمن المتضرر وهدد الفرد بالقارعة التي تقع قلوب الناس يوم القيمة يوم يصيرون حيارى ضعفاء لا يدركون ما يفعلون كأنهم الفراش المتشير الذي لا يعي كيف يقع في اللهم ويزداد في تهويل يوم الحساب الذي تفتت فيه الجبال الراسخة وتطاير ذراتها تطاير شعرات الصوف المنفوش في مهاب الرياح في هذا اليوم يكون مقر ضعاف النفوس في الدنيا المترغبين على اقدام الاصنام الذين يبعدون الحجارة المنحوته ويسعون في الارض فسادا ويسركون بالله الهاوية هذه الهاوية التي لا فرار لها والتي ليست غير نار حامية *

ويقمع اسماعهم « بالحافة » « والواقعة » ويصف هول القيمة وصفا مرعبا في يوم زلزال الارض وتشققها يوم تخرج انقالها من الموتى ويأخذ هؤلاء يسأل بعضهم بعضا عن هذا الحادث الجلل عند ذلك تجبيهم الارض عن اخبارها وتنطق ان ربك اوحى لها ان تشدق ليخرج الناس سراعا ليروا أعمالهم فيرى صاحب الخير عمله ولو كان ذرة ويرى صاحب الشر عمله مهما صغره ويزيد القرآن في التهويل باختلال نظام الكون واصطدام الشمس بالقمر وانهيار الكون الشمسي من أوله الى آخره وزوال عالم الامكان واذا زال عالم الامكان تبدل المقاييس وصار بصر الفرد حديدا فيرى الحقيقة الواضحة يومئذ لا ينفع الندم ويستمر القرآن في التهديد والوعيد من يتندى في ارتكاب الذنوب طوال حياته ويؤكد مقتضاها بالنفس اللوامة « بالضمير الحي »

الذى يؤنب صاحبه ويلومه بأن الله قادر على اعادة الانسان بل قادر على
أرجاع أدق عضو في تركيه وهو البنان *

ويضيف القرآن الى هذا كله فصص الافوام الذين عصوا انباءهم
فيذكر قصة نوح مع قومه انذرهم وأمرهم ان يعبدوا الله ربهم فتمادوا في
الضلال فرجع نوح الى ربه وقال « رب اني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم
يزدتهم دعائي الا فراراً واني كلما دعوتهم لتفتر لهم جعلوا اصابعهم في
آذانهم واستغشوا ثيابهم واصروا واستكروا استكباراً » ولقد وجه نوح
افكار قومه الى تكوينهم بقدرة الله من طور الى طور ولفت نظرهم الى كيفية
خلق الله السموات وجعل القمر منيراً في هنا العلو الشاهق والشمس سراجاً
وهاجراً ثم تعمق نوح معهم وبين لهم ان اصلهم من هذه الارض ابتهم الله
فيها نباتاً ثم يعيدهم ويخرجهم منها اخراجاً وقد بذلك نوح جهداً عنيفاً مع
قومه فتمادوا في العصيان فلم يجد بداً ان يتوجه الى الله ويقول : « رب انهم
عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خساراً » وظللوا عاكفين على عبادة
اصنامهم لا ينفكون عن التمرغ على أقدام « يغوث ويعوق ونسراً » ولم
يكتفوا بذلك لانفسهم بل اضلوا كثيراً غيرهم * رب لا تذر على الارض منهم
أحداً *

ضرب القرآن هذا المثل من الامم الغابرة بين علاقة النبوة في تكوين
المجتمع ومركز محمد من رسالته في ايجاد مجتمع فاضل وعطاف القول على
اولئك المؤمنين الذين ينضوون تحت لواء الاسلام والذين أنوار الایمان قلوبهم
والذين لا يسعون في الارض فساداً والذين اذا مروا باللغو مروا كراماً
فيكرهم ويرفع شأنهم فهم الابرار في علين الكتاب المرقوم الذي شهد له
الملاائكة وهو السجل الذي تسجل به الاعمال الصالحة والمأثر الخالدة
لعباد الله الصالحين الذين منهم يتكون المجتمع الفاضل فيعمرون الارض
ويملؤونها عدلاً ومحبة واحفاء اولئك الذين لهم جنة نعيم على الارائك ينتظرون
تعرف في وجوههم نظرة النعيم من رحيم مختوم وهم متکئون على الارائك
لا يرون في الجنة شمساً ولا زهريراً دائمة عليهم خلال الجنة يطاف عليهم

بانية من فضة ويلبسون حلا فاخرة من سندس خضر واستبرق . وفي هذا الوصف البديع يبرز القرآن مكانة الشخص الفاضل .

في هذا الوعد والوعيد وفي تهويل يوم القيمة ولفت نظر الإنسان إلى أسرار التكوين والخلق ومشاهد الطبيعة والذكير بالامم الخالية التي لم تطع رسالتها وبيان ما يناله أهل النار في الدوك الأسفل من الهاوية وما يناله المؤمن الصابر المحسوب الذي يشع نور الإيمان في قلبه من نعيم مقيم في ظلال الجنة يقصد القرآن إلى خلق المؤمن الصادق الصالح للمجتمع وإلى إيجاد ضمير حي في تكوين الإنسان يريد أن يخلق نفسا لوامة تلوم صاحبها عند الخطأ وتكرمه عند الصواب هذه النفس اللوامة التي قصد القرآن إلى إيجادها للمؤمن الصادق هي الشرطي الذي يقف من المؤمن موقف الحارس الأمين يلومه على الخطأ ويشيه على الصواب هذه النفس اللوامة أو الضمير الحي التي رباهما الإسلام بين جوانح المؤمنين أغنت نظام الحكم في عهد النبوة عن تكوين جهاز الشرطة ورجال الأمن فشخصية المؤمن عالية لأنها يرى الكرامة في الدنيا بقوه الإيمان وينظر العزة في الآخرة فهو بين البرار والشهداء والصديقين وفي هذا التكوين النفسي البديع بنت المجتمع الإسلامي الفاضل وصار المؤمن قدوة في المثل العليا فدخل الناس في دين الله أفواجا وبعد ان استطاع القرآن إيجاد الضمير الحي أو النفس اللوامة الحارسة على سلوك المؤمن في الحياة الدنيا التفت إلى هذا الإنسان الفاضل فتوجه بالآيات الكريمة « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلا » . وبذلك اكتملت شخصية الفرد المسلم بعد ان ضمن له القرآن كرامته في الوجود واعلن حقوقه كاملة غير منقوصة ، فهو الفاضل على كثير من المخلوقات في هذا الكون وهو الذي ينال الطيبات وهو الذي يضرب في الأرض براً وبحراً بحرية كاملة وهو الذي يتصرف بما حوله من الوجود في نطاق تلك التيود التي لا تعدد مصالحة والصالح العام فالإنسان المؤمن في نظر القرآن إنسان حر كريم مبدع لا يتخذ له غير أخيه مثله مدعين انه مع البرار والشهداء والصديقين انه لا يمكن ان

يسير مع الهدامين انه مؤمن وهو أخ المؤمن يشد أزره ويئنه على صعب
الحياة انه يحمل العقيدة في قلبه ويدفع عنها بسانه ويدب عن حياضها انه
راع في بيته راع في عمله انه مسؤول عن أية رعية يرعاها لانه كريم على
الله ولانه مفضل على كثير من اوجد الله في هذا الكون .

لقد ضرب النبي (ص) مثلا ساما في تكوين المجتمع حيث بدأ في تربية
شخصية أصحابه الذين يعملون معه وتربية المؤمن الصادق وبذلك استطاع
ان يبرز النفس الانسانية فبرزت كرامة الانسان .

القرآن والأسرة

بعد ان فرغ القرآن الكريم من تكوين شخصية الفرد ووتق صلته
بمخالق الكون وربى فيه ضميرا حيا وجعل هذا الضمير الحي رقيبا عيذا
عليه يلومه على الخطأ ويبيه على الصواب انتقل الى تكوين الاسرة وببدأ
صلة الولد بوالديه لأن الوالدين هما ركن الاسرة والولد ثمرة جديدة
تمد الكون بالحياة ، على نسبة ما بين القديم والحديث من تباين في استقبال
الحوادث شرع القرآن تنظيم الصلة بين ركني الاسرة وما يتبع عندهما برفق
ولين فأوصى الولد أن يحسن إلى والديه وإذا أوصى القرآن فان في وصيته
تشريعًا يستند إلى ثواب وعقاب قد يكون في الجنة والنار أحياناً وأحياناً في
إقامة الحدود وفي كلتا الحالتين وضع القرآن أوامره ونواهيه وقد يعلل هذه
الأوامر والنواهي أو يتركها مجملة ولكنها مفهومه وفي وصية الولد بأحسانه
إلى أبويه ذكره ان الأم حملته في جهد ومشقة ووضعته في جهد ومشقة وتعبت
فيه مدة الحمل والفصل لثلاثين شهراً واستمرت في تربيته إلى ان بلغ أشد

وترکه القرآن فيما بعد ذلك الى أن بلغ أربعين عاما : « حتى اذا بلغ أشد
وبلغ أربعين سنة قال رب اوزعني أن أشك نعمتك التي أنعمت علي وعلى
والدي وان أعمل صالحا ترضاه واصلح لي من ذريتي اني بت اليك واني
من المسلمين ، او لئل الذين تتقبل منهم أحسن ما عملوا وتجاوز عن سيااتهم
في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون » .

« والذي قال لوالديه : اف لكما اتعذاني ان اخرج وقد خلت القرون
من قبلي وهما يستغيثان ويملأ آمن ان وعد الله حق فيقول ما هذا الا اساطير
الاولين او لئل الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن
والانس انهم كانوا خاسرين » .

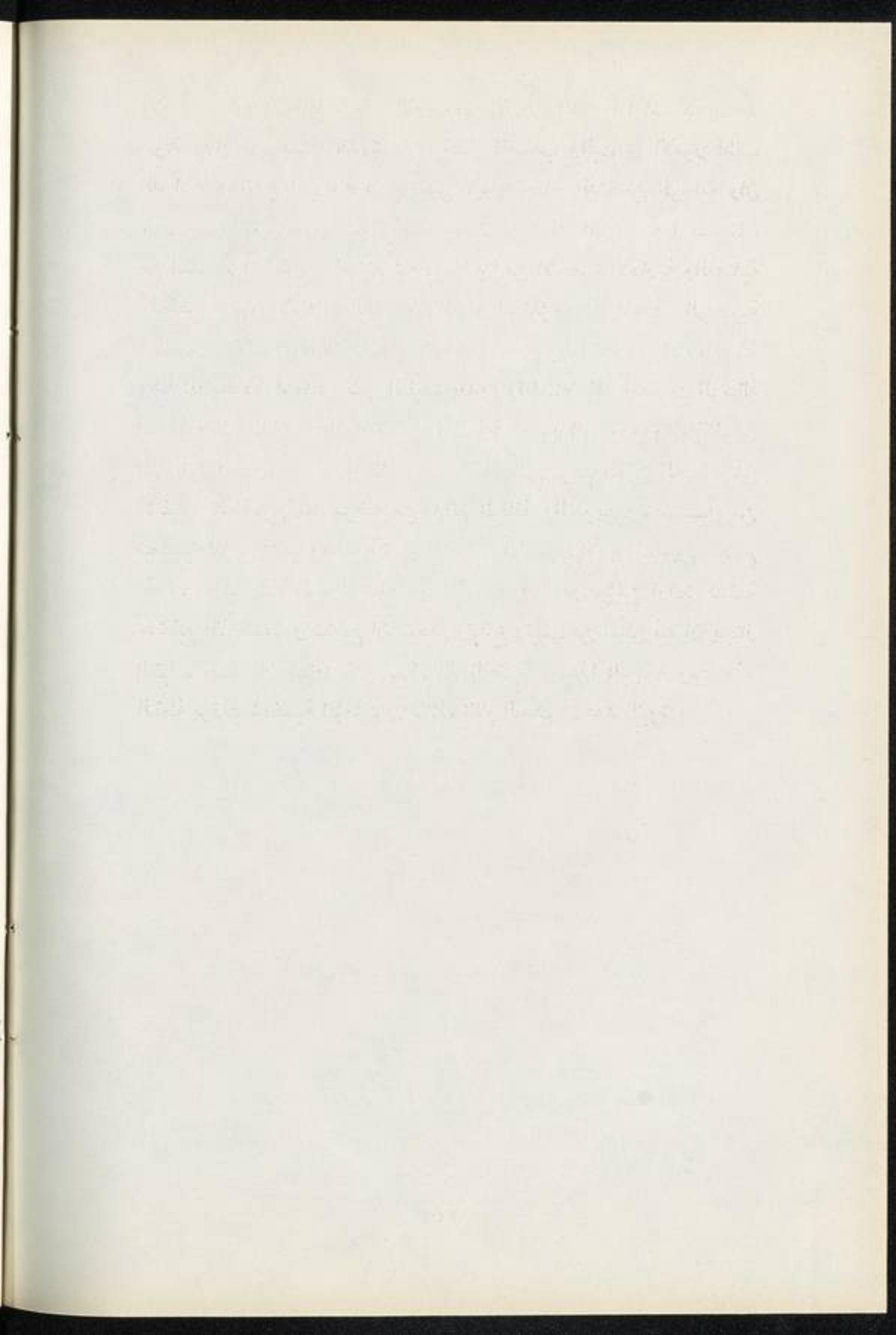
ما كان تشريع القرآن منصبا على البر بالوالدين والانفاق عليهم
واعاتهما على تحمل اعباء الحياة لانهما احاطاه بعنتيتما وسهرها عليه الليلي
وتعب الاب في العمل وتتعب الام في الحضانة ، كلا ! لم يكن هذا المقصود
من هذا التشريع انما كان التشريع يرمي الى ابعد من ذلك كله ، انه يرمي
الى ايجاد اسرة مؤمنة طيبة لها شخصية اسلامية فالولد ثمرة جديدة في
الحياة له انطباعه الخاص الذي يمشي معه في نموه وتكامله وهو في طور
الطفولة غيره في طور المراهقة وغيره في طور الرجولة انه مختلف عن أبويه
الذين خلقا في جيل غير جيله وعاشا عيشة تختلف عن عيشته وهما مختلفان في
البنية مختلفان في التفكير انه شاب يتدقق حيوية وقد يكونان شقيقين لحب جنباهما
واحد ودوب ظهراهما وقد لا يكونان كذلك ومهما يكن من أمر فهما مختلفان
في استقبال مشاهد الحياة والأخذ عنها .

وفي ظهور الاسلام برزت هذه الاختلافات في الاسرة الواحدة فقد يؤمن
الابوان ويستمر الولد على شركه وقد يؤمن الولد ويستمر الابوان على
شر كهما ومن هذه النافذة سلك القرآن في تشريعه مسلك الاصياء بالاحسان الى
الوالدين فإذا آمن الابوان والولد لا يزال مشركا طلب القرآن برفق ان
يحسن الى أبويه وان خالقه في عقيدته وايمانه الى ان يتبين له الامر وتتضيح
عنه الفكرة ويصبح رب اسرة ويبلغ سنا تؤهله أن يميز الصحيح من الخطأ

ويعطي حكما صادقا وقد أوصلها القرآن الى سن الأربعين وهي سن الكهولة
 ونضج الرجلة بل سن النبوة • سلك القرآن مسلك الرفق في هذه الوجهة
 من التشريع لأن الامر مقصور على الاسرة لا يتعداها إلى حقوق شخص
 ثالث غريب عنها وان الرابطة بين الولد والوالدين أساسها السبب الظاهر في
 وجود الولد وأساسها قوة وضعف من جهة الولد وضعف من جهة الوالدين
 وقرن هذا النوع من المعاملة أو الصلة بعبادة الرب ففصل ذلك بآيات أخرى
 «وَقُضِيَ رَبُّكَ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَيْهِ وَبِالْوَالِدَيْنِ أَحْسَانَا إِمَّا يُلْعَنَ عِنْدَكُمُ الْكَبَرُ احْدَهُمَا
 أَوْ كَلَاهُمَا فَلَا تُقْلِلُ لَهُمَا إِنَّهُمَا وَقَلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا » فالاحسان
 الى الوالدين مقررون في المثل بعبادة الرب وقد وضع القرآن حدودا للشريك
 هي عقوبة الجحيم وأشار من طرف خفي الى ان من يسيء الى أبويه
 عقابه عقاب الشريك الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر ولم يتخذ القرآن سيل
 القسر ووضع الحد في هذه الصلة العظيمة حفظا لتربيه الشخصية واستقلال
 الرأي واسحاج المجال لمواهب التمرة الجديدة أن تبرز فالوالد لا يقسر ولده
 على أمر وإنما يكتفي أن يبين له ذلك ويضعه بين يديه ولا يتعدى أن يقول
 له في سياق الجدل والمناقشة عن العقيدة أكثر من قوله « وَيُلْكَ آمِنٌ » ثم
 يترك له الحكم والتصريف في الامور وقد يكون الاب قويًا عنيفًا فيتخرج عن قسمه
 ولده كبت مواهبه ومحو شخصيته وهذا مما لا يريده القرآن الذي وجهه
 عناته ل التربية شخصية المؤمن • وقد فصل ذلك في محاورة لقمان لابنه وهو
 يعلمه ويقول له : « يَا بْنِي لَا تُشْرِكُ بِاللَّهِ إِنَّ الشَّرِكَ لِقَلْمَنْ عَظِيمٌ » وطلب منه
 اقامة الصلاة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والا يتكبر وان يخوض
 صوته عند الكلام ولا يختال في مشيته متباخرا ثم يلفت نظره الى الكون
 وما بث الله فيه من عجائب المخلوقات ليرجع عن غيه ويتوب الى رشده ويلعلم
 انه سوف تمر عليه في حياته حالات الضعف كما مرت عليه حالات الشاطط
 في عنفوان شبابه •

فكل ما يقصده القرآن ايجاد اسرة مؤدية مؤمنة مرتكزة على المحبة
 والرحمة ومتى ارتكزت الاسرة على هذه الاصول الانسانية فلا حاجة لعقاب

ولا حاجة لحدود فإذا ضعف الاب رفق الابن بوالده وإذا اشتد ساعد
الولد ورأى في نفسه القدرة على تحمل المصاب والبت في الامور لطف
القرآن عنوانه وطلب منه ان يخوض لابويه جناح الذل من الرحمة وان
يدعو ربه ان يرحمها كما رحمة ورياه ° سلك القرآن هذا المسارك
من التشريع في تكوين المجتمع ليتفادى كثيرا من الاجهزة الادارية والقضائية
وليكفي بسمو الاخلاق الكريمة والمصلحة المرتكزة على المحبة والرحمة
و خاصة في الاسرة وبذلك خفض كثيرا من الاعباء والواجبات في اداء الرسالة
وهيأ لها مجالا واسعا في نشر العقيدة بهدوء واطمئنان لقد انتصرت الرسالة
المحمدية على الذات باعطائها دروسا واضحة في تصور الوجود ووجه النقوس
إلى القوة الجبارة فيما وراء الغيب تلك القوة التي ترغم الكائن الحي على
الانقياد والخضوع بما تعرضه من بدائع الخلقة والتکوين وتجعل من
شخصية المؤمن قاضيا ومنفذآ للشريعة في هذا الاسلوب الأدبي لتكون مجتمع
أفضل ، استطاعت الرسالة المحمدية ان تخلق في كل مؤمن اراده كامنة
 تستطيع أن تضحي و تستطيع ان تحكم و تبدع و تبعث من تمكن فيه ان يجتاز
 العقبات مهما كان شأنها حتى يصل الى الحقيقة في هذا الوجود ومن هذه
 النقطة برزت شخصية المؤمنين في ظلال نظام الحكم في عهد النبوة °



رَوْابِطُ الْأُسْرَةِ

انتقل القرآن الى توضيح روابط الاسرة التي هي نواة المجتمع الاسلامي المنتظر والينبوع الدافق الذي يفيض بمادة الامة ابان شبابها وبعده . ونزلت الآية الكريمة في مستهل سورة النساء : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تسألون به والارحام ان الله كان عليكم رقيبا » .

كان مستهل هذه الآية دقيقا في تعبيره في وضع نواة الاسرة والإشارة الى تكوين بني الانسان من طينة واحدة خلق منها الرجل مثل ما خلق المرأة وهو مصدر الذرية وعلى هذا المصدر أن يجعل خوف الله فوق كل شيء ويحترم صلة الرحم ففي ظل هذه التقوى وفي ظل صلة الرحم تكون الاسرة المسلمة . وهذا هو شأن القرآن يعطي الحكم ويضع القواعد ثم يشفع ذلك بالوعد والوعيد ليضمن تنفيذ التشريع . ان تشريع الاحوال الشخصية وتنفيذ التشريع ليسا بالأمرتين الهينين فإذا لم

يُكَلِّن للمجتمع الملاحد وازع سلطاني لم يستقم شريعيه أما المجتمع المؤمن فان
شرعياته كلها تستقيم وتسير وفق ما وضعت له في ظلال رقابة الخالق .
من هذه النقطة انطلقت آيات القرآن توضح الصلات بين أفراد الأسرة
نفسها فحفظت أول ما حفظت حق اليتيم لضعفه ولكيلا يعتدي عليه أحد
ورخصت في تعدد الزوجات رخصة فيها شرط يصعب تحقيقه . فلقد رخص
القرآن أن يجمع الرجل بين زوجتين أو ثلاث زوجات أو أربع واشترط أن
يكون العدل أساس هذا الجمع فإذا لم يتحقق العدل فان الرخصة غير مباحة
وبذلك استطاع ان يحفظ كرامة البيت وكرامة الأسرة ويحرسها من الانشقاق
والحقد والعداوة .

كان الإيمان في فجر الإسلام قوياً فلا حاجة لوازع سلطاني ذي سيف
مسلسل على رءوس الناس يتوكى العدل بين الزوجات وكان يقوم مقام
ذلك النفس اللوامة أو الضمير الحي الذي رباه محمد (ص) في نفوس القوم
وكان تقوى الله ومخافته تدعم الضمير الحي فإذا أقدم المؤمن على استعمال
هذه الرخصة أقدم وهو وائق من نفسه أن يعدل وكانت المؤمنات في مكانة
رفيعة من الإيمان والأدب الإسلامي والخلق العربي من حيث خشية الله والوفاء
وكرم النفس واصالة الرأي .

أوصى الشرع باليتيم خيراً وأوصى بالمرأة خيراً ووثق صلة الرحم بين
الأسرة في تشريع الأرض وقسمة الأموال التي هي مصدر الخلاف والشر فحدد
نصيب المرأة زوجاً وبنتاً وأما واحشاً وحدد نصيب الرجل زوجاً وولداً وأباً واحشاً
وقداً وانتقل من هذا التحديد إلى ذوى القربي إلى دائرة أوسع فلم
يتركهم ولم يترك اليتامي والمساكين اذا حضروا القسمة وقوى هذه الفروض
والوصايا بأية من أروع الآيات « تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله
يدخله جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك الفوز المبين .
ومن يعص الله ورسوله وي تعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب
مهماين » .

هذه الآية هي السند القوي وهي دائرة التنفيذ لهذا التشريع .

ولقد حرم القرآن ان يتزوج الولد زوج أبيه لانها بمنبة أمه وحرم الامهات والبنات والاخوات والمساوات والخالات وبنات الاخ وبنات الاخت والامهات المرضعات والاخوات من الرضاعة وأم الزوجة وبناتها من زوج آخر كما حرم ان يتزوج الرجل زوج ولده حرم الجمع بين اثنين لو كانت احداهما رجلا لا يجوز له ان يتزوج بالاخري ثم احل القرآن ما وراء ذلك على أن يتبنى المؤمنون ذلك باموالهم ممحصين غير مسافحين .

وإذا اختلف الرجل والمرأة لم يذهبا الى قاض في فجر الاسلام ولم يذهبا الى مركز شرطة ليحل الخلاف بينهما وإنما يستند صلاح الاسرة الى اختيار حكم من أهله وحكم من أهلهما ليدرسوا الخلاف ويصلحا بينهما « وان ختم شقاق بينهما فابتعثوا حكما من أهله وحكما من أهلهما ان يربدا اصلاحا يوفق الله بينهما ان الله كان عليما خيرا » فان تم الاصلاح يتنهى الامر عند هذا الحد وعادت حياة الاسرة الى حالتها الطبيعية الاولى وان لم يتم ذلك جنح الفريقان الى الطلاق وقد عالج القرآن هذه الحالة علاجا انسانيا ساماها ولم يترك المرأة ريشة في مهب الريح ولم يقيد الرجل يجعل حياته مغمورة بالالم واليأس . فالطلاق في شريعة القرآن مرتان فاما شرعا معروفا أو تسريعا بحسنان وفي هاتين المرتين يتحقق للرجل ان يعود الى اسرته تارة أخرى اذا عصت اسنانه اصبح الندم وقد اعطاء التشريع فترة كافية للتفكير في الامر واذا وجد اللقاء صعبا أو قع الطلاق مرة ثالثة وعند هذا الحد يتنهى كل شيء ولن ينفع الندم حيث سدت الشريعة في وجهه كل أمل الا امل الاخير وذلك اذا تزوجت المرأة فمات عنها زوجها الثاني او حدث اختلاف بينهما ففرقا وفق أصول الشريعة المرعية في القرآن ورغب المطلقان الاولان أن يعودا الى سالف حياتهما الطبيعية وبلغ بهما الندم مبلغه عند ذلك يمكن العودة حيث جرب كل منهما مصاعب الحياة واخذ درسا وعبرة من حوادث الايام .

وقد حفظ القرآن حقوق المرأة في المهر فلا يحل للرجل ان يأخذ

منه شيئاً بعد الطلاق الا اذا أرادت المرأة ان تفتدى نفسها وتخلص من عصمة الزوجية لامر يخصها عند ذلك لا شأن للشريعة بذلك ما دام الامر برضاهما

وقد حدد الشرع للوالدات المرضعات مدة الرضاعة بحوالين كاملين وعلى الزوج أن ينفق وعالجت الشريعة حق المرأة بعد العقد وقبل الزواج ففرضت لها نصف المهر وشددت آيات القرآن على الرجال في معاملة المرأة بالامتناع عن الاكراه وبالتسريح الجميل وتلطيف الصلة بالمعروف والتفضل بالمتاع الوفير من قبل الاغنياء عند الفراق كل اولئك وضع الاسرة موضعاً يليق بكرامة الانسان

وضع الاسلام بناء الاسرة على قواعد العدل والرحمة ووثق الصلات بين الولد والوالد وبين الام والبنين بين الزوج والزوجة وجعل صلة الارحام في مقدمة هذا البناء وابتعد عن كل ما يورث الحقد والحسد

اذا تكاملت الاسرة في نظامها وشرعت قواعد الارتباط بين اعضائها اجتازت الدولة متاعب الخلاف واصبحت مشاكل المجتمع تحل نفسها بنفسها وبرزت الشخصية المبدعة من بين افراد هذا المجتمع لتقول كلمة الفصل في تحديد خطوط الحياة الفاضلة

لقد كان محمد (ص) مبدعاً اختارته العناية الربانية ليأخذ بيد العالم ويخلصه من الآلام والشروع وان يجنب بهم الى هذه التربية الفاضلة تربية تمكن المرأة من التغلب على ذاته لكيلا يندم عندما يضحي لغيره ولكي يفرح عندما يدخل السرور على أخيه فطفر العالم الاسلامي هذه الطفرة الواسعة في تكوين مجتمعه وتوارى عنه شبح الخوف وحل محله الحقيقة التي تشع بالنور هي حقيقة الفضيلة ان الخوف سر تدهور الامم اذا لم يصاحبها الامل وقد استطاع النبي ان يقضي على الخوف والقلق بالامل الواسع واللطف وفي وضع عقوبة الدنيا والتشديد في وضع العقوبة في الآخرة والامل اذا ملأ الصدور اندفعت المواهب للابداع واستعدت الن foss للتضحية وعلى أساس التضحية والمحبة وضح محمد (ص) قواعد

الاسرة الاسلامية فحفظ للمرأة حريتها وكرامتها وحفظ للرجل حريته
وكرامته وعزز الزواج بالاعلان وشهادات الشهود وقد الطلاق بالازمة
والحدود والتأمل والتفكير وفصل المحكمين كيلا تنهار الاسرة بين عشية
وضحاها بعد ان احکمت بناءها .

بِنَاءُ الْجَمْعَ

ثبت القرآن وحدانية الله في قلوب المؤمنين وأطمأن الرسالة المحمدية
إلى ثبوت العقيدة فشرعت تبين كيف يمكن أن يسير المجتمع في حياته فيما
يباح له وفيما يحرم عليه وكيف يمكن أن تتمسك أجزاؤه ولكنه لم ينفك
عن ذكر الوحدانية ونكران الشرك عند وضع الأحكام والقواعد التي
يضعها . فالشرك في نظر القرآن وفي هدف النبوة سر تأخر الامة والوحدة
هي الغاية السامية التي ترتفع بالامة إلى العزة والقوة وان الجاهي على قدم
الصنم عبد ذليل وان الفكر الذي يؤمن بقوة جباره خلقت ملكوت السموات
والارض حر عزيز والحرية والعزة صفاتان من صفات الرجلة المكتملة
التي ترتفع بالمرء عن صفات الاعمال وتسمو به الى امتلاك ناصية الفضائل
ومن هذه الناحية خاطبت الرسالة مجتمع المؤمنين بتلاوة ما حرم الله وما نهى
عنه وما أمر به .

لقد نهى عن الشرك بالله وأمر بالاحسان الى الوالدين ونهى عن قتل

الاولاد خيبة الاملاق ووعد بالرزرق لهم ولا بويهم وشدد على الابتعاد عن اية الفواحش جهراً أو سراً ثم نهى عن قتل النفس بوجه عام الا بالحق وهو القصاص الذي فيه حياة المجتمع وتماسك نظامه ثم أمر بعدم الاقتراب من مال اليتيم الضعيف الذي يكون في ظلال وصي قوي الى ان يبلغ أشدده فيعطي ماله وأمر ان يوفوا الكيل ولا يخسروا الميزان وأن تكون المعاملة بينهم مرتكزة على العدل وان يتبعدوا عن الجور والظلم ٠ ومن القواعد الاساسية في نظام الحكم في هذا العهد العدل في الشهادة وصرامة القول على نفس الانسان واقرباته ويلتحق بذلك الوفاء بالعهد وان يسلكوا سبيل هداية القرآن ويأخذوا بمبادئه السامية فلا يتقووا الى آراء وافدة فتفرق الكلمة وتفرق بهم السبيل وتحتاط عليهم المباديء ويدب الخلاف في صفوهم فيضعفوا « ان هذا صراطى مستقىما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل ففرق بكم عن سبيله ذلکم وصاكم به لعلکم تقوون ٠ »

وحرم القرآن البغى بغير الحق وحرم الزنا كيلا تفسد الاسرة فيفسد المجتمع وحرم الخمرة أم الخبائث مثلما حرم لعب القمار وهما في نظر القرآن من الامور الهدامة للبناء الزارعة للحق والبغضاء الصارفة المؤمنين عن فضائل العقيدة وواجباتها « يا أيها الذين آمنوا امما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلکم تفلحون امما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل اتم متهون ٠ »

واستمر القرآن في النهي والامر لاجتناب هادمات المجتمع تارة يذكر اقامة الحدود واخرى يهدد بالوعيد بذنب الآخرة وسخط رب فالسارق تقطع يده نكالا بما كسب الا من تاب من ظلمه واصلح فان الله يتوب عليه ويفغر له ولم يبت القرآن في قطع اليد مادام في نفس السارق أهل للرجوع والتوبة والسير في نظام المجتمع وفق شروط الحياة الفاضلة ٠ وسرد القرآن حدود القصاص في اعتداءات أخرى على الانسانية فالعين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفاره

له ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الظالمون ٠

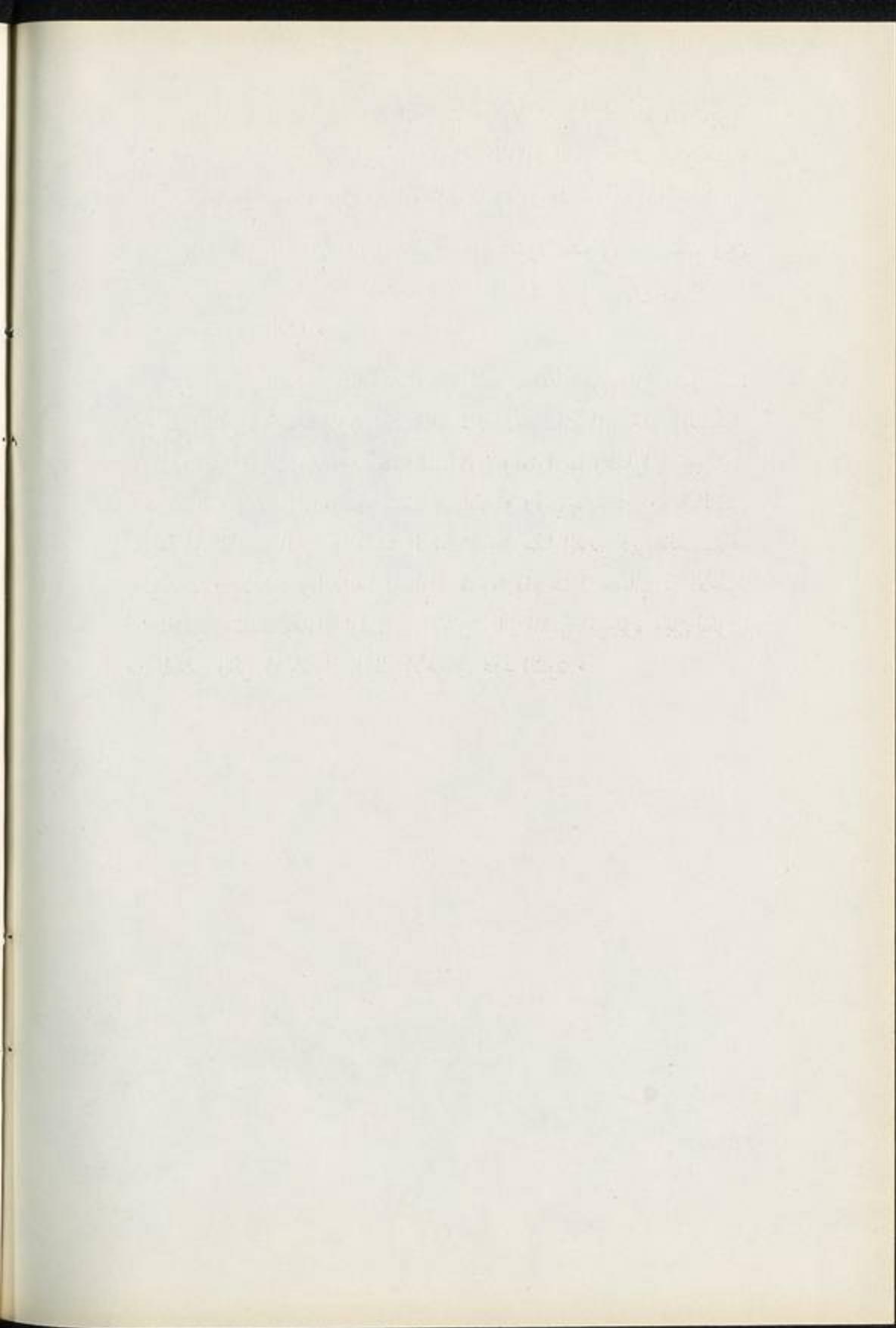
وهكذا استطاع القرآن أن يجد مخرجاً لهذه الحدود المشددة وما كان هذا التشديد الا لكيلا يفلت الزمام وتصبح الامور فوضى لا رادع لها ولا ضابط يضبطها ويلطف الامر ويفسح المجال أمام العاجي ومن وقعت عليه الجنابة فاذا قلع رجل سن احد من المؤمنين فان لهذا حقاً ان يقلع سن المجرم ٠ ولو بت القرآن في هذا الامر وجعله واجباً لا مخرج له لكان في الامر عسرة شديدة غير ان ادارة القرآن المتازة فتحت باباً واسعاً للصلح وجعلت لهذا الصلح ثواباً في الآخرة وكرماً في الدنيا فان الذي يغفو عن صاحبه المجرم سيكون هذا العفو كفاراً له عن ذنبه في الآخرة فضلاً عن سموه في الدنيا ٠

وانتقل القرآن الى اولئك الذين يسعون في الارض فساداً ويعطون سبل المارة ويسلبون أموالهم وبهددون حياتهم بل يهددون أمن الدولة وينقلبون نظام الحكم لكي تنتشر الفوضى ويعم الشر في أرجاء البلاد فوضع حكماً شديداً جعل جزاءه آخر ما يكون من العقاب جعله القتل أو الصلب على الاعواد أو قطع الابيدي والارجل من خلاف أو النفي من البلاد وخلاص الوطن من فسادهم وأردد ذلك باللعنة التي يرافقتها العبرة وما يتبعه من خزي عظيم ٠ وكل ذلك اذا كان هؤلاء في عنفوان قوتهم وشدة مقاومتهم واستمرارهم في محاربة الله ومحاربة العقيدة وتماديهم في تقتل الناس وسلب أموالهم وتهديد الامن فاذا اصبح هؤلاء في قبضة السلطة واصبحت السلطة قادرة على التنكيل بهم والقصاص منهم فلها ذلك وفق ما حدده القرآن وان تابوا الى رشدهم وتابوا واصلحو انفسهم فان الله غفور رحيم هنا يقر القرآن نظام العفو العام وهنا يظهر امتياز نظام الحكم الصادق لكي يطمئن المجتمع الى أن ولی الامر مثله كمثل الاب الرحيم اذا انقضى عليه أمر الاسرة وخرج بعض افرادها عليها لا يستطيع ان يتخلى عن زاوية بين جوانحه تکمن فيها عاطفة الشفقة والرحمة على الخارجين فاذا عادوا الى صوابهم وجدوا في ظلالها أماناً وراحة ٠

ان أروع جمال في أنظمة الحكم هو ألا تلجم السلطة الى تجربة
العضلات مع المجتمع وانما تجنب دوما الى الارادة القوية التي يقودها
العقل ولا يوجد شيء أجمل من ان تنزل القوة الى الرحمة عند المقدرة .

هكذا عالي القرآن نظام الحكم في عهد النبوة شدة في غير عنف وبين
من غير ضعف . ثواب في الآخرة ، وكرامة في الدنيا وعقاب في الآخرة
وخربي وعار في الدنيا .

ومن هذه القواعد العامة استطاع النبي محمد (ص) ان يكون هذا
المجتمع المثالي في عهده دون ان يحتاج الى درجات المحاكم والتشكيل
الاداري جاءته آيات من ربها فهمها المسلمون وآمنوا بها وعملوا بما جاءت
به دون ان يكون على رؤوسهم سيف مسلط او رقب عتيق غير رقابة النفس
اللوامة او الضمير الحي والعقيدة الراسخة بان هذا الدين دين السعادة
والرفاه دين الاخوة والعدالة والمساواة . وما دام هناك حساب في الآخرة
فان المؤمن يخشى وماما ثواب في الآخرة فان المؤمن يرجوه وبين الخوف
من العقاب والرجاء بالثواب انتظم الامر في عهد النبوة .



بَيْتُ الْمَالِ

دخل الناس في دين الله أفواجا وكثر عدد المسلمين ومنهم المسر والعسر
وتكون الجيش الإسلامي واشتدت الحاجة إلى المال لانه قوام النظم
الاجتماعية لانه العين الاول في الدفاع عن العقيدة الإسلامية في اسناد
الجيش واعالة الاسرة التي يترکها معيلاها اذا ركب جواده للجهاد في سبيل
الله ونشر عقيدة السماء وفتح الابواب لها لتأخذ طريقها الى القلوب فيخرج
الناس من الفلمات الى النور ونزلت الآية الكريمة بالامر الصادق : « خذ
من أموالهم صدقة تطهرهم وترکيهم بها وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم
والله سميع عليم »

واصبحت الصدقة فرضا على المسلم المسر وصار للمسلمين موضع
تجمع أموال الصدقات فيه وكان أكثر ما في بيت المال منها الماشية فقد كانت في
عهد النبي (ص) ما يقرب من اربعين ألفا من الابل والخيل وغيرها وكانت
لها مراع خاصة بها ويسقط توسعا به وكان النبي يتولى ذلك بنفسه وكان

محلها في البقيع يحفظها العاملون عليها الذين لهم حصتها منها وكان
 للصدقات أمراء وعمال بعثهم الرسول الى احياء البلاد ليجمعوها ويأتوا بها
 وقد بعث عدي بن حاتم الى طيء ليجمع الصدقة منهم كما بعث العلاء بن
 الحضرمي الى البحرين وعلي بن ابي طالب الى اهل نجران وبعث غيرهم الى
 كل ارض دخلها الاسلام وما بعث معاذ بن جبل الى اليمن واليا وفاضيا قال
 له - انك تأتي قوما من اهل الكتاب فادعهم الى شهادة ان لا اله الا الله وانى
 رسول الله فان هم اطاعوك لذلك فاعلمهم ان الله قد افترض عليهم خمس
 صلوات في كل يوم وليلة فان هم اطاعوك فاعلمهم ان الله قد افترض عليهم
 صدقة تؤخذ من اغنىائهم فترد على فقراهم فان اطاعوك لذلك فايام وكرائم
 اموالهم واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب وقد أمره الا
 يتعرض الى خيار الاموال ونفائسها التي تضيّع بها الانفس واوضح له انه
 لا يجوز للحكام والعاملين على الصدقاتأخذ كرائم الاموال واعطاءها
 الفقراء

وقد جمع القرآن الامر بالفرضة مع التأكيد من ثبوت العقيدة شأنه
 في كل تكليف يكلف الله به عباده وامر نبيه ان يقبل الصدقات من المؤمنين
 مقرونة بدعائه واستغفاره ففي هذا الدعاء والاستغفار تطمئن القلوب وتترتاح
 النفوس وهو بمثابة وثيقة تقدم للمؤمن المسر المتصدق للدلالة على طهارة
 النفس وتوجهها الى طاعة الله

وقد حددت هذه الفرضة تبعاً لعدد الماشية ونوعها وحددت على
 الفضة بالدرهم وعلى الذهب بالثقال وعلى الثمار بالعشر ونصف العشر وفقاً
 لطبيعة الارض وطريقة ريها ووضع حد تقف عنده الفرضة فلا يؤخذ
 من مقداره شيء وكل المقادير والحدود مفصلة تفصيلاً في كتب الشريعة
 الاسلامية وكانت هذه الصدقات توزع على من جاء ذكره في الآية الكريمة
 « اما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي
 الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فرضة من الله والله علیم
 حکیم »

فالفقير هو الحاج الذى يمكن ان ترتفع كرامته بمعونته من بيت المال من هذه الصدقة فلا ينزل الى السؤال ومثله المسكين الذى لا شيء عنده وهو أشد حاجة من الفقير . وتعطى للعاملين عليها وهم الذين يتولون جمعها وحفظها وخزنها وكتابه دواوينها ورعة الانعام منها . اما المؤلفة قلوبهم فقد كانوا كثيرين وهذه الكثرة مختلفة الانواع والاشكال سواء أكانوا مسلمين أم مشركين ولا يمنع ان يؤلف قلب من حسن اسلامه وایمانه لمكانته في قدمه فيعطي ما لا يتاسب مع مكانته وتؤلف قلوب بعض كبار القوم ضعفاء الایمان حتى يقوى ایمانهم وقد فعل النبي ذلك مع بعض الطلقاء من اهل مكة الذين اسلموا وفيهم المنافق وضعيف الایمان وقد حسن اسلامهم وقوى ایمانهم بعد ذلك ونوع آخر من هؤلاء المؤلفة قلوبهم قوم من المسلمين يسكنون التغور والحدود يعطون أيضا من أموال الصدقة أملأ في دفاعهم عن المسلمين اذا هاجمهم العدو وفريق آخر يؤلف قلبه ويسترضي لمكانته بين قومه ولتأثيره فيهم في جاية الزكاة من لا يعطيها الا بنفوذهم وجاههم كذلك تعطى للمشركين الذين يرجى منهم الایمان فتؤلف قلوبهم اكرااما لمنزلتهم بين قومهم وقد أسلم في هذا السبيل كثيرون وحسن اسلامهم .

ومن الذين فرض لهم القرآن فريضة في أموال الصدقة المكتوبون وهم العبيد الارقاء يدفع عنهم بيت المال ففك رقابهم ويصبحون احرارا وفي هذا متنهى السمو في العقيدة الاسلامية التي حاربت الرق حربا بأقوى الطرق حاربته ببذل المال بغية اعطاء الحرية وحاربته بالثواب ثواب الآخرة وجعلته كفارة للبيتين .

وهناك جهة أخرى يصرف عليها من أموال الصدقات أعني (الغارمين) وهم المديون الذين اصابتهم جائحة أو تحملوا حمالة فلم يستطيعوا دفع ما عليهم من الديون في بيت المال يؤدي عنهم ديونهم .

والفريق الآخر المفروض لهم نصيبيهم من بيت أموال الصدقات الغزاء والمرابطون على التغور في سبيل اعلاه كلمة الله الذين ليس لهم اسم في ديوان الجند أما ابن السبيل فهو المقطلع في سفره وليس لديه مال يقوم

أوده او يستطيع به ان يعود الى بلده هذه الفريضة التي شرعاها القرآن الكريم مقصورة على هذه الصنوف اما النبي واما بيت النبوة فليس لهم ان ينالوا من اموال الصدقات شيئاً ولو كانوا عاملين عليها ٠

في هذا النمط العالى من الضمان الاجتماعى استطاع الاسلام ان يكفل عيون القراء عن اموال الاغنياء ويحفظ التوازن بين طبقة موسرة وطبقة معسورة وقد كان يعطى للفقير ما يكفيه وأحياناً يرفعه الى مرتبة الاغنياء فيصبح يتصدق وقد بلغت بعض الاعطيات مائة بعير لشخص واحد وفي ترجمة النبي وترفع آل بيته عن اموال الصدقات امان واطمئنان للناس في ان هذه الفريضة ما شرعت الا لهذه الصنوف وان انعام الصدقة وأموالها محفوظة لهم لا تتمتد اليها أعين غيرهم ٠ حل محمد مشكلة المال بهذه الطريقة البسطة تارة بالوعيد واخرى بالثواب مع العفة والترفع من ان يناله منها شيء فهو الرائد والمرشد وهو ظل ضليل على المؤمنين يقيهم شرور الفرقة ويحملهم على الجماعة ٠ لقد كانت انعام الصدقة في زمن الرسول من الكثرة بحيث يخيل للمرء انه لا يوجد فقير في عهد النبوة وان الناس بعافية وخير وان الاسرة مكفولة اذا ذهب عائلها الى الحرب أو مات واستمر هذا الحكم الرائع وهذه الالفة والمحبة بين القراء والاغنياء أيام الرسول لا تشوبه شائبة وخللت المجموعة العربية الاسلامية تمثل مجتمعها فاضلاً ليس فيه حقد أو حسد وليس فيه تخمة في ناحية وألام وحسنة في ناحية أخرى ٠

ان المال عزيز عند صاحبه لا يفرط فيه بسهولة والفقير يكاد ان يكون كفراً والعناد في جهة واليأس في جهة أخرى يولدان حقداً أسود في طبقات المجتمع ولن يحلها الا عدل وفي هذا الطراز الرفيع من التشريع أمر النبي عماله على الصدقات ان لا يتعرضوا الى كرائم الاموال لانها غالبة ثمينة على أصحابها وأن يتركوا الاموال طبيعية تجري على اذالها ٠

وقد كانت العقيدة الاسلامية تفعل فعلها في نفوس القوم فكان فريق يقدم الصدقات طوعاً وهو مؤمن انها ستصل الى الله تعالى ومنهم من كان يقدمها كرها فلما توفي النبي (ص) ظن كثير من العرب ان هذا التشريع

خاص بزمن الرسول وان الامر الذي جاء في الآية الكريمة « خذ » لم يوجه الا اليه وانه انتهى بوفاته وامتنع كثير منهم عن أدائه واعتبروا من تدين عن عقيدة الاسلام وقد وقف الخليفة الاول أبو بكر وقفته المشهورة وقال قوله القاطع في حروب الردة وفي شأن الصدقة : « والله لو منعوني عناها وفي رواية عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله لاقاتلتهم على منعه » .

الرَّبُّ

كانت التجارة والحركة المالية في مكة والمدينة مزدهرة وكان للتجار
فيهما رحلة الشتاء والصيف وكان اليهود في يثرب من العناصر المتموّلة
التي تضارب بالأموال والتجارة وكان الربا له المكانة الأولى في العلاقات
الاقتصادية في المجتمع وله الامر القوي في الاستغلال وتدمير البيوت الفاسدة
وتحطيم الاسر وكان النبي قد أرسل ليكون مجتمعا فاضلا فلما فاجأهم
برسالته وجدتهم قد غطسوا في حمأة من الفطم والاحتكار وكان القرآن ينزل
بتاعا لصياغة هذه الامة وجعلها خير امة اخرجت للناس وفي غمرة هذا
التكوين كانت معاملات الربا تجري في عنف وفوة وفي طريقة غريبة فكان
الرجل منهم يكون له دين على آخر الى أجل فإذا حل الاجل يقول المدين
آخره عنى وأزيدك على مالك فيعلن وكان لهم معاملات في الماشية والانعام
طريقة وفي النقد طريقة فإذا كان الربا في النقد ولم يكن عند المدين ما
يؤديه وكان الدين منه مثلا فانه يكون في العام المقبل مثين وفي العام الثالث

اربعمئة وهكذا والمفسرون يقولون هذا هو الربا المضاعف • وهو الربا الذي نهى القرآن عن التعاطي به ومهما يكن من شيء فإنه ظلم واستغلال يترفع عنه الدين الإسلامي الذي حارب الاحتكار والاستغلال ونزلت الآية الكريمة في ذلك :

« يا ايها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا اضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون واتقوا النار التي اعدت للكافرين واطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » •

وضع القرآن قاعدة الحكم وعززها في الترغيب والترهيب والانذار والتبشير وجعل مخافة الله في رأس القاعدة واعد النار للذين يكفرون باحكام القرآن وجعل الرحمة منوطه باطاعة الرسول فيما يبلغ به عن ربه ووصف المرابين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل بالضغط واستغلال حالة الحاجة والفقر وصفا رائعا يفهمه فصحاء العرب الذين يأسرهم هذا التصوير البديع في الآية الكريمة : الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخطى الشيطان من المس » فالمرابون في نظر القرآن لا يدركون معنى الإنسانية ولا الغاية من تكوين المجتمعات الفاضلة فهم لا يقومون باعمالهم هذه ولا يفعلونها الا كمثل ما يفعل ويقوم به المجنون الذي لا يدرى ماذا يصنع كان به مسا من الجن فقد معه عقله وادراكه فالإنسانية كريمة على الله والذي يستغلها خارج على أوامره ونواهيه بعيد في تصرفه عن تصرف العقلا المؤمنين الصادقين • وفي هذا التصوير البديع ابرز القرآن النفوس الجشعة التي تستذل غيرها وتضيق عليها رزقها وتحول نعيمها بؤسا وشقاء وفي تهديد شديد قمع نوازع الطمع من هذه النفوس وارشدتها الى طريق الصواب وعزز ذلك بالآية الكريمة : « واحل الله السع وحرم الربا فمن جاءه مواعظه من ربها فاتته فله ما سلف وامرها الى الله ومن عاد فاولئك اصحاب النار هم فيها خالدون » • ولم يجعل القرآن خيارا للمرابين فيما يفعلون فشدد النكير على الذين يتمادون في افعالهم وجعل النار متوى لهم خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب وامرهم ان يتركوا ديوتهم من دون توقف وان يتوبوا

من هذه الجريمة المنكرة : « يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وذرروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله وان تبتم فلكم رءوس اموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » ٠

لقد نزلت هذه الآيات البليغة المحكمة عندما تمكّن الایمان من قلوب المسلمين وأصبح الخروج على العقيدة من أشد الامور على النّفوس الصادقة نزلت بعدما التأم شمل المسلمين وصاروا قوّة يرعبون عدو الله وعدوهم ونعموا بعدلة الاسلام واستظلوا بظلاله وصاروا اخوة في الایمان يشد بعضهم ازر بعض فمن ذا الذي لم يتبا ٩٩ ومن ذا الذي يريد أن يكون في حرب وخصام مع الله ورسوله ٩٩ ومن يجرؤ ان يخرج على أحكام هذه الشريعة الفراء ؟ فإذا تاب وهو تائب لا محالة وانه مؤمن يصلح نفسه والله يتوب على عبده التائب وإذا تحقق ذلك وتاب المربّيون بعد تحرير الربا وبقي الدين فلا يمكن ان يستمر ولا يكتب حقا شرعا بل يعود الدائن على مدینته برأس ماله فلا يظلم احد وإذا كان المدين مسرا فلا مانع ان يتضرر الدائن حتى يكون الذي عليه المال في حالة من اليسر تمكّنه من أداء ما عليه ٠ بل ذهب القرآن الى ابعد من ذلك لقد جعل في العفو على رأس المال وربّحه صدقة لها ثواب عند الله ٠

وقد وقف النبي (ص) ووقفه المشهورة ونادي بأعلى صوته : « الا وان ربا الجاهلية موضوع واول ربا ابدأ به ربا عمي العباس بن عبدالمطلب لكم رءوس اموالكم لا تظلمون » ٠ وبهذه الخطبة الجامحة استطاع النبي (ص) ان يمحو الربا من مجتمعه الفاضل الذي كونه في مشرق الدعوة ورباه على التعاون وحثه على الانفاق في سبيل الله وقارن بين الربا الماحق الذي يهدم الاسر ويزرع الحقد والضغائن في القلوب وبين الصدقة والزكاة التي تنتهر بها النفس من رذائل البخل والحرص وتترعرع في القلوب المحبة والالفة فلا ترتفع عين الفقر الى ثروة الغني ولا يكمن الحسد والحدق والحسنة في جهة والثراء والنعمة في جهة أخرى ٠

الربا في الجاهلية أنواع كثيرة وطرق متعددة في ادائه ووفائه والروايات

مختلفة في تحديده ومهما يكن من شيء فهو زيادة يأخذها رب المال من المحتاج قسرا ولم يكن هذا القسر بالعصا إنما الحاجة الملحة هي التي أجبرت المحتاج أن يتتجيء إلى التري لأخذ ما يستطيع أن يقوم به أوده أو يرفع به عمله أو يتخذ به مشروعًا يعود بالنفع عليه فيخسر أو يربح أو يتلف ويعود لا مال عنده ويتجمع عليه الدين اضعافاً مضاعفة فيتدمر ويهدىك ويدل وكفى بالفقر والذلة فساداً للمجتمع .

حطم القرآن قيود الربا وامتنع البيع . وقد كان البيع وحده مصدر الكسب ونماء الثروة في عهد النبوة فلم تكن هناك مصانع ولا توجد شركات تجارية وإنما كان أكثر سبل إنماء الثروة هي السبيل التي تتحذى في معاملات الربا وكانت تستند إلى جهود فردية ففرد يكتفي باتخاذ طريق الربا وسيلة لإنماء ثروته وفرد يكتفي بالبيع أن عواقب الربا وخيمة ونتائج البيع والمماضية دون غبن عظيمة ومباركة والبائع الأمين رابح محظوظ والمرابي المستغل ذليل مكره وحرم الدين الإسلامي الربا ووضع مقابل ذلك ما يشبه الضمان الاجتماعي لقد جعل بيت المال وموارد الصدقات عوناً كبراً يمون منها ابن السبيل والفقير المحتاج وتفتك رقبة المعق المكاتب من بيت المال إذا لم يكن لديه ما يعينه على ذلك ويدفع دين المدين الذي تلف ماله وكاد يضيع كرمه الاجتماعي . وكانت الثقة والصدق هما الأساس الأول في استقامة هذا التنظيم .

لقد هد القرآن ركناً من أركان التبادل التجاري في ذلك العهد وهو الربا الذي كان مصدرًا لأنراء غير مشروع وكان فاحشة وسوء سبلاً وبذلك استطاع الرسول (ص) أن يتحول في هذا التنظيم نفوس العرب من الجشع إلى الكرم ومن الانانية إلى الإيثار ومن الكره إلى المحبة ومن التفرق إلى الالفة لقد استطاع أن يصغر الثراء والمال في أعين المؤمنين وأن يكبر الإنفاق في سبيل الله ومعونة الفقير والعفو عن المدين وجعل من هذه التعاليم نوراً يشع بالفضائل ويسقط أمامهم طريقاً واضحاً يقودهم إلى مجتمع فاضل وختار لهم نظاماً ليس له حارس غير الإيمان الصادق بالله وبنبوة محمدٍ آمن

المؤمنون بما انزل على الرسول واتبعوا صراطه المستقيم فصفت نفوسهم
والنفوس الصافية ترکض الى الفضيلة ركضا وهكذا قبل المؤمنون هذا الحكم
العنيف بصدر رحمة ولم يمانعوا لانهم يخشون حرب الله ورسوله
ويؤمنون بان الجنة مثواهم وان جهنم مثوى للكافرين ٠

الْعُقُود

حرست الرسالة على تكوين شخصية المؤمن وعلى تربية ارادته سواء أكان ذلك بتوجيهه الى النظر في ملوك السموات والارض وما بث فيها من دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض أم بتفكيره في نفسه وما خلق الله فيها من بدائع الحواس ودقائق تركيب الاعضاء وترغيه في حياة فاضلة تنتهي به الى جنة عرضها السموات والارض أو تحذيره من نار موددة تطلع على الاشدة كي يستطيع في ظلال هذه الشخصية القوية والارادة الحازمة ان يتصرف تصرفا حرا يحمل معه مسؤولية النتائج وقد مهدت الرسالة بهذا كله لتخرج على المؤمنين بالأوامر والنواهي في الكف عما حرم الله والعمل بما أحله وتنظيم الصلات بين الأفراد بعضهم مع بعض ومع الخالق مع جهة أخرى وأهم شيء في هذا التنظيم العقد أو العهد والإيفاء به فان العقد رابطة يرتبط بها الشخص مع شخص آخر باتفاق ارادتيهما على انشاء حق أو على انهائه ومثلا يرتبط

به الشخص مع أخيه يرتبط به أيضاً مع حالقه وقد عنى القرآن عناية خاصة لما له من الأثر في حياة المجتمع وفي صياغة العقيدة « يا أيها الذين آمنوا اوفوا بالعقود » « اوفوا بعهدي أوف بعدهم » « واوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً » وفي مبادئ الرسول على الإيمان بالله وبرسالته نزلت الآية الكريمة : « لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فائز السكينة عليهم واتابهم فتحا قرباً » ونزلت آية أخرى مبنية على هذه في حق النساء بمبادئ الرسول على الإيمان بالله وبرسوله والعمل بما أنزل من القرآن الكريم على تبيه . وجاء في الحديث : « لا إيمان لمن لا إيمان له ولا دين لمن لا عهد له » كان الوفاء من أبرز صفات العرب وهي خلة كريمة فارسل الله رسوله في هذه الأمة ليتم مكارم الأخلاق فيها وليجعل هذه الصفة التي يتضمن بها أمر المجتمع من الخلال الكريمة التي يجب أن تتصف بها الأمة الإسلامية والبشرية جميعها ويسود الأخاء والمحبة والعدالة والصدق ويعم الأمان والسلام بين الناس .

إن العقد الذي شرعه الرسالة المحمدية عام يشمل عقدة الشركة وعقدة الزواج وعقدة الحلف والمعاهدات والاتفاقات على مستوى فردي أو مستوى دولي . وفي كتب التشريع والقوانين الحديثة أحكام مبسوتة بسطوا وأوضحاً ومتشعياً وترتكز عليها صلات الناس وحفظ الحقوق وانتظام المعاملات وقد تعددت أشكاله بتنوع أساليب الحضارة ولكنه لايزال في جوهره واركانه في كونه التزاماً يجب الوفاء به وفي كونه ارتباطاً يجب توثيقه ثلاثة يخiss به أحد الطرفين فتشكل الخلاف ويحتاج فيما بعد إلى القضاء وفض النزاع وعلى ذلك ضرب الله مثلاً لعباده في شأن المدينة وهي أكثر قضايا المجتمع تعقيداً وأولها فيما يحدث به الخلاف بين الناس فإذا وقعت المدينة إلى أجل مسمى بين شخصين فإن عليهما أن يكتباً بذلك وإن يقوم كاتب عادل لا يميل إلى أحد الطرفين فيجعل له حقاً على آخر لا يعرف به وإن يكون هذا الكاتب عالماً بشروط المعاملات وأصول الشريعة التي تحفظ الحقوق بين الطرفين موضحاً لا إبهام في كتابته بحيث تحتاج إلى

شرح يوضح الحق عما التبس به من الباطل فالكاتب بالعدل الذى جاءت به الآية الكريمة يراد به الرجل العالم الذى يكون بمثابة القاضى الذى بيت فى الامر من اوله دون الحاجة الى الرجوع اليه مرة أخرى .

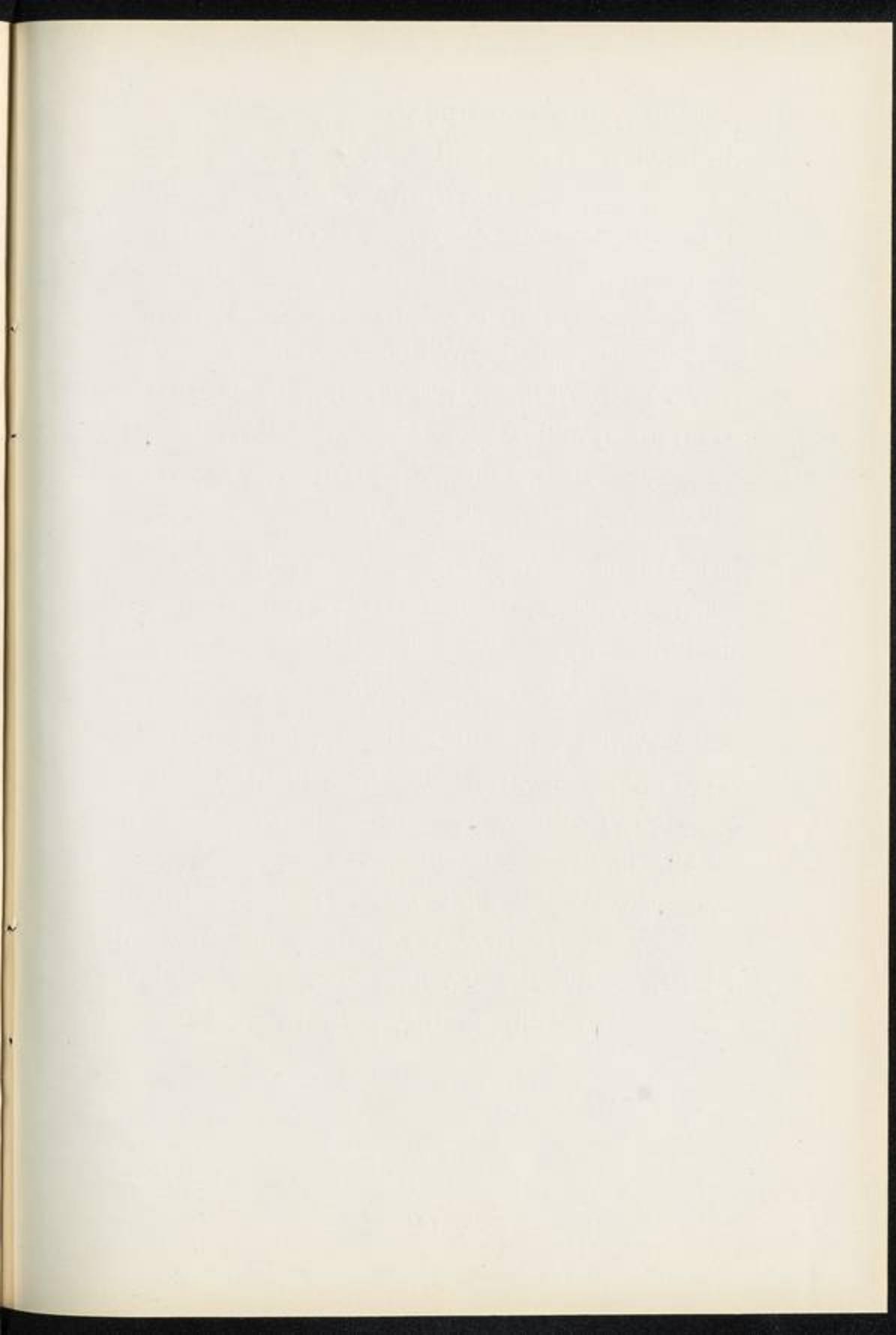
ووتفت الآية هذه الكتابة باشهاد شاهدين من المؤمنين الصادقين واوجب على الشاهدين الحضور اذا احتاج الامر اليهما في فض الخلاف وأكذ القرآن تأكيداً جازماً على الكتابة وأمر ان لا يتکاسل المتعاملان في شأنهما مهما كان العقد على الحق صغيراً كان أم كبيراً فان في ذلك ما يبعد عن الرببة والشلك وأمر القرآن بالابتعاد عن الفخر سواء أكان هذا الفخر لاحقاً بالتعاقددين أو الكتاب بالعدل والشاهدين واوضحت ان أي شيء من هذا القبيل يجرى في آية معاملة فانه خروج على الدين وعلى العقيدة ومعلوم ما يتأنى عن هذا الخروج من نتائج غضب الله وعقابه . ولکيلا يكون حرج في الاوامر والتواهي التي وردت في هذه الآيات رخصت الشريعة الاسلامية عند السفر وعند عدم وجود كاتب عدل ان يصار الى الرهن وهو ان يوثق العقد برهن عند احد الطرفين فإذا عادا الى مقرهما فعلى من أخذ الامانة ان يعيدها الى صاحبها وشدد القرآن النكير على من يكتم الشهادة في شأن العقود والمعاملات ووصفه بأنه آثم وان عمله لا يخفى على الله وعند الله تجتمع الامور . « يا ايها الذين آمنوا اذا تدایتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأت كاتب ان يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليليق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفاً أولاً يستطيع ان يمل هو فيمل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان من ترضون من الشهداء ان تضل احداهما فذكر احدهما الاخرى ولا يأت الشهداء اذا ما دعوا ولا تسأموا ان تكتبوا صغيراً أو كبيراً الى أجله ذلكم أقسط . عند الله واقوم للشهادة وادنى الا ترتباوا الا ان تكون تجارة حاضرة تدير ونها بينكم فليس عليكم جناح الا تكتبوا واشهدوا اذا تباعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وان تفعلوا فانه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل

شيء علیم وان كتم على سفر ولم تجدوا كتابا فرهان مقبوسة فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذی أمن أماته ولیتق الله ربہ ولا تکتموا الشهادة ومن يکتمها فانه آنم قلبه والله بما تعملون علیم ٠

اشتملت الآية الاولى من هاتين الآيتين على خمسة عشر أمرا ونها وفي كل هذه الأوامر والنواهي حفظ الحق وتکريم شخصية المؤمن واحترام ارادته ان تنزل وفي اتحراف الارادات عن الحق انهيار لنظام المجتمع لقد وقفت الحضارات الحديثة استقامه الارادة وصدقها بالسلطات الشرعية والقضائية والتنفيذية وعززت ذلك بالقوات وشرطة الامن واستطاع الاسلام في مشرق الدعوه ان يكون مجتمعا فاضلا مبنيا على العدل والمساواة والصدق والوفاء ب التربية الصالحة والارادة وتكوين الشخصية والتوب المرتجي في الآخرة والترهيب من العقاب المتضرر بعد البعث ٠

لقد وجد النبي ان خير النتائج في تنظيم الامة هذا الطراز في النظام الذي اختارته العناية الالهية واعاته على اتمامه ٠ وجد ان الارهاب في الدنيا لا يمكن ان يدوم وان العنف في الحكم سرعان ما يزول فدعما الى المجادلة والتي هي احسن كما وجد ان يدفع الخصم والتي هي احسن ٠

لقد وجد ان الحرية في التصرف اذا كان مستندا الى الايمان خير من التقيد فيها اذا كان مستندا الى الشرك فالمؤمن يستند الى ركن متين والشرك لاسند له في الحياة ٠ ان الذي يعبد صنما منحوتا من حجر لا يمكن ان تربى بين جنبيه روح يسهل عليها ان تتخلى عن الربا المضاعف اذا بلغ اضعافه مضاعفة ولا يسهل عليها ان ترجع الى رأس المال بسهولة او تنظر المعسر الى ميسرة ٠ ارتفع الاسلام بالمجتمع في جميع طبقاته من الامية الى تنظيم حضارة مبنية على الترابط بالعقود والوفاء بالمهود وشرع بذلك تشريعات متعددة تناولت الفرد والمجتمع والدولة ٠



مَشْرُوعَيَّةِ الْفَتَال

بين جبل النور والبيت العتيق هبط جبريل بالوحى الالهى :- وانذر
عشيرتك الاقربين واحفظ جناحك لمن اتبعك من المؤمنين •

وفي ضحوة مشرقة وقف محمد (ص) بين ظهراني عشيرته يدعوههم
إلى الرشاد ودين الحق ويقول : (أيها الناس ان الرائد لا يكذب أهله ،
والله لو كذبت الناس ما كذبتم ولو غررت الناس ما غررتكم والله الذي لا
آله الا هو اني لرسول الله اليكم خطا والي الناس كافة والله لتموتن كما
تتأمون ولتبغضن كما تستيقظون ولتجزون بالاحسان احسانا وبالشر شرا
وانها للجنة أبداً أو النار أبداً وانكم لاول من انذر بين يدي عذاب
شديد) • فهزهز محمد بهذا النداء افخدة قريش وزلزل ارادات صنادييد
العرب وطفقوا ينظرون اليه نظر التحير في أمره والمعجب من حدث جلل
لا يعرف مدى اثره وكبر عليهم ان يخرج من بينهم رجل يريد أن يجتث
ما كان يعبد آباءهم من أعماق صدورهم ومناط حواسهم وأخذتهم العزة

بالاتم ولكنه لم يأبه بهم لانه كان يريد بهم خيراً .

أراد أن يقول لهم ابني بعثت فيكم لاحملكم رسالة الفضيلة الى
أنفسكم والى البشرية جمعاء وجئت لامحو من نقوسكم عنجهية الطبقية
وابني بكم مجتمعا فاضلا في العدل والمساواة والقوة والعزوة والرحمة
والاخاء ولاجعل منكم اخوان صدق لافضل فيكم لاحد الا بالقوى
وصدق الایمان . فلم يسمعوا وأصرروا واستكروا استكبارا فعارضوه
وقاوموه والتلف حوله جمع قليل بادى الامر واسروا النجوى خوف ايذاء
قريش ولطف النبي معهم الدعوة واخذ يدعوا الى سبيل ربه بالحكمة
والموعظة الحسنة ويجادلهم بالتي هي أحسن ، فلم ينفع بهم وسدرت قريش
في غلوتها وأمعنت في ايذاء المسلمين واضطربت فريقا منهم للهجرة الى
الحبشة وما كان المؤمنون يستطعون الجهر بالقول ولا الظهور في العبادة
حتى آمن فريق من أشداء قريش بينهم حمزة وعمر فقال عمر حين آسلم
(يا رسول الله ألسنا على الحق ان متنا أو حينا ؟ قال محمد : بلى ! والذي
نفسى بيده انكم على الحق ان متم او حيتى فقال عمر (والله لا يعبد الله
سرا بعد اليوم والذي بعثك بالحق ما بقى مجلس كنت أجلس فيه بالكفر
الا أظهرت فيه الاسلام) . وأدركت قريش الخطر الذى يهدد مصالحها
وازدادت فى امعانها بالإيذاء بمن وقع فى ايديهم من المسلمين واضطرب النبي
إلى الخروج من مكة واضطرب المسلمون أن يتبعوه ويتركوا مناعهم وأموالهم
وأهلهم وكبتهم ورائهم ظلما بغير حق وظل فريق آخر لا يستطيع الهجرة
واستمر اتصال المؤمنين بمكة باخوانهم في المدينة وكان المكيون يفترضون
الفرص للالتحاق بمن سبقهم من المهاجرين هربا من ايذاء المشركين
ويتلقّلّون إلى اخوانهم من شدة الإيذاء فيقول لهم النبي اصبروا فانتي لم
أؤمر بالقتال وإنما أمرت بالصبر واشتتدت شوكة المسلمين باخوانهم الانصار
وتكونت عندهم السرايا فأخذ النبي يبعث سراياه إلى خارج المدينة وكان
على هذه السرايا حمزة بن عبدالمطلب وعيادة بن الحارث وسعد بن ابي
وقاص وأحيانا يكون النبي بنفسه على سرية منها ولم تشتبك هذه السرايا

مع قريش ولكنها أفادت من اتصالها بالقبائل التي تمر عليها في سيرها فعقدت معهم محالفات وضمنت معوتها اذا دعت الحاجة اليها وخشي قريش ان يتسع نفوذ النبوة فلا يستطيعون ان يتغلبوا على المسلمين بعد ذلك وأمعن في الاعياء وتهيأ للاعتداء وأصبح أمر الدعوة مهددا بخطر لا يمكن دفعه الا بالدفاع عنه فنزل الوحي على الرسول بهذه الآيات : (اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدر الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ولو لا دفع الله الناس بعضهم بعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز) . كانت هذه الآيات أول آيات أباحت في الاسلام الدفاع عن العقيدة وشرعت القتال وأجازت للمؤمنين قتال المشركين الذين أخرجوا المؤمنين من ديارهم بغير حق اللهم الا قولهم : ربنا الله وربهم ما سواه من الأصنام والآلهة وفي اباحة القتال أخذ المشركون يهينون أنفسهم لقاومة دعوة الاسلام وشرع المؤمنون يعدون لهم ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل يرعبون عدو الله وعدو المؤمنين وأمر الله عباده بالانفاق في سبيل الله ومضاعفة ثواب ذلك اضعافا في اليوم الآخر وأخذ المؤمنون يتسابقون في بذل أموالهم لاعلاء كلمة الاسلام : (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سبايل في كل سبعة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) . ولم يكن القتل الا آخر معالجة يرتكن اليها المؤمنون ولم يكن الا دفعا للشر ولم يكن الاستعداد له الا لايقف الخصم عند حدده . (فقاتل في سبيل الله لا تكلف الانفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بآنس الذين كفروا والله أشد بآسا وأشد تكيلا ووضع التشريع الاسلامي شروطا وحدودا للقتال . فهو دفاع لا اعتداء وهو مقابلة الخصم بما يفعل : (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين) وقد فرض الله القتال فرضا على المؤمنين عند اشتداد الخطر وعند تجاوز العدو وأوضحت الشريعة في مشروعية القتال ان الخصم اما يقاتل ليرد المؤمنين عن دينهم وانه مصر على هذه الفكرة ومستمر على الخصم والقتال

وحضرت المؤمنين من التراجع والاستسلام (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ومن يرتد منكم عن دينه فیتم وهو کافر فاولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة واولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

وفي هذا الوعيد الشديد قويت نفوس المؤمنين فاندفعوا يقاتلون في سبيل الله خصماً ضخم العدد والعدة مستيمياً في سبيل الحفاظ على اصنامه وتقاليده وكان المسلمين قلة فخشوا على انفسهم هذه الكثرة فنزلت الآية الكريمة : (يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئين وان يكن منكم مئة يغلبوا الفا من الذين كفروا بانهم قوم لا يفقهون) . ومع صدق الايمان وقوة العزيمة دخل الخوف في نفوس المؤمنين ووجدوا ان العشرين لا يستطيعون أن يقفوا أمام مئين من الاعداء ووجفت قلوبهم من هذا العدد الضخم ولم يستوعب عقلهم أن يكون المؤمن بعشرة من المشركين فجاء الوحي بأية أخرى (الان حفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفاً فان يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئين باذن الله والله مع الصابرين) فاطمأنت نفوس المؤمنين واصبح الواحد منهم باثنين وبقيت حواسهم هذه الفكرة قبل ان تقبلها عقولهم .

وأكمل الاسلام في مشروعية القتال على ناحية أخرى واراد بها وحدة الامة ووحدة الهدف والاستقرار للانصراف الى بناء المجتمع واداء واجبات الرسالة : (وقاتلواهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله الله) .

ومثلما شرع القتال للحفاظ على العقيدة كذلك شرع للذود عن أسر المسلمين وعن ضعفائهم ونسائهم وأولادهم الذين يستذلهم المشركون ظلماً وعدواناً وحرض النبي على إنقاذ مثل هذه الجماعات من مخالب الشرك والظلم : (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنَا من هذه القرية الظالم أهلها وأجعل لنا من لدنك ولنا وأجعل لنا من لدنك نصيراً) .

وربط القرآن مشروعية القتال بقوه الشخصية وتنظيم المجتمع فالذين

يقاتلون في سبيل اللههم الذين آمنوا برسالة محمد التي تهدف الى اقامة حياة فاضلة مستندة الى العدل والمساواة والاخاء وحفظ الدين ان تعصف به الفتن فيضطرب المجتمع اما الكافرون فهم الذين يقاتلون في سبيل الطغيان والشرور واقامة الباطل مقام الحق والظلم مكان العدل ومتى ما ساد الطغيان تحكم اولئك الشيطان من الناس ومتى تحكم اولئك الشيطان اضطراب المجتمع وانهارت اركانه ومثل هؤلاء الذين يقاتلون في سبيل الطاغوت اولئك الاقوام الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يدينون دين الحق هؤلاء كتب الله عليكم في شأنهم أن تقاتلوهم حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون •
وملاً التشريع قلوب المؤمنين بالثقة وأكذ لهم أن الحياة والموت أمران مقدران لن تغيرهما حرب أو سلم (اينما تكونوا يدركم الموت ولو كتم في بروج مشيدة) فالمؤمنون لا ترهبهم قوى الشر ولا يهابون موتها ولا تغرنهم الحياة • وطلب التشريع من المؤمنين في هذه الوجهة من نظام الحكم أن يطيعوا اوامر الله واوامر رسوله وان يتقووا الفتنة وان يذكروا الله حين كانوا مستضعفين في الارض يخافون أن يأخذهم الناس من كل جانب فـواهم ورزقهم من الطيبات في ظلال الامن والاستقرار (واذ ذكروا اذا اتيت قليل مستضعفون في الارض تخافون ان يتخلفكم الناس فـواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم شكرؤن) •

لقد أراد الوحي الالهي أن يخلق أمة وينشئ مجتمعا فاضلا ولن تنشأ أمة أو يخلق مجتمع الا في ظلال ارادة قوية وعزيم صادق وحيوية مبدعة ولا ابداع الا اذا كانت الشخصية تتمتع بالكرامة التي يحفظها العقل والسيف ولكن الشريعة الاسلامية لا ترکن الى السيف الا اذا هدد العقل بعدم الاخذ بما يراه وعلى ذلك كان الجدال بالتي هي احسن التكأة التي يرتكز عليها الاسلام فلما هوجم عاد الى السيف ليحمي العقل والعقيدة ولم يأخذ السيف مكانه في ميادين القتال الا عند الاعتداء وكانت القاعدة الاساسية في ذلك (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين) •

العُدَّة

استلزم تشرع القتال استعداداً بالمال والرجال وأنواع القوة جميعها من الخيال وأدوات الحرب واعداد المخطط والتبصرة بالامور والدعوة والارارة التخوة والترهيب من العقاب لمن يتخلف والتبيير بالثواب لمن يتقدم ويجهد وزرات الآية الكريمة (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم واتم لا تظلمون) ٠

ومثلما استلزم الاستعداد استثار الرجال ليكونوا على أبهة النزال استلزم أيضاً الترغيب في الإنفاق وضمان ما ينفقه المؤمن بالمنزلة العظمى عند الله والفوز بالرحمة والرضوان والجنتان والنعيم المقيم وخلود الذكر في الدنيا والآخرة ولم يستثن نظام الاستثار أحداً غير أولي الضرر الذين تحول عليهم دون الاستجابة فلا يستطيعون أن يلتحقوا بالجيش ويقاتلو في سبيل الله وانحى باللوم الشديد على المخالفين دون عذر في مواقع كثيرة (لا يستوي

القاعدون من المؤمنين غير اولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وانفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وانفسهم على القاعددين درجة وكلما وعد الله الحسني وفضل الله المجاهدين على القاعددين أجرا عظيما) ٠

واستنادي النظام الاعمى والاعرج والمريض ذا العلة الذى لا يستطيع مقاومة العدو (ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج) ٠ ومن نظام القتال ان حذر الرسول المؤمن وأمرهم باليقظة والاستعداد للعدو واخذ الاهبة للقائه فإذا خرج الجندي فيجب ان يكون خروجهم اما على شكل سرايا سرية بعد أخرى واما جماعة كاملة بقلوب متهددة وایمان بالنصر المؤكد ولا يجعلوا للمنافقين المتبطئين ثغرة ينحدرون منها اليهم ويتحولون دون التقدم واذا لقي المؤمنون عدوا فعليهم ان يتبتوا من أمره ولا يتبعجلوه فإذا لقي اليهم السلام وآمن بالله ورسوله فهو مؤمن وآمن عليهم ان يقبلوا منه ايمانه لأنهم لم يخرجوا للغذائم وانما خرجوا للدفاع عن العقيدة واعلاء كلمة الله ومتى سلم الرجل ورضي بالدعوة فيجب عليهم ان لا يقولوا له لست مؤمنا بيتغون من وراء ذلك عرض الدنيا والله يريد الآخرة :

(يا ايها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله فتباينوا ولا تقولوا من القى اليكم السلام لست مؤمنا بتبغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مقامات كثيرة كذلك كتم من قبل فمن الله عليكم فتباينوا ان الله كان بما تعملون خيرا) ٠

واذا لقي المؤمنون فئة كبيرة وتدارلوا في الامر ورأوا السلم أولى من الحرب فليقبلوا مبدأ السلم فان القتال لم يشرع للانتقام وانما شرع دفاعا عن العقيدة وحفظها عليها ٠ (وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم) وان كان المشركون بتبغون خديعة فلا يهتموا لها فان الله يؤيد عباده المؤمنين بنصر من عنده وان الخديعة لا تدوم ومهما طال أمدها فانها ستكتشف وان الغة قلوب المؤمنين واتحاد كلمتهم كفيلة ان تحول دون نجاح الخديعة ٠ (وان يريدوا ان يخدعواك فان حسبك الله الذي ايدك بنصره وبالمؤمنين والفقير بين قلوبهم لو انفق ما في الارض جميعا

ما الفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم انه عزيز حكيم)

وحفظا لارواح المجاهدين ان تهلك وتباد رخصت الشريعة المقاتلين ان يقتروا من الصلاة اذا سافروا لكيلا ينالهم المشركون بمكره بل لكيلا يمكنوا العدو من ظهورهم وهم في صلاتهم خائشون:(وادا ضربتم في الارض فليس عليكم جناح ان تقتروا من الصلاة اذا حفتم ان يفتكم الذين كفروا ان الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا)

ورخص الشرريع ان يقوم الجندي وقائدهم في الصلاة على نمط لا يؤدّي ان ينال العدو من ظهور المسلمين شيئاً وذلك ان يصلى الامام بالمؤمنين المجاهدين صلاة قصر في طائفتين : تصلى طائفة وراء الامام بأسلحتها وتقف طائفة تحمي ظهور المسلمين فإذا فرغت الطائفة الاولى جاءت الطائفة الثانية فأقام الصلاة واقتدت بالامام . فإذا اطمأن المسلمون وعلموا ان لا خطر عليهم فلا بأس من اقامة الصلاة كاملة لانها من اركان الاسلام ونزلت الآية الكريمة بذلك : (وادا كنت فيهم فاقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك ولیأخذوا اسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائهم ولنات طائفة أخرى لم يصلوا ، فليصلوا معك ولیأخذوا حذرهم واسلحتهم ، ود الذين كفروا لو تغفلون عن اسلحتكم وامتعتم فيميرون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم ان كان بكم اذى من مطر أو كتم مرضى أن تضعوا اسلحتكم وخذلوا حذركم ان الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً . فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم ، فإذا اطمأنتم فاقيموا الصلاة ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً)

كانت العقيدة أساس التعبيئة وكان الایمان التكأة الاولى التي استند اليها الشرريع الاسلامي في اثاره النقوس وتهيئتها للنزال في سبيل الایمان والمؤمنون الصابرون المثابرون هم الفائزون . والمنافقون المتباطلون في النار خالدون لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصررون . والمؤمنون المتناقلون معايبون عتاباً شديداً وملومون لوماً فيه تقرير ووعيد شديد وعليهم المبادرة الى طاعة الرسول والمخالفون يخشون الهلاك وهم في خشيتهم واهمون فانه لن

يصيّبهم الا ما كتب الله لهم وانهم يخافون الفتنة وهم في الفتنة ساقطون لا
 يقومون الى الصلاة التي هي رمز الجماعة ووحدة الصف الا وهم كسالي
 انهم لا ينفقون أموالهم ويختلفون على انفسهم هؤلاء منافقون لا تمتد ايديهم
 بالسخاء والانفاق في سبيل الله انهم يحلو لهم ان يقعدوا مع أولادهم وأهلهם
 ويدبروا أموالهم ولو استطاعوا ان يتواروا عن المؤمنين لا يتآخرون انهم
 يخافون الحر ويسيلون الى الاستبرار ، هؤلاء المنهارون نفسيا عقابهم عند الله
 ان ينبدهم المجتمع ولا يأبه بهم اذا عادوا وطلبو الخروج مع الجيوش
 الفظفارة مرة أخرى فلا يلتفت اليهم اذا مات أحدهم فلا يصلى عليه لأنهم
 رضوا ان يتخلّفوا عن المؤمنين في وقت الشدة أمثال هؤلاء نزلت بحقهم
 الآية الكريمة . (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليذبحهم
 في الحياة الدنيا وتزهق انفسهم وهم كافرون ويحلّفون بالله انهم لنكم وما هم
 منكم ولكنهم قوم يفرّقون ، لو يوجدون ملجأ او مغارات او مدخلات لولوا اليه
 وهم يجمحون . فرح المخالفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا ان
 يجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله وقالوا لانتروا في الحر ، قل نار
 جهنم أشد حرًا لو كانوا يفهون فليضحكوا قليلا وليلكونوا كثيرا جزاء بما
 كانوا يكسبون فان رجعك الله الى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن
 تخرجوا معي ابدا ولن تقاتلوا معي عدّوا انكم رضيتم بالقعود أول مرّة
 فاقعدوا مع الخالفين ولا تصل على أحد منهم مات ابدا ولا تقم على قبره انهم
 كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) .

هذا العقاب الشديد كان حافظا قويا وامتحانا صادقا للمؤمنين وسندًا
 متينا للعقيدة والدفاع عنها بمثابة العقوبة التي تضعها التشريعات الزمنية من
 حيث اللجوء الى السجن وفرض الغرامات . اما نظام الحكم في عهد النبوة
 فانه كان يجعل أمر المثوبة والعقاب الى السماء وكان وقوعها في المجتمع أشد
 من وقع عقوبات الدنيا . وكانت المثوبة أجمل وقعا والطف بردا على قلوب
 المؤمنين من آية مكافأة أو جائزة دينية : (لكن الرسول والذين آمنوا معه
 جاهدوا بأموالهم وانفسهم واولئك لهم الخيرات واولئك هم المفلحون أعد

الله لهم جنات تجري من تحتها الانها خالدين فيها ذلك الفوز العظيم) .
وبعد ان وضع التشريع الاسلامي هذه المقارنة والموازنة بين المؤمنين
المجاهدين والخالفين القاعدين استثنى فئات جاءت تتسابق لنصرة دين الله
غير ان صعوبة التعبئة حالت دون الاستفادة منهم . هذه الفئات لاجتاج عليها
وان الله راض عن افرادها لا يكلفهم الا بما لهم به طاقة . (ليس على
الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج اذا
نصحوا الله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم ولا على
الذين اذا ما اتوكم لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا واعينهم
تفيض من الدمع حزنا الا يجدوا ما ينفقون) .

ليس على هؤلاء تبعة انما التبعة على اولئك القادرين على الانفاق
والقادرين على الدفاع عن العقيدة يعتذرون ولكن لا يجدون عذرًا مقبولا
هؤلاء وأمثالهم ليس لهم حظ في الاسلام وليس لهم مكانة عند الله وعندكم
وعقابهم عظيم : (انما السبيل على الذين يستذلون وهم اغنياء رضوا بان
يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون . يعتذرون اليكم
اذا رجعتم اليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى
الله عملكم ورسوله ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كتم
تعلمون) .

وسيقسم هذا الفريق الایمان اليكم بانهم كانوا يريدون الخروج معكم
وانهم من انصاركم فلا تنقوا بهم فانهم رجس وان عقابهم في جهنم لن
يصلوا الى درجة المؤمنين الذين باعوا انفسهم لله ولا علاء كلمنه والذين
توا بهم عند الله جنات تجري من تحتها الانهار : (ان الله اشتري من المؤمنين
انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا
عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بهمده من الله فاستبشروا
بيعكم الذي بايعتم به وذلك الفوز العظيم) .

كان هذا الدفاع عن العقيدة أمرا محتملا لا محيلا عنه وكان القتال حدثا
طارئا اقتضته هذه الثورة الاسلامية التي أرادت به ان يحفظ وجودها وبهبيء
الجو لنموها وانتشارها وكانت التبعة بهذا الشكل الشخص شيئا جديدا

بالنسبة للحروب التي كانت تحدث في الجزيرة فإذا كانت الحروب تحدث لامر مادى ينتهي بتعويضه أو بالاستفادة منه فان هذا النوع من القتال شرع تشربها خاصا بحيث لا ينتهي في الجزيرة الا بعد وحدة الصف والفة القلوب واجتثاث الاصنام وعبادة الله واحد وعلى ذلك حرص التشريع الاسلامي على افهم المؤمنين ان الله معهم وانه لا محالة ناصرهم فبشرهم في الجنة والرفة وانذرهم بالجحيم والعذاب المقيم والذلة في أماكن متعددة ولم يترك القرآن فرصة الا اوضح بان العاقبة ستكون للمؤمنين مهما كانت المقدرات وان الصراع الذي يحدث على الارض هو من طبيعة هذا الوجود فليثبت المؤمن فان النصر بيد الله يؤتى من يشاء (يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فارسـلـنا عليهم ريحـا وجـنـودـا لم تروها و كان الله بما تعلمون بصيرا) .

لقد عالج القرآن دوافع النصر مثلما عالج اسباب الهزيمة وفي كلتا الحالتين كان يؤكد على المؤمنين انهم بشر وان الخصم بشر مثلهم وان تفوقهم وهزيمتهم مرهونان بمقدار ما يبذلونه من الجهد ومقدار ثباتهم على العقيدة وتمسكهم بالإيمان بالله وبرسوله ولكنه كان يملاً قلوبهم بالثقة بالله وبالقضاء والقدر ووعد المؤمنين انه سيلقي في قلوب الذين كفروا الرعب ويبثت افدام الذين آمنوا ويؤيدهم بالنصر . (لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تعن عنكم شيئاً وضافت عليكم الارض بما رحبت ثم وليت مدربين ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وانزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين) .

وزاد القرآن على هذه الحكم في التشريع صفة ثانية تتصل بالبشر وهي الثقة بالنفس والإيمان بالقضاء والقدر وان المقدر مكتوب فلن ينجى الفرار احدا من الموت اذا كان مقدرا له ان يموت ولن يصييه شيء اذا قدر له ان يعيش . وكانت هذه القاعدة من اجل القواعد التي اندفع بعدها المؤمنون يدافعون عن العقيدة ولقد وثق المؤمنون بالقضاء والقدر ووضعوا دماءهم وأموالهم

بین يدی رسول الله فی طاعة منقطعة النظیر فکان النصر یوایم و کانوا یستفتحون
فیأیم الفتح من عند الله و کانوا اذا أقدموا ملاً الرعب قلوب المشرکین
خوفاً فیستسلمون طوعاً او کرها لقد حبب الاسلام التضحية للمؤمنین مقابل
رضاء الله فاحجووا الموت فی سیل الله كما أحب غیرهم الحياة فی سیل الدنيا ٠

الغَنَائِمُ وَالْفَيْعُ

قويت شوكه المسلمين وأخذت سرايا الجيش الاسلامي تجوم حول المدينة وتقترب من مكة والتحمت القوتان قوة المؤمنين وقوة المشركين وانتصر المسلمون ووقع بأيديهم الاسرى واصابوا الفنائيم ، وافاء الله عليهم غنائم أخرى دون أن يقاتلوا أحدا عليها فكان لا بد من نظام بين وضع الفيء وقسمة الغنائم على المقاتلة المجاهدين في سبيل الله فأخذ كل واحد منهم نصبيه بعد ان تعرض لحد السيف وسنان الرمح وسهم القوس وباع نفسه لله يبغى من وراء ذلك رضاه وثوابه في رياض الجنان مع الصديقين والشهداء في الآخرة ويأمل في الدنيا حسن الاحدوثة ورفعه المكانة بين المؤمنين المدافعين عن حوزة الاسلام *

ونزلت الآية الكريمة : (واعلموا ان ما غنمتم من شيء فان الله خمسه ولرسول ولذى القربي واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كتم آمنت بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء

وكان نزولها على ارجح الاقوال بعد واقعة بدر وبعد انتصار المسلمين انتصارا حاسما في هذه الواقعة ووقوع الغنائم والاسرى في ايديهم وبعد نزول هذه الاحكام الواضحة ابتدأ فرض قسمة الغنائم فكانت خمسة لله ولرسوله ولذوى القرى الادين من أهل بيت النبوة الذين لا يحق لهم ان يأخذوا نصيا من الصدقات ولليتامى المحتاجين الذين ليس لهم مال ولا اولياء ينفقون عليهم وللمساكين ذوى الحاجة الملحقة ولابناء السبيل الذين تقطعت بهم السبل فلا يستطيعون الوصول او الرجوع الى مکانهم وليس في ايديهم اموال ينفقون منها على أنفسهم . اما حق الله في هذا الخمس فانه ينفق على مصالح المسلمين العامة كمثل بناء المسجد واقامة الشعائر وما الى ذلك . وحق الرسول فيه ان يأخذ كفایته ويعطى لذوى القرى ما يصيغ لهم منه . والخمسة الاربعة الاخرى من حق المقاتلة المجاهدين في سبيل اعلاء كلمة الله للفارس ثلاثة اسهم وللراجل منهم سهم واحد .

واما اموال الفيء فليس لاحد من المقاتلة حق فيها وهي اموال وقعت بيد المسلمين بلا حرب ولم يسرعوا على ظهور الخيل والابل لاخذها من يد المشركين بالحرب ولم يتعرضوا فيها لسهام العدو فهي اموال خالصة لله ورسوله يضعها الرسول حيث يشاء وقد نزلت في احكامها الآيات الكريمة : (وما افاء الله على رسوله منهن فما اوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسلاه على من يشاء والله على كل شيء قدير . ما افاء الله على رسوله من اهل القرى فله ولرسول ولذوى القرى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فاتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب) .

وقد اتضحت من احكام هذه الآيات ان اموال الفيء اموال خالصة لله ولرسوله خاصة بهما يضعها الرسول حيث يشاء ويوزعها كيفما يشاء في أعمال المصالح العامة وعلى ابناء الشعب الذين منهم بعض قرابة النبي ومنهم اليتامى والمساكين وابناء السبيل حفظا لكيان الامة وبناء المجتمع الاسلامي

الجديد الذى كانت فيه فجوات كبيرة بين الاغنياء والفقراء ولکي لا تبقى
الحسرة في قلوب الفقراء والثروة في ايدي الاغنياء . كان هذا التشريع
الصادق سبلاً للمحبة وتألف قلوب المؤمنين وتربيه نفوسهم على الايثار
وقد أوضح القرآن الكريم ان الحكمة في هذه القسمة والتغليم أن لا تكون
الاموال كلها بيد الرؤساء والاغنياء يستأثرون بها لانفسهم ويتداولون بها
بینهم والفقراء ينظرون اليهم تتضرر قلوبهم ألمًا وحسرة .

وختم القرآن هذه الاحكام بمثل ما يختتم به عادة الاحكام الأخرى
التي تنظم المجتمع . من التصميم والتنفيذ والطاعة والاذعان وبيان المذوبة
والعقوبة في حالي الطاعة والمخالفة « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم
عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب » .

ونزلت آيات أخرى في هذا الشأن وبينت المقصود من الفقراء فكانوا
ذوى القربى واليتامى والمساكين وابناء السبيل من فقراء المهاجرين الذين
اخرجتهم قريش من ديارهم بمكمة وفروا بدينهن وايمانهم الى المدينة جهاداً
في سبيل الله ونصرة لدينه فالتجأوا الى الانصار يرجون بفرارهم أن يمن
الله عليهم بنعمة الامن والاستقرار والعيش الرضي في ظلال الاسلام مع
النواب في الآخرة هؤلاء هم الذين يستحقون الفيء الذي يقع بيد المسلمين
بلا حرب ولا نزال : (للفقراء المهاجرين الذين أخرجو من ديارهم
واموالهم يتبعون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله اوئلهم
الصادقون) .

كان هذا التعويض العادل موضع رضا المهاجرين والانصار وكان
حافظاً قوياً للمؤمنين في سبيل الله كان ينبعاً نفسيّاً تربّت عليه نفوس المسلمين من
الإيثار والمحبة والالفة وقد أمتدح القرآن فريق المهاجرين الاغنياء وامتدح
الانصار الذين ساعدوا هذا الفريق من المهاجرين ونزلت الآيات الكريمة
في حق الانصار تشيد بذكرهم وهي على كونها خاصة فانها أحكام عامة
للمؤمنين أجمعين : (والذين تبوعوا الدار والآيمان من قبلهم يحبون من
هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويوثرون على انفسهم

ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون) ٠
 هؤلاء هم الانصار الذين استقبلوا المسلمين المهاجرين من مكة وذويهم
 لقد استقبل الانصار هذا الفريق بالمحبة والايثار واسكتوهم وشاركونهم في
 أموالهم وأقواتهم بل فضلوهم على انفسهم مع الحاجة الشديدة ٠
 وقد ذكرت اخبار السيرة النبوية والاحاديث الشريفة توضيحاً لهذه
 الآيات الكريمة بما يدل على علو النفس الانسانية التي ربها محمد وعلى
 النظام الاجتماعي الذي اخترته السماء لهذه الامة فقد ذكرت الاحاديث ان
 النبي (ص) عندما حصل على الفيء قسمه بين المهاجرين ولم يعط الانصار
 شيئاً الا ثلاثة فقراء منهم محتاجين فلم يظهر الانصار تبرماً ولا غيظاً فلما
 رأى النبي (ص) منهم هذه المواقف النبيلة ودعاهم وانني عليهم وحمد
 موافقهم للمهاجرين ورأى ما صنع الانصار للمهاجرين في منازلهم ومساركthem
 في أموالهم فقال لهم ان احييتم قسمت ما أفاء الله علينا بينكم وبين المهاجرين
 وبقوا على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم ومقاسمة أموالكم وان
 احييتم اعطيتهم الاموال وخرجوا من منازلكم ، فقال سعد بن عبادة سيد
 الخزرج وسعد بن معاذ سيد الاوس : (بل تقسم بين المهاجرين ويبقون في
 دورنا كما كانوا ، فنادى جميع الانصار : رضينا وسلمنا يا رسول الله ٠
 فقال رسول الله ٠ اللهم ارحم الانصار وابناء الانصار ٠

هذا مثل رائع من الخلق العربي الكريم ومثل رائع من النظام
 الاجتماعي الاسلامي الذي اوجده القرآن برسالة محمد وهذا هو السر
 العظيم الذي ابنت عليه حضارة الاسلام فيما بعد ايثار ومحبة وتدالو في الامر
 دون ضغط وتعويض عادل وقسمة شريفة فيها حفظ كرامة الانسانية وفيها
 الاعتراف بحقوق الانسان لم يضغط النبي (ص) على الانصار في سكنى
 المهاجرين في دورهم ومقاسمتهم أقواتهم وأموالهم ولم يبحث المهاجرين على
 هذه السكنى بل كانت ضيافة عربية كريمة فيها منزلة ورفعه في الدنيا وفيها
 علو همة وحسن احديوثة وفيها قيمة للخلق العربي الكريم وفيها رضاء
 الله ومتوبته في الآخرة حيث يكون المؤمنون المؤثرون على انفسهم في
 منازل الانبياء والصديقين والشهداء ٠

ربى محمد (ص) هذه الامة مبتدئا من نقطة واحدة مهمة هي الاعتراف
بكراة الانسان واعتباره احسن مخلوق على وجه البسيطة وما حوله قد
وجد لاجله ولحفظ كرامته ولم يعامل الانسان مادة لا قيمة لها او سلعة
تتداول كمثل السلع الاخرى انه يرى في الانسانية طاقات هائلة للوصول
الى المثل الاعلى وكلما استمر الانسان في تربيته الصافية استطاع ان يخدم
الحضارة البشرية ويسيطر على الكون ويسبر غور الطبيعة وكل نظام في
انفلمة المجتمع لا ينظر هذه النظرة الى بني الانسان نظام فاشل ان المادة
جهة واحدة فقط في تكوين الانسان فإذا نظرت اليها القوازين وحدها
وأهملت الجهة الروحية فشلت ولن تنجح . فان الانسان مادة وروح وكل
نظام يؤلف بينهما ويحترمها نظام ناجح والاسلام نظام يجمع بين المادة
والروح وعقيدة تعز بالكرامة .

الْحَكَامَة

عشت أربعين أسبوعاً في مهبط الوحي وكلما مضى أسبوع استدعت
الذاكرة صورة جديدة لاسبوع آخر • وذكرى مهبط الوحي تتلاحم
صورها ومشاهدتها مشهد يدعو مشهداً وتتدفق موادها تدفق الماء النمير من
العين الصافية ولما بدأ القلم يكتب حروف الخاتمة تمشت بين جوانحه رعدة
الرعب والجلال ، ذلك ان الصور ازدحامت في مخيالي والمشاهد تجمعت
حول ذاكرتي واشرأبت أعناق الامجاد ت يريد ان تظهر للوجود ليقرأ الناس
سر عظمية رسالة محمد (ص) وتريد من القلم ان ينطلق ولا يقف لتشبع
رغبات المؤمنين بقرآن محمد ت يريد ان تظهر متألقة ترسل أشعتها في دجنة
هذا الفلام الحالك الذى يلف العالم بالالحاد والافساد ت يريد ان تبرز الناس
سورا حية في قيادة محمد وهدايته وثبات ابي بكر وحزمه وعدل عمر
وتنظيمه وكرم عثمان وحلمه وشجاعته علي وزهده ت يريد أن تظهر في
صناديد الاسلام : في خالد والمتى وابي عبيدة وعمرو بن العاص ت يريد ان

تبرز في هذه الشريعة الغراء التي بعثت من ينابيع النبوة من القرآن والحديث
والادب الجم والخلق الكريم والسلوك المستقيم ت يريد أن تثبت للوجود
ان هذه الامة كانت خير امة أخرجت للناس : تلك الامجاد لو كان البحر
مدادا لفضائلها لنفد البحر قبل ان تنفذ خصائصها ولو جئنا بمثله مدادا ٠

في مهبط الوحي كتبت ما سمح لي الزمان به ان أكتب على كثرة
العمل ومشاغل الدنيا واطلقت القلم واني أعلم باني أغزر من يوفقه ولكنني
عللت نفسي ان هناك من يبدأ حيث انتهيت ومن يصحح حيث اخطأت ومن
يغفر اذا زلت ويصفح اذا وقفت فان العمل كثير والموضع متشعب ومحظوظ
والوقت ضيق وقصير ٠

كانت صور مهبط الوحي واقفة أيام عيني وقوف الشخص في المراتب
المقابلة لا حدود لها ولا نهاية فلقد خلق الاسلام أمّة ملأ قلوب بناتها بالإيمان
ورفع جاهها الى الاعالي ومن ينظر الى الاعالي يسهل عليه زيل العالى انشا
محمد جيلا في جامعة مكة والمدينة وكانت منابر درسه في منبر الرسالة وكانت
محاضراته ينزل بها جبريل من السماء كسلسلة الجرس ترن في الاذن
فينصب الإيمان اجلالا وتعظيمها فتنفتح عن حكم فاصل وارشاد منير وكان
العرب الذين تلقوا الوحي في فجره على سمو كعبهم في البلاغة والفصاحة
ورفعه مجدهم في الثقافة والمعرفة التلاميذ الاول في جامعة محمد وكثير منهم
من عض على قارحة الكمال في بلوغ السن وعلو المزلة بين قومه وكانوا
اذا سمعوا الوحي خروا له سجدا اذا وقفوا أمام محمد عشيته عيونهم من
جلال النبوة فاذعنوا لاختيار السماء ٠ في هذا الجو المقدس المحفوظ بالروعة
والجلال تخرج تلاميذه فساروا على منهجه ٠ يا لها جامعة استمرت ثلاثة
وعشرين عاما تخرج فيها الخلفاء والقادة وامراء الجيوش وولاة الامصار
والقضاة والفقهاء تخرج فيها المحدثون والحافظون والمستبطون والمشروعون
تخرجت فيها امة كاملة تحب العدل وتكرم الاخوة وترضى بالمساواة وترکن
إلى الشورى وتمجد الوفاء والكرم وتعتز بالشجاعة والاقدام وتحفظ حقوق
العلماء وتعلم الجهلاء وترشد السفهاء

ثلاثة وعشرون عاماً والوحي ينزل من السماء ومحمد يبلغ ويحدث
قبليه وحي وكلامه حديث وفعله قدوة وسلوكه مثل يحتذى به والناس
راضون والمجد يحفل بالاسلام والاسلام يعلو شأنه يوماً بعد يوم ومن هذه
المدرسة اندفع الرعيل الاول من العرب وال المسلمين الى العالم يحملون قرآن
محمد (ص) وأدبه والقدر يخطط لهم في اللوح صحائف المجد في الفتوح
ونور الاسلام يشع فيضيء الدجنة الحالكة في أرجاء العالم *

لقد اجتمع على هذا الفتح المبين والنصر المؤتّل قوة السماء وهدايتها
وارادة العرب وشجاعتهم فهم حملة الرسالة الاول وهم الذين وضعوا في
أعنقهم أداءها وهم الذين حملوا الامانة بعد السماء والارض وهم عالمون
بتقلّها فأدّوها خير أداء *

ان صفات العرب في الحلم والكرم والوفاء والصدق والتضحية حملت
الامم على الالتفاف حولهم فـأمنوا بالله ورسوله وصدقوا بآياته وثقفوا لغة
العرب وتقهقروا في الدين الحديث فتبوعوا مناصب العرب والعرب راضون
خاضعون لقاعدة علمت الناس كيف يكون العدل وكيف تسود المساواة :
انما المؤمنون اخوة) كانت هذه القاعدة روح المجتمع الاسلامي وعقله
الذى امتاز بها عن مجتمعات الامم الاخرى * لقد ابنت قواعد المجتمعات
بالفلم والعدوان والعبودية والرق وامتهان كرامة الانسان واختلاف الطبقات
علوا وضعة فكانت هذه القاعدة تجديداً محظى الفوارق في الجنس واللون
وفي الزمان والمكان * كانت مقصتاً حاداً قلم أظافر الغرائز فـتأخت على
اظهار الحق وتعاونت على دفع الباطل * أشاعت الاخوة الاسلامية والمحبة
بين المؤمنين فبرزت بينهم غريزة الايثار والتضحية وشهد العالم لوناً جديداً
سامياً من الوان البشرية وهبت عليه نسمات الرحمة والشفقة وخضع التاريخ
لفضيلة كبرى ما عرفها قبل العرب وسجل على نفسه وفي أروع صفحة
من صفحاته تلك العبارة الخالدة : (ما عرف التاريخ فاتحها أرحم من
العرب) لقد كانوا في فتحهم رحماء وفي شرعيتهم فقهاء وفي اقدامهم شجعان
وفي العلم اذكياء وبناءً أبدعوا مدرسة محمد أوائلهم فسلك التابعون مسلك

الاولين وبرزت مواهبهم فبنوا لنا هذه الحضارة التي تعد من أرقى الحضارات
لقد برعوا في الفلسفة مثلما برعوا في التشريع وبرعوا في الفلك والرياضيات
وبرعوا في الطب مثلما برعوا في علوم الطبيعة أغان قرآنهم ذكاءهم لأن
القرآن يبحث على الابداع ويبحث على التقدم ويبحث على التطور ويحضر
المؤمنين على التفكير في ملوك السموات والارض وفي النفس الانسانية وفي
هذا الحث يعطي القرآن درساً بليغاً في وجوب التطور وعدم الوقوف في
مكان واحد . ان التفكير في خلق السموات يتطلب النظر في ابعادها وافلاكها
والتفكير في خلق الارض يتطلب البحث في اغوارها وانجادها والتفكير في
النفس المعقّدة يبعث الانسان الى الاقدام في البحث في دقائق الخلقة والتعبير
عن قدرة القدير . لا رجعية في طبيعة العرب ولا رجعية في سور القرآن
وآياته فالعرب أمة طامحة والقرآن ينبوع يتدفق بالامجاد والابداع والعدل
والمساوة والمحبة والاخاء .

أترك القلم في مهبط الوحي وعمود من نور يتراهى أمام ناظري صاعداً
من غار حراء في جبل النور المطل على البيت العتيق مرتفعاً إلى عنان السماء
وأتخيّل جبريل يرف بجناحيه هابطاً يحمل الوحي بهداية الرحمن ثم تمر
أمام ناظري جموع المسلمين تطوف بالبيت العتيق وتسعى بين الصفا والمروءة
وانتقل بخيالي فأبصّر الزحوف المتهاوية بين مكة ومنى وعرفات ويمتدّ بي
الخيال فأتذكر صاحب الرسالة واتخيّله واقفاً على صخرات جبل الرحمة .
لقد كان محمد (ص) رائداً والرائد لا يكذب أهله لقد صدق وعده حين قال
أيها الناس والله ما كذبتم ، وطبق في ارشاده وتعليميه وتكوينه ثلاثة
وعشرين حجة وفي حجة الوداع وقف مبشرًا فرحاً يرى جموع المسلمين
حوله تزهو بقوّة الايمان يتلو عليهم آيات السماء : (اليوم أكمّلت لكم
دينكم واتّمّت عليكم نعمي ورضيتك لكم الاسلام دينا) .

صدق الله العظيم والى حج قابل إن شاء الله .

* * *

تم الفراغ من تدقيقه في يوم الجمعة السابع من ذي الحجة لعام
١٣٨٤هـ الموافق لليوم التاسع من نيسان لعام ١٩٦٥م .

شکر و تقدیر

أريد أن اسجل شكري وتقديري للفاضل الذين أيدوني بعملهم في إخراج هذا الكتاب على هذا النمط الذي يراه القارئ، وأخص بالذكر منهم صديقي الفاضل الدكتور أحمد ناجي القيسي الاستاذ بكلية الآداب بجامعة بغداد وصديقي الفاضل الدكتور أحمد مطلوب الاستاذ بكلية الآداب بجامعة بغداد .

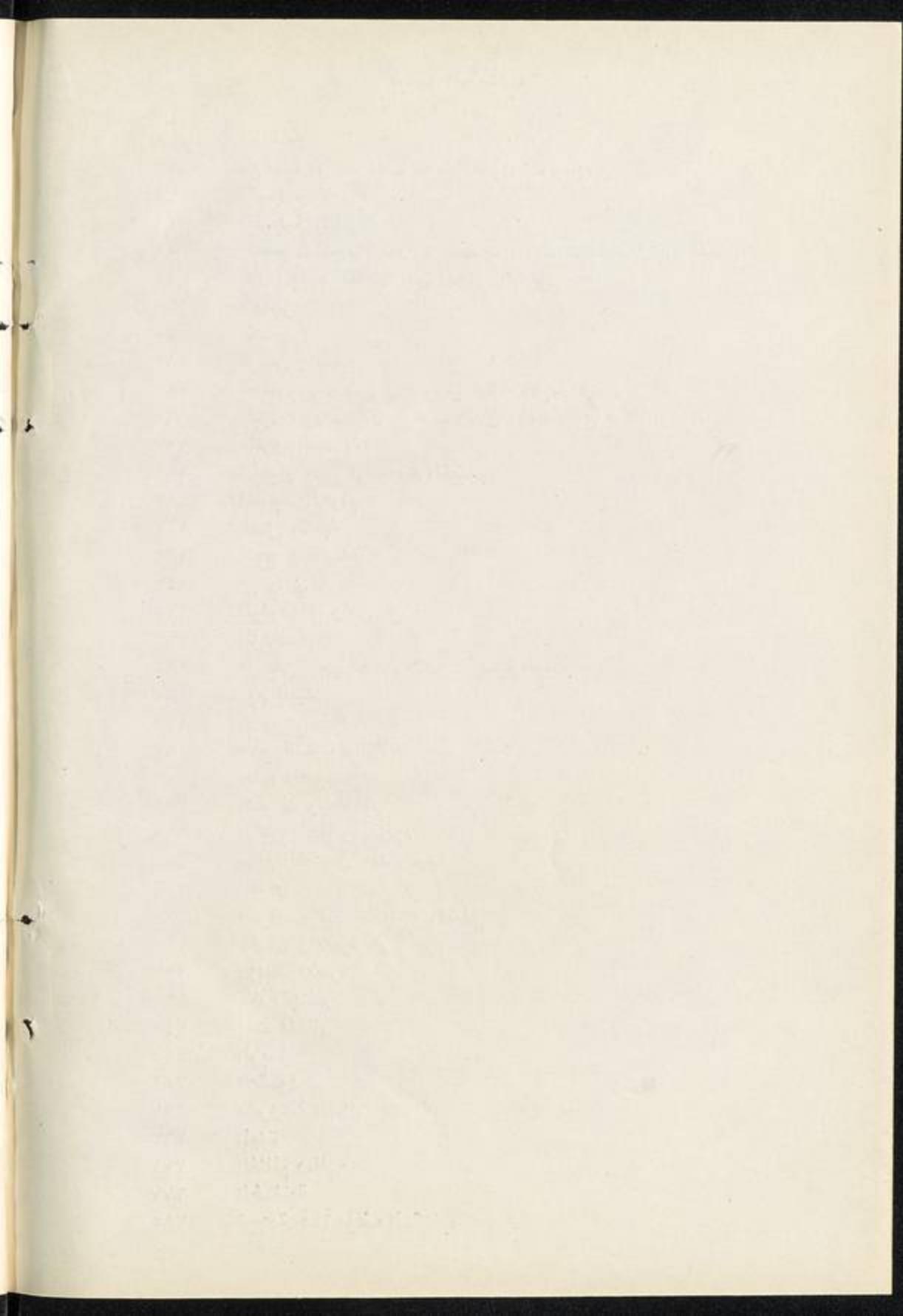
والصديق السيد مكي الجميل سفيرنا في جده الذي قدم إلى التقرير الرسمي في موسم الحج وزودني بمجموعة من الجرائد اليومية التي صدرت أثناء ذلك الموسم .

ولا أنسى معونة أولئك العلماء الأفاضل الذين اغترفت من مناهلهم العذبة ما اسبغ على الكتاب طابع البحث العلمي والتاريخي أولئك الأعلام الذين خلد ذكرهم فضل عملهم وأخص منهم : الطبرى ، والمسعودى ، وابن الأثير والبلاذرى وابن سعد وابن هشام والبخارى وغيرهم من الأفاضل الذين يضيق بهم المقام هنا رضى الله عنهم جميعاً ومن الكتب الحديثة التي استعنت بها : كتاب تاريخ مكة مؤلفه الفاضل أحمد السباعي جزاء الله خير الجزاء ولا أنسى أن أخص بالشكر السيد عبدالحميد العانى صاحب مطبعة العانى الذي نشر الكتاب وداوله بين الناس لجميع هؤلاء أكرد الشكر والثناء وجزاهم الله خير الجزاء .

المؤلف

ثبت الكتاب

	ص
المقدمة	٨
من جدة الى المدينة — محمد رسول الله (ص)	١٨
الضجيج الاول	٣٤
الضجيج الثاني	٤١
البقيع — شهداء بدر — شهداء أحد — عثمان بن عفان	٥١
بدر الموقعة الفاصلة بين الحق والباطل	٥٩
العمرة	٦٩
مكة	٧٥
قريش والكعبة	٨٣
محمد بين قريش في مستهل حياته الاجتماعية	٨٩
جبل التور — غار حراء — المكان الاول الذي هبط اليه الوحي	٩٧
شرق الدعوة	١٠٧
الاطوار التي مرت بها الكعبة	١١١
المسجد الحرام	١١٧
غسل الكعبة	١٢٣
الحج ومقاصده	١٣٣
الى وادي عرفة	١٤١
الوقوف في وادي عرفة	١٤٥
المزدلفة	١٥٧
الى منى لرمي الجمرة الاولى — جمرة العقبة	١٦٣
يوم العيد	١٦٨
الاضاحي	١٧٧
أيام التشريق الثلاثة	١٨٣
امارة الحج	١٨٧
الطواف والمطوفون	١٩١
اركان الحج وشعائره	١٩٧
نظام الحكم في عهد النبوة	٢٠٢
القرآن	٢٠٩
القرآن يربى شخصية المسلم	٢١٥
القرآن والأسرة	٢٢٠
روابط الأسرة	٢٢٧
بناء المجتمع	٢٣٣
بيت المال	٢٤٠
الربا	٤٤٥
العقود	٢٥١
مشروعية القتال	٢٥٧
العدة	٢٦٣
الفنان والفيء	٢٧١
الخاتمة	٢٧٧
ترجمة حياة مؤلف الكتاب	٢٨٥



مؤلف الكتاب

مؤلف هذا الكتاب الدكتور محمد بدیع شریف ینتمی الی اسرة عربیة
في بلده (عنہ) معروفة بالتفقه بالشريعة الاسلامية و تعرف باسرة المفتی وقد
بقيت وظيفة الافتاء في هذه الأسرة بهذه البلدة عشرات السنين .
درس الشريعة في كلية الامام الاعظم وحصل على ليسانس في التربية
و تدريس اللغة العربية من دار العلوم بالقاهرة (اجازة التدريس) و تعيين
مدرسا في دار المعلمين في بغداد . ثم اختارته وزارة المعارف وضمته إلى البعثة
للدراسة في المانيا عام ١٩٣٦ وبعد دراسة ثلاثة سنوات في جامعتي برلين
وبون نقل دراسته إلى سويسرا فنال فيها شهادة الدكتوراه في التاريخ
الإسلامي والأداب من جامعة (بازل - سويسرا) .

وفي عام ١٩٤١ ولظروف الحرب التحق بالجامعة نفسها فحصل على
الدكتوراه في القانون العام سنة ١٩٤٥ . ثم عاد إلى العراق في نهاية عام ١٩٤٥
وعين مفتشاً احتراسياً في ١٦/٢ ١٩٤٦ في وزارة المعارف ومن هذا التاريخ
تقلب في مناصب الدولة الإدارية والعلمية فعين مديرًا للتعليم الثانوي ثم مديرًا
لنشر والترجمة والتاليف ثم سكرتيراً لوزارة المعارف وعين بعد ذلك استاذًا
مساعدًا في دار المعلمين العالية لتدريس الأدب العربي . ثم عين بعد ذلك
ملحقاً ثقافياً في القاهرة وبعد عمل خمس سنوات في هذه الوظيفة عين مديرًا
عاماً لوزارة المعارف ثم عين استاذًا لكرسي القانون وعميداً لكلية التجارة
ثم ملحقاً ثقافياً في لندن وفي عام ١٩٥٨ نقل استاذًا في جامعة بغداد

ومديراً لمعهد الادارة العامة ثم عين مدونا قانونياً في وزارة العدل وبعد عمل
ما يزيد على سنتين عين عضواً في مجلس الخدمة العامة . وبعد عمل سنتين
في هذه الوظيفة عين رئيساً لديوان رئاسة الجمهورية وهو منصبه الحالي .

الانتاج الفكري :

الف كتاباً في نقد الأدب العربي وكتاباً في أصول تدريس اللغة العربية
وكتاباً في الفدرال (الاتحاد السويسري) .

وضع اطروحته التي نال بها الدكتوراه في التاريخ بعنوان حركة
الموالى في الخلافة الشرقية باللغة الالمانية ونقلها الى العربية بعنوان (الصراع
بين الموالى والعرب) .

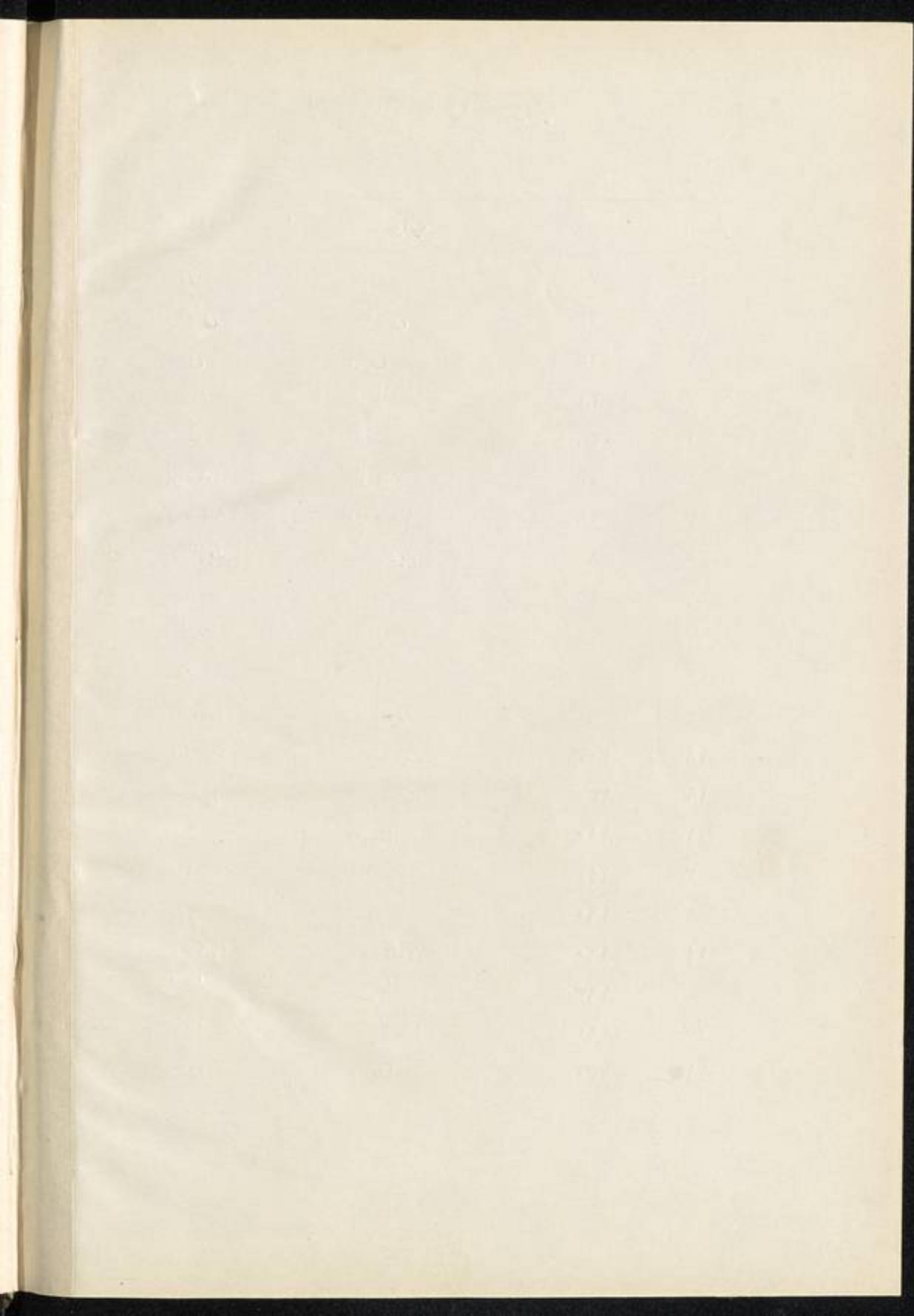
ووضع اطروحة في القانون العام (الدستور) باللغة الالمانية .

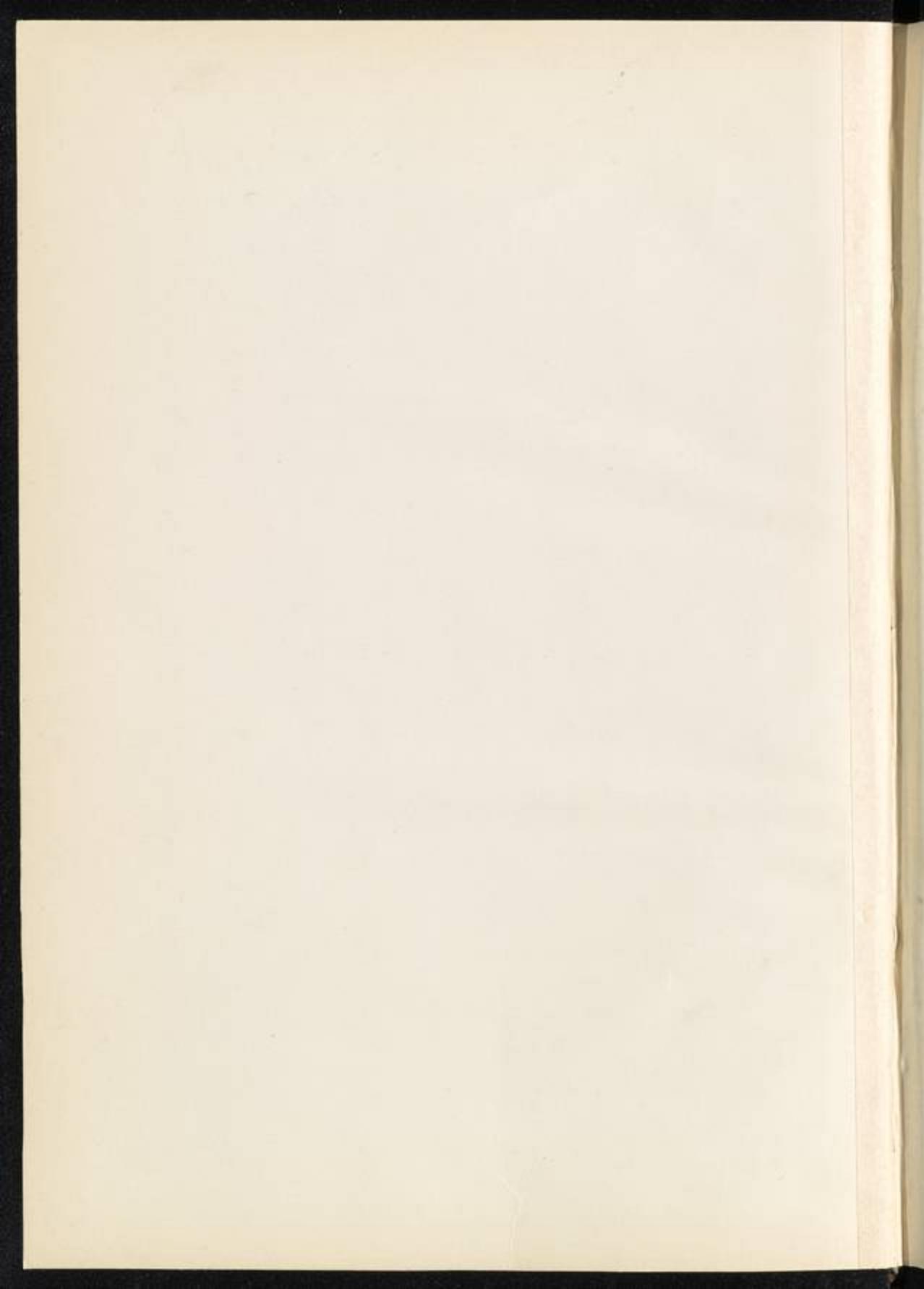
ترجم عن الالمانية « حوار العباقرة » وكتاب العالم المرح ، حرق لامية
العرب وشرحها وآخر كتاب له هذا المؤلف الذي بين يدي القارئ وله
مخطوطات تنتظر النشر .

الناشر

الخطأ والصواب

خطأ	صواب	الصفحة	السطر
فأذن	فاذن	٢٢	٢٤
فرائض	فرائض	٢٣	٢٣
بياض	بيض	٢٥	٤
لانتقاد	لانقاذ	٣١	٢
كتف	كتف	٣٦	١
الزناد	الزناد	٤٣	٢
او سمه اجتماعياً	او سمه عدلاً اجتماعياً	٤٩	٣
الخنازيد	الصناديد	٨٠	٢٥
العقبة	الكعبة	٨٥	٢١
الآلهة	الآله	٩٣	٧
جيـن	حيـن	٩٩	١٢
الحـامـحة	الجامـحة	٩٩	٢٤
وانقسمت	وانقسمت	١٠٣	١٨
الحـصـى ^١	الحـصـيات	١٣٥	١٩
انهـما	انهـم	١٤٠	١
واـذا	واـذ	١٤٤	٢
فـانـهم	فـانـهم	١٦٠	٩
وـيـرـكـنـوا	وـيـرـكـنـونـ	١٦٠	١٤
مـنـى ^١	مـنـى	١٦٣	-
يـسـتـطـعـونـ	يـسـتـطـعـوا	١٩٤	٢٣
يرـيدـا	يرـيدـا	٢٣٠	١١

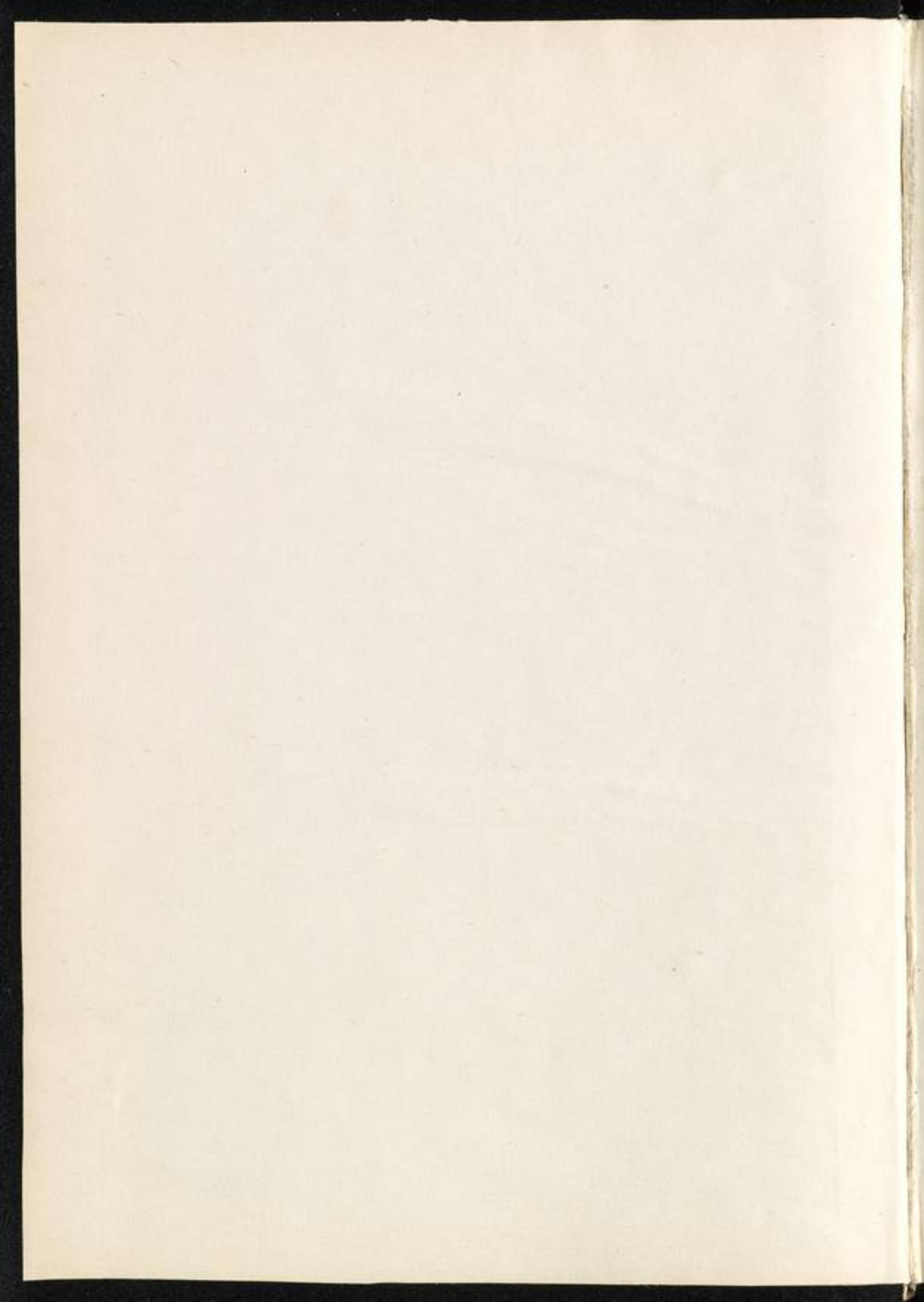


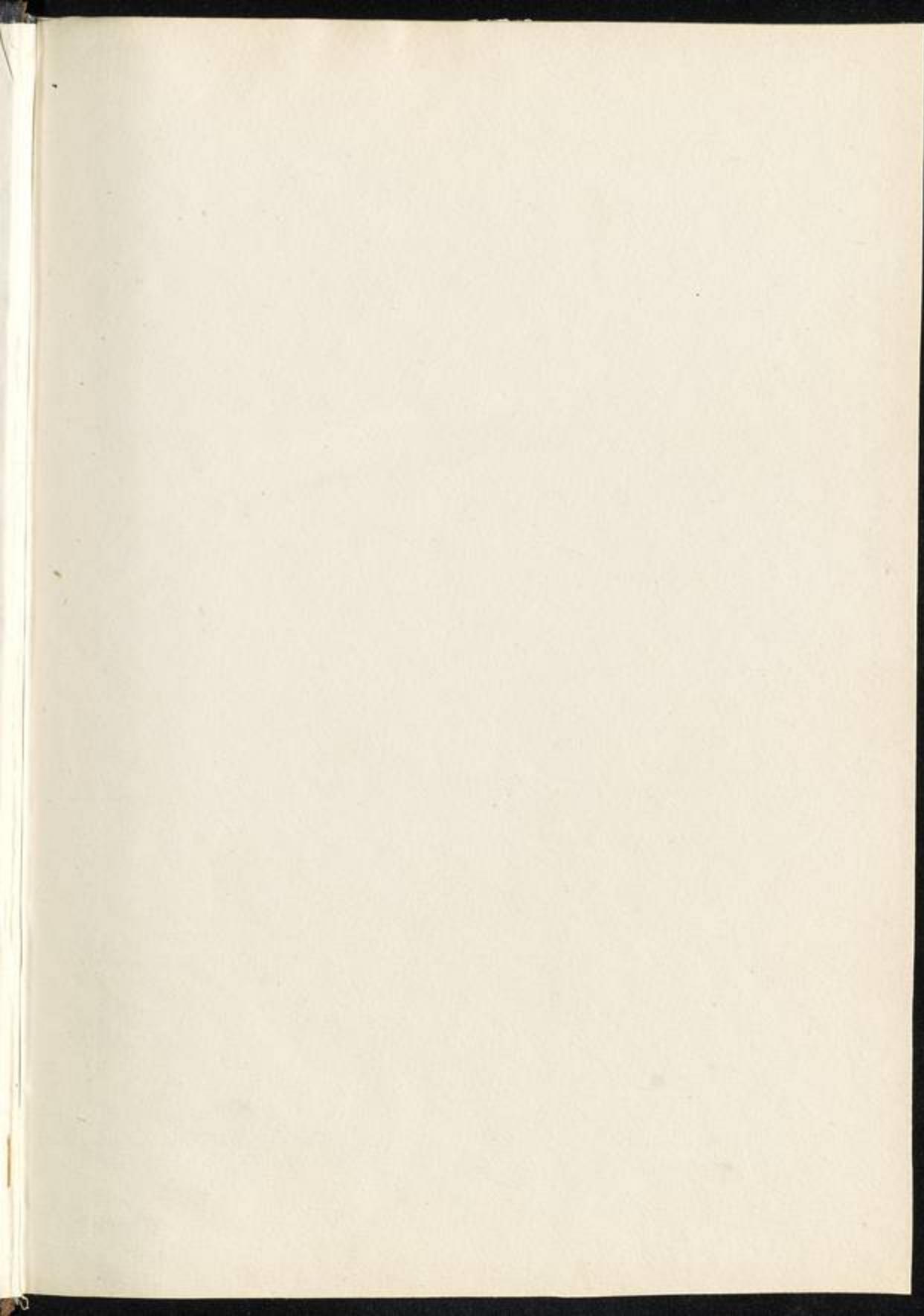


من هذا الكتاب

ما رأت البشرية عهداً من عهود النبوات ولا كتب التاريخ صفة
من صفحات المصلحين مثل هذه الفترة التي مر بها عهد النبوة
من مشرق الدعوة الى اكمال العقيدة الاسلامية . لقد
اختفى في هذه الفترة سلطان الارض عن رقابة الرعية
ومشت أحوال المجتمع رخاء يعرف كل امرئ حقه دون
الرجوع الى درجات المحاكم ودوائر الامن ومركز
الشرطة ومعاقل السجون وكانت السماء هي
الرقيبة على هذه الامة .. وفي هذه الفترة ظهرت
شخصية المسلم فكان الصحابي مثال الرجل
الكامل نور القرآن يمشي بين يديه وسيرة
الرسول ماثلة أمام عينيه وهي سيرة فيها
معاني المثل العليا فالمؤمن لا يكذب
والمؤمن لا يغضب بل يعالج اموره
بالحلم والعقل والعزم والارادة
والمؤمن يؤثر على نفسه ولو كان
به خصاصة والمؤمن أخوه المؤمن
وناهيك بهذه الاخوة
من تضحية وايثار .

الناشر





BP
187.3
.B27

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU55321127

BP187.3 .B27 *Fi mahbit al-wahy*